محمد عبد الله عنان

تاريخ الجامع الأزهر

الطبعة الثانية
نقحت وضمت إليها فصول جديدة

نشرت بعناية مؤسسة الخانجي بالقاهرة

د. حسن حبشي
جامعة صنعاء
١٩٨٥/٥/١٧

محمد عبد الله عنان

تاريخ الجامع الأزهر

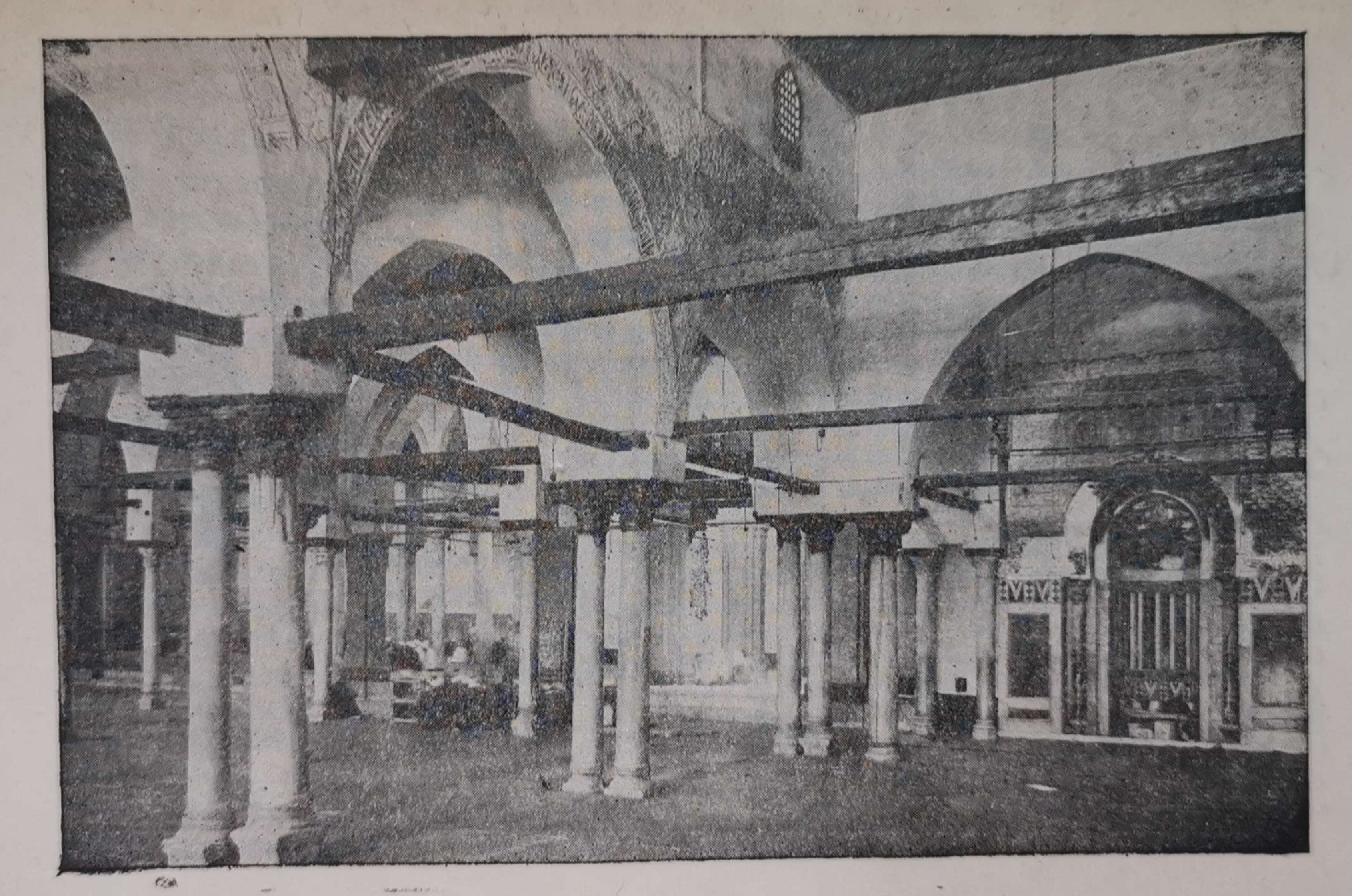
الطبعة الثانية

نقحت وضمت إليها فصول جديدة

نشرت بعناية مؤسسة الخانجي بالقاهرة

الطبعــة الثانيــة
سنة ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م

القـــاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر



الجامع الأزهر - الحرم الداخلي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى شهر يونيه سنة ١٩٤٢ (جمادى الأولى سنة ١٣٦١ هـ) ؛ وكنت أقصد بإخراجه يومئذ ، أن أوجه الأنظار إلى حدث علمى وقومى هام ، هو بلوغ الجامع الأزهر – جامعة مصر الإسلامية الكبرى – عمره الألفى فى اليوم السابع من رمضان سنة ١٣٦١ ، الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٢ ، وإلى أنه يجب أن يحتفل بهذا العيد احتفالا قوميا يليق بخطره وعظمته .

وقد كانت الحرب العالمية الثانية يومئذ ، فى أوج اضطرامها ، فلم يك ثمة مجال ، لأن ينال هذا العيد القومى الجليل كل ما يجب من الإهتمام والرعاية ؛ ولكن كان ثمة أمل فى أن يحتفل به على النحو الذى كانت تسمح به الظروف يومئذ . بيد أنه بالرغم ، مما بدا من اهتمام السلطات بالأمر ، ومحاولتها الاستجابة لهذه الدعوة ، فإنه لم يعمل مع الأسف شيء فى هذا السبيل ، ومر العيد الألفى للجامع الأزهر فى غمرة الحوادث دون احتفال ما ،

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية فى ربيع سنة ١٩٤٥ ، حاولت مرة أخرى ، أن ألفت أنظار أولى الأمر ، إلى أن الفرصة ما تزال سانحة للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، وأنه إذا كان الجامع الأزهر ، قد بلغ عمره الألفى فى رمضان سنة ١٣٦١ هـ ، باعتبار أننا نتخذ تاريخ إنشائه أساسا لاحتساب عمره الألفى ، فإنه ما تزال ثمة فرصة أخرى ، لاحتساب عمره الألفى كجامعة ومعهد للدرس ؛ وهو قد بدأ حياته الجامعية فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ ، وعلى ذلك فإنه يبلغ عمره الألفى على هذا الأساس فى صفر سنة ١٣٦٥ هـ (أوائل سنة ١٩٤٦ م) .

ولكن هذه الدعوة ذهبت كسابقتها سدى ، وانتهى الأمر بأن ألقت مصر على عيد من أعظم أعيادها العلمية والقومية ، حجب الإغضاء والنسيان .

* * *

وقد كنت حينما أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، لمناسبة حلول عيد الأزهر الألفى ، قد عنيت عناية خاصة ، بالإفاضة فى تاريخ الأزهر ، ونظمه وأحواله خلال العصر الفاطمى ، واكتفيت ، بأن مررت فى تكملة موجزة على تاريخه ونظمه فيما تلا من العصور حتى العصر الحاضر .

ولم يخطر لى طول الأعوام المنقضية أن أصدر طبعة ثانية من

الكتاب : ذلك أنى تركت منذ نحو خمسة عشر عاما ، ميدان البحوث فى تاريخ مصر الإسلامية — بعد أن أصدرت كتابىّ « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » و « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » — وانتقلت الى ميدان البحوث لأندلسية ، وانقطعت لها من ذلك الحين سـواء فى القاهرة أو فى مدريد . ولكن وزارة الثقافة والإرشاد ، رغبت إلى ، فى أن أصدر طبعة جديدة من « تاريخ الجامع الأزهر » تكون أوسع مدى ، وأوفى تفصيلا ، بحيث تعرض للقراء فى مصر ، وفى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، تاريخ الجامع الشهير ، وأحواله ، ومآثره العلمية حتى عصرنا ، فى نوع من التفصيل الشافى . وبالرغم من انشغالى بإخراج كتابىّ « نهاية الأندلس » و « الدولة العامرية » ، فإنه لم يسعنى إلا أن أستجيب لرغبة وزارة الثقافة والإرشاد ، وأن أبذل ما استطعت من الجهد فى إكمال الكتاب وإخراجه فى هذا الثوب الجديد ؛

وقد أضفت إلى هذه الطبعة عدة فصول جديدة ، فى تاريخ الأزهر منذ عصور السلاطين حتى عصرنا ، وعنيت عناية خاصة ، بتفصيل الدور القومى العظيم الذى لعبه الأزهر ، شيوخه وطلابه ، أيام الإحتلال الفرنسى ، هذا فضلا عما قمت به فى مواطن عديدة من تعديلات وزيادات للنصوص القديمة ؛ كما عنيت بأن

أستعرض خلال هذه الفصول جمهرة كبيرة ، من علماء الأزهر ، ومن العلماء الوافدين عليه ، فى مختلف العصور .

ورجعت فى ذلك إلى طائفة كبيرة من المراجع ، فى مقدمتها مؤلفات المقريزى ، والقلقشندى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى ، والسيوطى . أما عن تاريخ الأزهر وأحواله منذ القرن السابع عشر ، وخلال الإحتلال الفرنسى ، فقد كان تاريخ الجبرتى ، بالطبع ، أغزر وأنفس مرجع ، وفيه أدق وأشمل رواية وصلت إلينا عند موقف الأزهر ، وموقف شيوخه وطلابه أثناء الاحتلال الفرنسى

وقد ذيلت الكتاب بطائفة من الوثائق والإحصاءات والملاحق المتعلقة بمنشآت الأزهر ، وموارده ، وميزانيته ، وشيوخه وطلابه .

وأود أخيراً ، أن أكرر هنا ما قلته فى ختام الطبعة الأولى من الكتاب ، وهو أن الجامع الأزهر قد غدا فكرة ونظاما ، وأننا لهذه الفكرة الألفية ، وهذا النظام القديم المؤثل ، نستقصى ونؤرخ ، ولا رائد لنا إلا أن نلقى الضياء على صفحة مجيدة من صفحات تاريخنا العلمى والقومى .

القاهرة فى ربيع الثانى سنة ١٣٧٨ هـ
الموافق نوفمبر سنة ١٩٥٨ م

محمد عبد الله عنان

الكتاب الأول

الجامع الأزهر
في العصر الفاطمي

الفصل الأول

القاهرة المعزية والجامع الأزهر

القواعد الإسلامية الأولى ونظامها . الفسطاط ومسجدها الجامع .
مدينتا العسكر والقطائع . إنشاء القاهرة المعزية والجامع الأزهر .
حكمة الإنشاء وسبب التسمية . معالم الأزهر والمدينة الفاطمية .
تجديد الأزهر وعمارته فى مختلف العصور .

— ١ —

كان الجامع الأزهر من غرس الدولة الفاطمية ، أينع ثمره ، وتجددت نضرته ، على كر العصور ، وما زال بعد نيف وألف عام أعظم الآثار الباقية التى خلفتها الدول الإسلامية بمصر :

وكان قيام الأزهر فى نفس الوقت الذى قامت فيه الدولة الفاطمية ذاتها ؛ أنشىء غداة ظفرها بملك مصر ، وغداة قيام القاهرة عاصمتها الجديدة ، وسمى باسمها حيناً من الدهر . ثم خبا نجم الدولة الفاطمية بعد أن سطع مدى قرنين ، وذوى غصنها ، ومحيت آثارها المادية والمعنوية بسرعة ؛ ولكن الأزهر نجا من عواقب المحنة ، واستطاع أن يخرج من غمر الإنقلاب بعد فترة

من الإعراض والركود سليما قويا ، وأن يتابع حياته الطويلة ، غير حافل بما يعترضه من الصعاب والعثرات .

وقد عرفت مصر قبل قيام القاهرة المعزية ثلاث قواعد أو عواصم إسلامية ؛ أولاها فسطاط مصر التى أنشئت فى سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) عقب الفتح الإسلامى ؛ والثانية مدينة العسكر التى أنشأها الجند العباسيون إلى جانب الفسطاط عقب انتزاعهم مصر من يد الأمويين فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ؛ والثالثة مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) لتكون عاصمة الدولة الجديدة . كذلك عرفت مصر قبل قيام الجامع الأزهر ثلاثة مساجد جامعة ، هى المسجد الجامع أو جامع عمرو[1] ، فجامع العسكر ، ثم جامع ابن طولون ، أو بعبارة أخرى كانت كل قاعدة ، من هذه القواعد الإسلامية المتعاقبة تزود عند قيامها بمسجدها الجامع أو جامعها الرسمى الخاص .

وهذه ظاهرة معروفة فى خطط القواعد الإسلامية الأولى . ولم يكن اتباعها وليد المصادفة ، بل كان أثرا من آثار السياسة الموضوعة لإنشاء الأمصار الإسلامية فى البلاد المفتوحة ، وهى سياسة ترجع إلى عصر عُمَر ذاته ؛ كتب بها عمر إلى الولاة ومنهم

---

(١) وقد عرف جامع عمرو بعدة أسماء أخرى منها الجامع العتيق ، وجامع مصر ، ومسجد أهل الراية وغيرها .

عمرو بن العاص فاتح مصر وأول ولاتها ، بأن يتخذوا فى كل مدينة مسجداً للجماعة(١) . واتبعت هذه السياسة فى خِطط القواعد الإسلامية الأولى ، مثل البصرة والكوفة ومدن الشام والفسطاط : فحيثما تقوم العاصمة الإسلامية الجديدة يقوم فى وسطها المسجد الجامع ، وتقام من حوله خِطط القبائل المختلفة . وكانت هذه المساجد الجامعة تحمل منذ البداية طابعاً رسمياً ؛ وكما أن العواصم الإسلامية الجديدة كانت تعتبر رمزاً لظفر الإسلام ، فكذلك المساجد الجامعة كانت تعتبر رمزاً لسيادة الإســلام الروحية ، ومنبراً للدين الجديد والرسالة الجديدة .

هكذا كان شأن الفسطاط أول عاصمة للإسلام فى مصر : فقد كان قيامها رمزاً لظفر الإسلام السياسى بافتتاح قطر جديد من أقطار الدولة الرومانية . وكان مسجدها الجامع رمزاً لسيادة الإسلام الروحية حيثما كانت تسود النصرانية . وكان لهذا المسجد الجامع فوق ذلك صبغته الرسمية ؛ فقد كان مركزاً لصلاة الجماعة التى لبثت عصراً خُطة خاصة إلى جانب خُطط الحرب والقضاء والخراج . وكان يلى إمامته فى الصلوات الخمس ، وفى صلاة الجمعة وخطبتها فى عصر الفتح الأول ، أمير مصر ذاته ؛ فكان

---

(١) خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٤٩

الأمير يجمع بين الصلاة والخراج فى أحيان كثيرة ؛ وأحياناً يُسند الخراج إلى شخص آخر ويتولى الأمير الصلاة إلى جانب خُطة الحرب (الحكم) ؛ وكان الأمير يستخلف عنه فى الصلاة صاحب الشرطة إذا تعذر عليه إقامتها بنفسه(١) . كذلك كان المسجد الجامع مركز الدعوات والخطب والمجالس الرسمية ؛ وبه يعقد ديوان الخراج ؛ وكان مركز القضاء الأعلى يجلس به قاضى القضاة يومين فى كل أسبوع ؛ وتتلى فيه الأوامر والمنشورات والسجلات ، واستمر ذلك عصوراً متوالية(٢) .

ثم غدا المسجد الجامع بمضى الزمن وظروف العصر أيضاً مركز الحلقات العلمية والأدبية ، وأضحت هذه الصفة الجامعية من بعض مهامه وصفاته . وكانت المساجد الجامعة تختص بهذه الصفة العلمية فى عصر لم تعرف فيه معاهد الدراسة المنظمة ، التى حفلت بها الأمصار الإسلامية فيما بعد . وهكذا كان شأن المسجد الجامع ، فقد كان منذ إنشائه قلب الفسطاط الفكرى ، وكان أهم مركز للدراسة . وكانت حلقاته إلى جانب الحلقات الخاصة ، أشهر المجتمعات العلمية والأدبية العامة . وقد لبثت ساحاته مدى

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٨٣ .

(٢) الخطط ج ١ ص ١٣٢ و ج ٤ ص ١٦ و ٤٣ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

عصور ندوة فكرية أدبية جامعة ، وفيها كانت توجه حركة التفكير والآداب فى مصر الإسلامية :

بل هنالك ما يدل على أن المسجد الجامع كان يقوم بمهمته الجامعية فى دراسة الفقه بطريقة منظمة ؛ فقد أنشئت به منذ أوائل القرن الثالث عدة زوايا يدرس بها الفقه على مختلف المذاهب ، ولكل زاوية أستاذ يجرى عليه الرزق ، وكان منها الزاوية الشهيرة التى تنسب للإمام الشافعى ؛ واستمرت هـذه الزوايا عصوراً ، واستمر المسجد الجامع قائماً بمهامه العلمية حتى قيل إن حلقاته بلغت فى منتصف القرن الثالث زهاء خمسين[1] .

ولما أقيمت مدينة العسكر إلى جانب مدينة الفسطاط ، وأقيم جامع العسكر إلى جانب المسجد الجامع حسبما قدمنا ، كان ثمة فى إقامة المدينة الجديدة مغزى لظفر العباسيين السياسى ، وفى إقامة الجامع الجديد مغزى لظفر الدعوة العباسية ؛ وكانت العسكر وجامعها يمثلان ظفر الدولة الجديدة من الوجهتين السياسية والدينية .

ونستطيع أن نتبين هذا المعنى فى قيام مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية الجديدة ، وإن لم يكن ملحوظاً فى إقامة مسجدها الجامع (جامع ابن طولون) ، لأن الدولة الطولونية لم يكن لها لون دينى خاص . بيد أنه لا ريب أن إنشاء القطائع ومسجدها

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٢٠ و ٢١ .

الجامع يرجع إلى نفس المغزى السياسى والروحى الذى سبقت الإشارة إليه ، وهو التنويه بسلطان الدولة الجديدة وسيادتها .

— ٢ —

كان قيام القاهرة المعزية أسطع مثل لتطبيق هذه السياسة التقليدية ، والتنويه بهذا المغزى السياسى والروحى : وكما أن الفتح الفاطمى كان ذروة الصراع بين الدولتين العباسية والفاطمية فكذلك كان ذروة الصراع بين دعوتين خصيمتين ؛ وكان غنم الفاطميين لمصر ذروة هذا الظفر الذى جنوا ثماره ، بعد معركة دامت فى الخفاء زهاء قرنين ، وأسفرت عن قيام هذه الدولة العُبيدية التى وثبت فى المغرب وثبتها الأولى ، واجتاحت مُلك الأغالبة ؛ ثم زحفت قواتها الفتية على مصر ، لا لتسحق فيها فقط ملك بنى الإخشيد المتداعى ، بل لتسحق فيها أيضاً دعوة بنى العباس التى كانت تدين بها مصر حتى فى ظل دول مستقلة كالدولة الطولونية ، والدولة الإخشيدية ، ولتقيم مكانها دعوتها الشيعية الإمامية أو دعوة آل البيت التى كانت تحمل شعارها ولواءها .

وكان الفتح الفاطمى لمصر فى عهد المعز لدين الله رابع الخلفاء العُبيديين بالمغرب . ودخلت الجيوش الفاطمية مدينة مصر (الفسطاط) بقيادة جوهر الصِّقلى فى السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٩) ؛ وشقها الجيش الظافر عند

مغيب الشمس ؛ ثم عسكر فى الفضاء الواقع تجاهها نحو الشمال الغربى . وفى نفس الليلة وضع القائد جوهر تنفيذاً لأوامر سيده المعز ، أول خِطة فى مواقع المدينة الجديدة التى اعتزم الفاطميون إنشاءها ، لتكون لهم فى مصر قاعدة ومعقلا ، وحفر أساس قصر جديد فى نفس الفضاء الذى نزل فيه جيشه فكان هـذا مولد القاهرة المعزِّية . واختطت القبائل الشيعية حول القصر كل قبيلة خِطة عرفت بها ، وأقيم حولها جميعاً سور منيع ، وسميت المدينة الجديدة بالقاهرة تفاؤلا وتيمناً بالنصر(١) . وترجع بعض الروايات هذه التسمية إلى قصة فلكية تتعلق بطالع المدينة إذ وضع أساسها حينما كان المريخ فى الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر ، وقيل إن جوهرا سمى المدينة الجديدة أولا بالمنصورية ، فلما قدم المعز إلى مصر غير اسمها وسماها القاهرة : وقيل إن المعز حينما وجه الخطاب إلى جوهر وهو على رأس الجند الذاهب إلى مصر قال له : « ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا »(٢) . وقال ابن سعيد إنها سميت كذلك لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها ، وأن منها يملكون الأرض ،

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٠٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤١ .

ويستولون على قهر الأمم ، وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به[١] . وقيل غير ذلك . وإرجاع التسمية الى التفاؤل والتيمن بالنصر أرجح وأدل على المغزى المقصود . فقد كانت المدينة الجديدة عنواناً لظفر الدولة الفاطمية بافتتاح مصر ، ذلك القطر الغنى الزاهر الذى لبثت حيناً تتوق الى افتتاحه واغتنامه، وظفرها بمحو الدعوة العباسية من قطر من أهم الأقطار الإسلامية . ومن جهة أخرى فقد كان معنى التفاؤل والتيمن ملحوظاً فى كونها قد أقيمت لتكون معقلا للفاطميين فى مصر ، لرد خطر القرامطة الذين سادت دعوتهم بلاد العرب يومئذ ، واجتاحوا الشأم مراراً وأصبحوا خطراً على مصر ذاتها .

وأقيم بالعاصمة الجديدة مسجد جامع على نحو ما اتبع فى إنشاء الفسطاط والعسكر والقطائع ، وبدئ بإنشائه فى ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ ﻫ (أبريل سنة ٩٧٠ م) . وإلى هـذا التاريخ أيضاً يرجع بعض المؤرخين نشأة القاهرة المعزّية . بيد أننا نرى مع المقريزى أعظم مؤرخى الخطط المصرية ، أن مبعث القاهرة يرجع إلى وضع خططها الأولى ، ووضع أساس

---

(١) الخطط عن ابن سعيد ج ٢ ص ١٨٧ . والظاهر أن المقريزى يخلط هنا بين كتابى ابن سعيد الأندلسى « المغرب فى حلى المغرب » ، « والمشرق فى حلى المشرق » إذ ينسب ما ينقله هنا عنه إلى المغرب مع أن المرجح أنه قالها فى المشرق .

القصر الفاطمى فى شعبان سنة ٣٥٨[١] . ولم يكن ذلك المسجد الجامع الذى أنشأه جوهر الصقلى فى القاهرة المعزية الى جانب القصر الفاطمى سوى ذلك الجامع الشهير — الجامع الأزهر — الذى قدر له أن يشاطر المدينة العظيمة حياتها المديدة ، وأن يبقى على ممر الدهر أثراً خالداً للدولة التى شادته .

وتم بناء الجامع الأزهر فى عامين وثلاثة أشهر ، وافتتح للصلاة فى يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) . وكانت الحكمة واضحة فى إنشاء المسجد الجديد ، بل كانت أشد وضوحاً فى المقصد والمغزى من أية فرصة سابقة ، فقد كانت الدولة الفاطمية دولة الإمامة الشيعية ،وكان الجامع الأزهر أول مسجد أقامته الشيعة بمصر . ومن ثم فقد كان قيام الجامع الأزهر رمزاً لسيادة دعوة دينية جديدة هى الدعوة الشيعية ، كما كانت القاهرة المعزية رمزاً لظفر الدولة الجديدة وسيادتها .

وسمى المسجد الجديد بجامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة . وأما تسميته بالجامع الأزهر فالظاهر أنها لم تحدث إلا فى تاريخ متأخر . بل هناك ما يدل على أن التسمية الأولى أعنى جامع القاهرة هى التسمية التى كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمى . ذلك أن معظم مؤرخى هذا العصر ، وفى مقدمتهم المسبّحى وابن الطوير

---

(١) الخطط ج ٢ ص ١٧٩ .

وابن المأمون ، يذكرونه دائماً باسم جامع القاهرة وقلما يشيرون إليه باسم الجامع الأزهر . وحتى فى العصور المتأخرة حتى القرن الثامن الهجرى ، نرى هذا الإسم أى جامع القاهرة يطلق عليه فى كثير من المواطن إلى جانب اسمه الآخر أى الجامع الأزهر .

والظاهر أن الجامع الأزهر أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عصر العزيز بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة ، ومنها أطلق على جامع القاهرة وهو مسجد الدولة الرسمى اسم الجامع الأزهر . وأما أصل التسمية فالظاهر أنها ترجع إلى اسم السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله وزوج أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهى التى يرجع الفاطميون نسبتهم إليها .

وعلى أى حال فقد استمر مسجد القاهرة الجامع ، يعرف بهذين الاسمين حتى عصر متأخر ؛ وحتى فى عصر المقريزى صاحب الخطط أعنى فى أوائل القرن التاسع نراه يعرف بالإسمين ؛ ثم تقلص الإسم القديم أعنى جامع القاهرة شيئاً فشيئاً وغلب عليه اسم الجامع الأزهر أو جامع الأزهر حتى عصرنا[1] .

---

(١) راجع الخطط ج ٢ ص ١٨٠ و ١٨١ و ٢٩٠ و ٣٤٢ و ٣٩٢ . وفى ابن خلكان إشارة تدل على أنه حتى عصره (القرن السابع الهجرى) كان الجامع الأزهر يعرف بالإسمين ، وأن الأزهر لم يكن هو الإسم الغالب عليه (ج ١ ص ١٤٩ فى ترجمة القائد جوهر) .

وما زال الجامع الأزهر يحتل الموقع الذى أقيم فيه منذ ألف عام ، وما زالت فيه بقية من المنشآت والنقوش الفاطمية الأولى تحتل مكانها الأول داخل الصرح القائم ، وهى تكاد تبلغ نصف المسجد الحالى(١) ، ومن ذلك القبة التى برأس المجاز ، وهى ترجع إلى عصر الخليفة الحافظ لدين الله ، وبها نقوش وكتابات كوفية جميلة ؛ وكذلك توجد بعض كتابات وزخارف ترجع إلى عصر الحاكم بأمر الله ، كما توجد زخارف وكتابات فاطمية حول الشبابيك الجصية التى بالجانب الشرقى ، والجانبين القبلى والبحرى . وقد وفقت إدارة الآثار العربية منذ عهد قريب إلى الكشف عن رأس المحراب الفاطمى القديم ، وقد كان مغطى بغطاء خشبى يرجع إلى عصر الملك الظاهر بيبرس ، فظهرت بانتزاعه زخارف ونقوش فاطمية ، يرجح أنها ترجع إلى عهد إنشاء المسجد الأول ، أعنى إلى عهد جوهر والمعز .

وكان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة ، على النحو الذى كان متبعاً فى إنشاء القواعد الإسلامية الأولى ، ويقع على مقربة من القصر الفاطمى الكبير ، المسمى

---

(١) يمكن أن نحدد المسجد الفاطمى القديم من الجهة الشرقية بمقصورة عبد الرحمن كتخدا ، والغربية بنهاية الصحن الكبير ، والبحرية بالمدرسة الجوهرية ومرافق الجامع ، والقبلية بشارع الشيخ محمد عبده .



عقود الجامع الأزهر

بالقصر الشرقى ، وقد كان يقع يومئذ غرب المكان الذى يقوم عليه المسجد الحسينى الآن . وكانت القصور الفاطمية أو القصور الزاهرة المكونة من القصر الشرقى الكبير وملحقاته ، والقصر الغربى الصغير ، والميدان الشاسع الواقع بينهما ، والمسمى بميدان بين القصرين ، تكون مع الجامع الأزهر وما بينهما من الأبنية والساحات ، المدينة الفاطمية الملوكية . ومن حول هذه المدينة الملوكية تقع خطط القبائل والجماعات الفاطمية المختلفة . وما زالت القاهرة المعزية الأولى تحتفظ بقسط من معالمها القديمة . وفى وسعنا أن نحددها اليوم مما بقى من هذه المعالم ، فقد كانت تحد من الشمال بموقع بابى النصر والفتوح وما يليهما ، ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المشرفين على الجبل ، ومن الجهة الغربية بموقع باب السعادة ، وما يليه حتى شاطىء النيل الشرقى ، وقد كان يجرى يومئذ على مقربة من أسوار المدينة الغربية[1] .

* * *

---

(١) ليست هذه المعالم مجهولة لمن يعرف أحياء القاهرة القديمة . فمواقع باب زويله وبابى النصر والفتوح ، وهما حدا القاهرة المعزية من الجنوب والشمال لا تزال قائمة معروفة ، وكذلك مواقع بابى المحروق والبرقية (حى الدراسة الحديثة) تحدد معالم الحد الشرقى للقاهرة المعزية من جهة المقطم . وعلى ذلك يكون موضع المدينة المعزية القديمة مما يشمل الآن الجامع الأزهر وما حوله من الأحياء =



محراب الجامع الأزهر القديم وقد ظهرت به نقوش فاطمية

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون الجامع الأزهر بالتجديد والعمارة فى فرص عدة ، ففى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) جدد فيه العزيز بالله أشياء ، ثم جدده ولده الحاكم بأمر الله وزوده بمجموعة من التنانير الفضية ، ورتب له فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) مع بعض المنشآت الفاطمية الأخرى ، أوقافاً ينفق من ريعها على إدارته وشئونه ، فكانت أول وقفية رتبت للجامع الأزهر . وقام الخليفة المستنصر بالله أيضاً بتجديد الأزهر ، وجدده من بعده الحافظ لدين الله ، وأنشأ فيه مما يلى الباب الغربى مقصورة عرفت بمقصـورة فاطمة الزهراء . وفى عهد الملك الظاهر بيبرس ، قام الأمير عز الدين أيدمر الحلى ، نائب السلطنة بعمارته وتجديده تجديداً شاملا ، وكان الخراب قد تطرق إليه ، فأنفق على عمارته وإصلاحه ، وتجميله أموالا عظيمة ، وسعى فى إعادة خطبة الجمعة إليه كما سيجىء فى موضعه ؛ وتبرع الأمير بيلبك الخازندار بإنشاء مقصورة كبيرة بالجامع ، عين لها بعض الأساتذة لتدريس الفقه الشافعى والحديث النبوى ، ورتب لها سبعة من القراء لتلاوة القرآن ؛ وحبس على ذلك

= والجمالية وقسما من الحسينية وباب الشعرية والموسكى الى الخليج القديم ، والسكة الجديدة والغورية وما حولها ، وحارة الروم وما يليها ودرب سعادة وما يليه الى باب الخلق ، وامتداد ذلك غربا حتى النيل (راجع الخطط ج ٢ ص ١٧٩ وما يليها ، والخطط التوفيقية ج ١ ص ٧) .

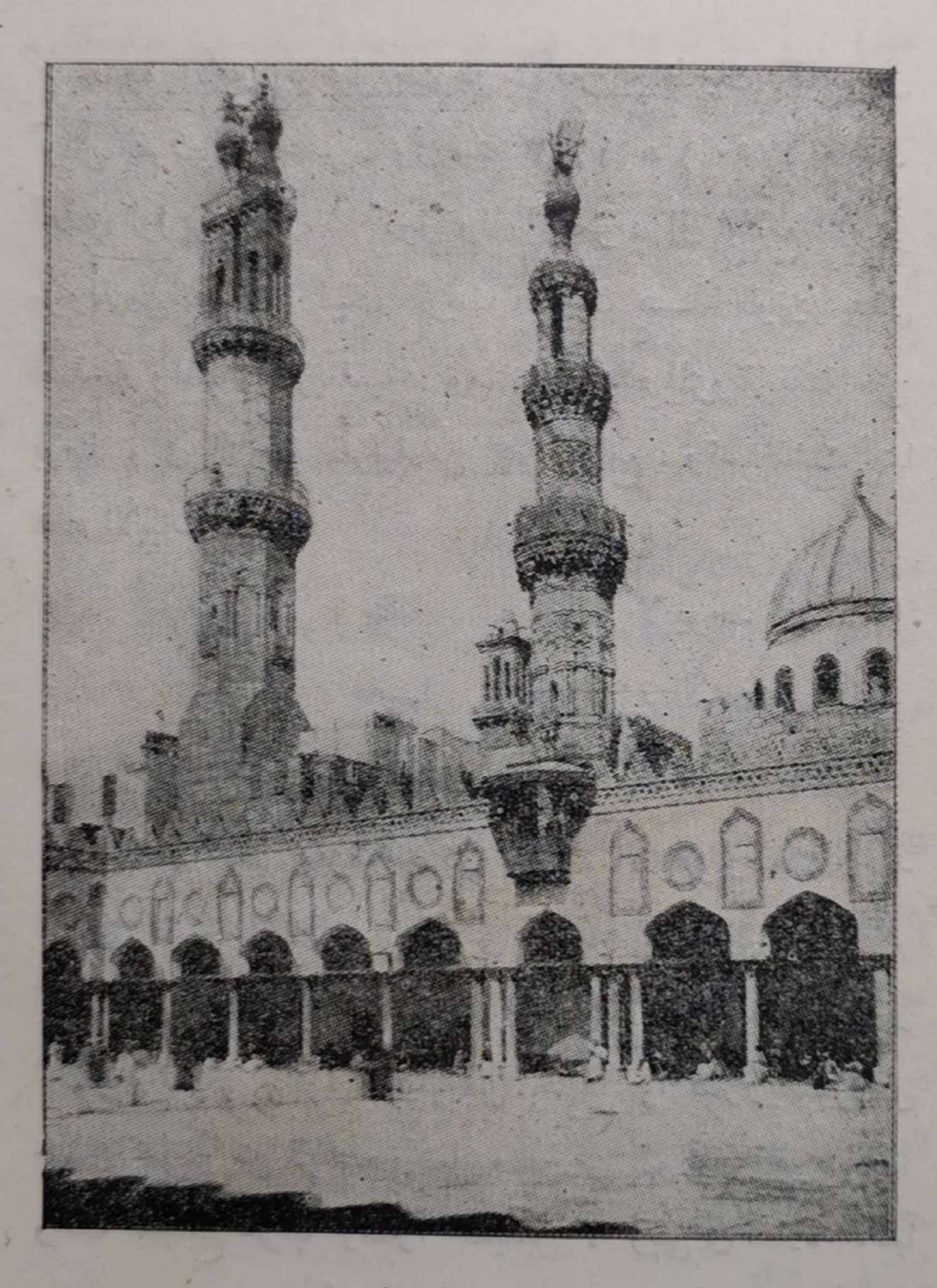
أوقافاً جليلة[١] . وفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) فى عهد السلطان الملك الناصر وقعت بمصر زلزلة عظيمة ، وسقطت منشآت عدة منها الجامع الأزهر ؛ فقام أمراء الدولة على عمارة هذه المنشآت ، وتولى عمارة الجامع الأزهر الأمير سلار ؛ وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس نقيب الجيوش مدرسته التى عرفت باسمه « الطيبرسية » بجوار الجامع الأزهر من الجهة الغربية البحرية ، لتكون ملحقاً له ، وكمل بناؤها فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وقرر بها درساً للشافعية . وبعد ذلك بقليل أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر ، مدرسته المقابلة لها فى الزاوية البحرية الغربية للجامع الأزهر ، مكان دار الأمير عز الدين أيدمر الحلى ، وأنشأ بها دروساً للشافعية والحنفية وملجأ للصوفية . وقد حجبت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية واجهة الجامع الأزهر الغربية ، وما زالتا قائمتين فى مكانهما إلى اليوم . وفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) قام بتجديد الجامع الأزهر وعمارته القاضى نجم الدين محتسب القاهرة ؛ ثم جددت عمارته سنة إحدى وستين وسبعمائة فى عهد السلطان الملك الناصر حسن ، على يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار ، وكان يسكن على مقربة من الأزهر ، فاستأذن السلطان فى إصلاحه وقام فيه بعمارة

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٥٢ .

شاملة ، وأنشأ فيه دروساً جديدة للفقه الحنفى ، ورتب لطلابه أطعمة توزع عليهم كل يوم ، وأوقف على ذلك أوقافاً جليلة ، وفى سنة ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) زار الملك الأشرف قايتباى الجامع الأزهر ، وكان يعنى بأمره عناية خاصة ، وأمر بإزالة الخلوات التى كانت بسطح الأزهر وفقاً لفتوى صدرت بذلك ، ورسم بتجديد الجامع وعمارة ما تشعث منه ؛ وأمر بإنشاء المنارة الواقعة فى الجهة البحرية الغربية إلى يمين المدرسة الأقبغاوية والباب الذى تعلوه ، حسبما نقش على أحجار هذا الباب ؛ وتمتاز هذه المنارة برشاقتها وزخارفها الجميلة . وفى أواخر عهد الأشرف أيضاً ، قام الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى بعمارة الجامع الأزهر وتجديده ، وأنفق عليه من أمواله جملة كبيرة ، وانتهت هذه العمارة فى سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٤ م) . ثم أنشأ السلطان الغورى فى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) بالأزهر منارته الجميلة ذات الرأسين ، وهى التى مازالت قائمة إلى الآن فى الجهة الغربية إلى جانب منارة الأشرف قايتباى .

وفى أثناء العهد التركى قام عدة من الولاة والأكابر بتجديد الأزهر ، فجدده فى سنة ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ م) الشريف محمد باشا والى مصر ورتب به أطعمة للفقراء . وعمر به الوزير حسن باشا الوالى مقام الحنفية فى سنة ١٠١٤ هـ (١٦٠٥ م) ؛



منارتا الغورى وقايتباى وقبة الأقبغاوية من الداخل
ومنظر البوائك الغربية

ثم جدده الأمير إسماعيل بك بن الأمير إيواظ بك القاسمى فى أوائل القرن الثانى عشر . وفى سنة ١١٦٣ هـ (١٧٥٠ م) ، أهدى الوزير أحمد باشا كور والى مصر ، إلى الجامع الأزهر مزولة من تصميمه لبيان الوقت ، وكان هـذا الوزير يعشق الهندسة والمسائل الرياضية . وما زالت هذه المزولة قائمة حتى يومنا ، فى الناحية الغربية من صحن الجامع ، وقد نقشت تحتها هذه الأبيات :

مزولة متقنة نظيرها لا يوجد
راسمها حاسبها هذا الوزير الأمجد
تاريخها أتقنها وزير مصر أحمد(١)

بيد أن أعظم عمارة أجريت بالجامع الأزهر فى ذلك العهد هى التى قام بها الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلى فى أواخر القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى) ، فقد أنشأ هذا الأمير الكبير فى الناحية الشرقية القبلية من الجامع بهواً كبيراً يشتمل على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة ؛ وأنشأ للجامع محراباً ومنبراً جديدين ، وبنى فى أعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن ، وأنشأ أيضاً بداخله رحبة متسعة وصهريجاً

---

(١) راجع عجائب الآثار للجبرتى ج ١ ص ١٩٤ .

عظيما ، وأنشأ له داخل هذه الرحبة مدفناً عليه قبة معقودة ، كما أنشأ بتلك الجهة رواقاً خاصاً لطلاب الصعيد ؛ وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها هى والمدرسة الأقبغاوية داخل الجامع ، وأنشأ فيما بينهما باباً عظيما بالهيئة التى نراها اليوم ؛ وأنشأ للجامع منارتين جديدتين ، تقع إحداهما فى الجهة الشرقية القبلية والأخرى فى الجهة الشرقية ؛ وعلى الجملة فقد كانت هذه العمارة أعظم ما شهد الجامع الأزهر منذ قرون ؛ ورتب الأمير الكبير للجامع وطلابه مرتبات وأطعمة كثيرة ، وما زال الجامع الأزهر بوجه عام على حاله التى جدده بها عبد الرحمن كتخدا ، ما عدا تغييرات وإضافات قليلة أجريت فى العهد الأخير [١] .

وهكذا لبث الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة موضع العناية والرعاية من الخلفاء والسلاطين والأمراء ، يتعهدونه بالتجديد والإصلاح والنفقة المستمرة ؛ ولم يحظ جامع آخر من جوامع مصر التاريخية بمثل ما حظى به الأزهر من رعاية ؛ وقد يرجع أكبر الفضل فى ذلك إلى ما يتمتع به الأزهر من الصفات العلمية إلى جانب صفته الدينية ؛ وما زال الجامع الأزهر بفضل هذه الرعاية المستمرة ، يحتفظ بفخامته ورونقه وجدته ، بالرغم من عمره الألفى .

---

(١) توفى الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) ، وراجع ترجمته وتفاصيل منشآته الكثيرة بالأزهر وغيره من المساجد والمدارس ، فى عجائب الآثار للجبرتى ج ٢ ص ٥ وما بعدها .

الفصل الثاني

المعز لدين الله ووزيره جوهر

المعز لدين الله . طموح الفاطميين الى فتح مصر . جوهر وزير المعز . افتتاحه لمصر وأمانه لأهلها . مقدم المعز إلى مصر وقيام الخلافة الفاطمية بها . اتسامه بصفة الإمامة . الصراع بينه وبين القرامطة . وفاته . خلال جوهر ووفاته .

والآن يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن ذينك الرجلين العظيمين اللذين يرتبط اسماهما إلى الأبد بإنشاء تلك المؤسسة الدينية والعلمية الكبرى ، أعني المعز لدين الله ووزيره وقائده جوهر الصقلي .

كان المعز لدين الله ، وهو أبو تميم معدّ رابع الخلفاء الفاطميين بالمغرب وأولهم بمصر ؛ ولد بالمهدية عاصمة الدولة الفاطمية بالمغرب فى منتصف رمضان سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وتولى الخلافة بعد أبيه المنصور بنصر الله سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢م)، وهو فتى فى الرابعة والعشرين من عمره . وكان الخلفاء الفاطميون منذ استقر ملكهم بالمغرب يتطلعون إلى امتلاك مصر جارتهم من الشرق ، لا توسيعاً لملكهم الفتى فحسب ، ولكن بالأخص

لأن مصر كانت لخصبها وغناها ، ومواردها الزاخرة ، وموقعها المتوسط فى قلب العالم الإسلامى ، تصلح أن تكون مثوى مملكة عظيمة ، لا يتأتى قيامها فى هضاب المغرب المجدبة . ووجه الفاطميون منذ عهد عبيد الله المهدى ، أول خلفائهم ، إلى مصر عدة حملات قوية لا فتتاحها ، ولكنها أخفقت جميعاً فى تحقيق هذه الغاية . فلما تولى المعز كانت مصر قد انتهت بعد وفاة أميرها كافور الإخشيدى (سنة ٣٥٧ هـ) ، إلى حال يرثى لها من الضعف وتفرق الكلمة واضطراب الأمور . ورأى المعز الفرصة سانحة لتحقيق مشروع آبائه فى افتتاح مصر ، وأيقن مما وقف عليه من رسله ودعاته أنه لن يلقى فى افتتاحها كبير مشقة أو معارضة ؛ وكانت الدولة الفاطمية قد بلغت أوجها من القوة والفتوة . فجهز المعز لفتح مصر جيشاً عظيما عهد بقيادته إلى وزيره وقائده جوهر الصقلى . وكان جوهر مملوكا من أهل صقلية كما يدل عليه لقبه — وكانت صقلية يومئذ تحت حكم المسلمين — فضمه المعز إلى بطانته ، وكناه بأبى الحسين ، وعنى بتربيته وتثقيفه فى شئون البلاط والدولة ، وكان البلاط الفاطمى قد أخذ يغص يومئذ بأولئك المماليك الصقالبة ، الذين تبوأوا ذروة النفوذ فيما بعد ولا سيما فى عهد العزيز بالله ولد المعز ، وكان جوهر عميدهم وأعظم شخصياتهم . وقدر المعز مواهبه وخلاله ، فولاه

وزارته ثم اختاره لقيادة جيوشه ، وبرز جوهر فى الحرب والقيادة كما برز فى السياسة والإدارة ، فغزا المغرب الأقصى واخترقه ظافراً حتى ساحل المحيط الأطلنطى ، ثم اختاره المعز ليسير إلى فتح مصر ، فسار إليها من القيروان فى ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ ، وبلغت الحملة الفاطمية إلى مصر على قول بعض الروايات مائة ألف فارس غير الجند المشاة(١) . ولابن هانئ الأندلسى(٢) قصيدة رائعة يصف فيها خروج الحملة الفاطمية إلى مصر وفيها يقول مخاطبا جوهر :

رحلت إلى الفسطاط أول رحلة
بأيمن فأل فى الذى أنت تجمع
فإن يك فى مصر ظمأ لمورد
فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لايغار بنعمة
فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ١ ص ١٤٨

(٢) هو محمد بن هانئ ولد باشبيلية سنة ٣٢٦ هـ وبرع فى الشعر منذ الحداثة ، ولكنه اتهم بالإلحاد فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمى فى المهدية . ولما سار المعز الى مصر سار ابن هانئ للحاق به ، ولكنه توفى فى طريقه سنة ٣٦٢ هـ . ويمتاز شعر ابن هانئ بجودته وروعة افتنانه .

ووصل جوهر فى جيشه الضخم إلى مصر فى أوائل شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وهزم جند الإخشيدية التى تصدت لمقاومته ، بعد معارك يسيرة . ودخل مدينة الفسطاط فى ركبه المظفر فى عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٩ م) « وعليه ثوب ديباج مثقل ، وتحته فرس أشقر »(١). وشق المدينة ونزل فى البسيط الشاسع الذى يقع فى ظاهرها . وهنالك وضع فى الحال خطط العاصمة الجديدة – القاهرة المعزية – ثم عنى بإنشاء جامعها الأزهر كما أسلفنا .

وبعث جوهر البشرى إلى مولاه المعز بالفتح العظيم ، فوصلته فى منتصف رمضان ، وأنشد ابن هانىء بهـذه المناسبة قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر

فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهر

تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

وتولى جوهر زمام الأمور فى مصر . وفى الأمان الذى أصدره لأهل مصر تحقيقاً لرغبة زعمائها ، ما يدل على حزمه وبعد نظره .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

وفيه يطمئن جوهر أهل مصر ، ويؤكد لهم أن الخلافة الفاطمية لا تقصد بغزو مصر سوى حمايتها والذود عنها ، « بعد أن تخطفتها الأيدى ، واستطال عليها المستذل » ، وينوه بما آلت إليه شئونها من الإضطراب والفوضى ، وما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب ، وما يزمعه أمير المؤمنين من إقامة العدل وتأييد الشريعة وإصلاح المرافق والشئون . وأمر جوهر فى الحال بقطع الدعوة العباسية من منابر مصر والشأم ، وحرّم لبس السواد شعار بنى العباس ، وأقيمت الدعوة الفاطمية فى مصر من ذلك التاريخ ، بعد أن لبثت تنضوى تحت لواء الدعوة العباسية زهاء قرنين وربع . وأمر جوهر أيضاً بتغيير الأذان ، وأن يؤذن « بحى على خير العمل » . واستمر زهاء أربعة أعوام يدير شئون القطر الجديد بحزم وبراعة . ولما توطدت الأمور ، وتم بناء العاصمة الجديدة فى منتصف سنة ٣٦٠ هـ وإعدادها لنزول الخليفة ، قدم المعز لدين الله إلى مصر بأهله وبطانته وجيوشه وأمواله ، ودخلها فى السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٥ يونيه سنة ٩٧٣) ونزل بالقاهرة فى القصر الكبير الذى أعد لنزوله[١] ،

---

(١) كان القصر الشرقى الكبير هو الذى تم بناؤه فقط لنزول الخليفة عند إنشاء القاهرة على يد جوهر . ولم ينشأ القصر الغربى الصغير المواجه له إلا بعد ذلك فى عهد العزيز بالله

وتولى شئون مملكته الجديدة بنفسه ، واستبقى جوهراً فى قيادة الجيش(١) . ومن ذلك الحين تغدو القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية بدلا من رقادة والمهدية ، وتغدو مصر منزل الخلافة الفاطمية بدلا من المغرب ، وتغدو ملاذ الدعوة الشيعية ومعقلها الحصين حتى انقراض الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) .

وكان جامع القاهرة (الجامع الأزهر) قد تم بناؤه ، وافتتح للصلاة فى يوم الجمعة سابع رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) كما تقدم ؛ وفى ذلك اليوم أقيمت به صلاة الجمعة الرسمية لأول مرة . وكانت تقام قبل ذلك تارة بالمسجد الجامع (جامع عمرو) ، وتارة بالجامع الطولونى . ومن ذلك اليوم يتخذ الجامع الجديد صفته المذهبية الرسمية كمنبر للدعوة الشيعية التى ينضوى الفاطميون تحت لوائها .

وقدم المعز لدين الله إلى مصر ، يتسم بصفة الإمامة أكثر مما يتصف بسمة الملك ، ويبدو فى مواكبه وشعائره الدينية حريصاً على مظاهر الإمامة ورسومها . وقد سجل لنا الفقيه المؤرخ الحسن بن زولاق المصرى صديق المعز ومؤرخ سيرته ، كثيراً من المظاهر التى يتشح فيها المعز بثوب الإمامة ، ويبدو إماماً دينياً أكثر منه ملكاً سياسياً ، فى صلاته وفى خشوعه ،

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٧ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٣

وفى ركوعه وسجوده ، وفى خطبه ومواعظه[1] .

بل نجد المعز فى رسالته الشهيرة التى وجهها إلى الحسن الأعصم زعيم القرامطة ، يتسم بسمة النبوة ، ويسبغ على الإمامة الفاطمية لوناً من القدسية ، وينوه بخواصها ودلالاتها المقدسة ، ومقدرتها الروحية الخارقة ، وكونها إمامة الدنيا والدين معاً[2] .

ومنذ عهد المعز يحتفل الخلفاء الفاطميون ، بإقامة الصلوات فى أيام الجمعة أو الأعياد فى مختلف المواسم والمناسبات ، فى جامع القاهرة أو الجامع الأزهر ؛ وكثيراً ما كان الخليفة يؤم الناس ويخطب فيهم بنفسه ؛ وكان المعز قدوتهم فى ذلك ، وكان خطيباً فصيحاً مؤثراً ، وكثيراً ما كان يُبكى الناس بذلاقته وروعة وعظه[3] . ومن ذلك الحين يغدو الأزهر مسجد الخلافة الرسمى تقام فيه الصلوات الجامعة يوم الجمعة ، وفى المواسم والمناسبات الدينية الهامة ، وتقام فيه أيضاً إلى جانب الصلوات الرسمية طائفة من الحفلات الدينية والاجتماعية الباهرة . وسنعنى فى فصل قادم بوصف هذه الأيام والمناسبات الفاطمية الشهيرة .

ولم يطل عهد المعز لدين الله بمصر أكثر من عامين ونصف .

---

(١) راجع المقريزى عن ابن زولاق ، فى اتعاظ الحنفاء ص ٩٠ و٩٢ و٩٤

(٢) أورد المقريزى نص هذه الرسالة فى اتعاظ الحنفاء ص ١٣٣–١٤٣ .

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ٩٢ .

وكان خطر القرامطة يهدد ملكه الجديد بين آونة وأخرى ؛ وكان القرامطة وهم فرقة من غلاة الشيعة ، قبل ذلك من أولياء الخلافة الفاطمية المنضوين تحت لوائها ، ولكنهم انقلبوا إلى خصومتها حينما استولى الفاطميون على مصر ، وشعروا أن تقدم الغزاة نحو المشرق سيقضى على أطماعهم فى الشأم ؛ وكانت الشأم أول مسرح للنضال بين الفريقين ، وفيها اضطرمت بينهما معارك عديدة رجحت فيها كفة القرامطة ؛ وأذكى هـذا الظفر عزم القرامطة فعولوا على غزو مصر وزحفوا عليها بالفعل مرتين : الأولى فى أوائل سنة ٣٦١ هـ والثانية فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، واقتربوا فى المرة الأولى من القاهرة عاصمة الخلافة الجديدة ، وبذلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر لردهم جهوداً جبارة ، فارتدوا منهزمين إلى الشأم . ومما ينسب إلى زعيمهم الحسن الأعصم فى الإشارة إلى غزو مصر قوله :

زعمت رجال الغرب أنى هبتها
فدمى إذن ما بينهم مطـلول
يا مصر إن لم أسق أرضك من دم
يروى ثراك فلا سقانى النيـل

وتوفى المعز لدين الله فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ

(ديسمبر سنة ٩٧٥ م)[١] ، وخطر القرامطة لا يزال يهدد مصر والشام . فخلفه ابنه العزيز بالله ، أبو منصور نزار . واستمر جوهر فى عهد العزيز على مكانته فى الدولة ، رجلها الأول وقائد جيوشها العام ؛ وخاض مع القرامطة فى الشام معارك أخرى ، وغمره العزيز بعطفه وثقته ، وتوفى فى ٣٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ (فبراير سنة ٩٩٢ م) وقد جاوز الثمانين[٢] ، واحتفل بدفنه فى تكريم بالغ وصلى عليه العزيز بنفسه ، ورثاه شعراء العصر بقصائد رنانة ؛ وخلع العزيز على ولده الحسين ، وعينه مكان أبيه فى القيادة ، ولقبه بالقائد ابن القائد ، واستمر على مكانته ونفوذه أيام العزيز .

وكان جوهر من أعلام الدولة الفاطمية وأقطاب مؤسسيها ، وكان يتمتع بخلال باهرة من الذكاء والشجاعة والعزم وبعد النظر وإيثار العدل وحب الخير[٣] .

---

(١) راجع فى ترجمة المعز لدين الله ، ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٣ وما بعدها ، واتعاظ الحنفاء للمقريزى ، وخطط المقريزى ج ٢ ص ١٦٤-١٦٧ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٩ وما بعدها .

(٢) راجع فى ترجمة جوهر ، ابن خلكان ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها ، وخطط المقريزى ج ٤ ص ٢٠٥ وما بعدها ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٧ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٣ .

الفصل الثالث

البـداية الجامعيـة

أول درس عقد بالأزهر . بنو النعمان قضاة الدولة الفاطمية .
جلوس الوزير ابن كلس بالأزهر . تنظيمه للحلقات الدراسية
الأولى . الحدث الجامعى . حياة ابن كلس وخلاله .

— ١ —

منذ نحو ألف عام يتمتع الأزهر بصفته الجامعية ؛ وقد عرفته الأجيال المتعاقبة دائماً معهداً للقراءة والدرس ، كما عرفته دائماً مسجداً جامعاً . ولكن توجد ثمة فكرة ذائعة يجب محوها وثمة حقيقة تاريخية يجب تقريرها . ذلك أن الجامع الأزهر لم ينشأ فى الأصل ليكون جامعة أو معهداً للدرس ، وليس ثمة فى ظروف إنشائه ثم فى ظروف سيرته الأولى ، ما يدل على أنه أنشىء لمثل هذه الغاية . وإنما أنشىء الجامع الأزهر ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ، ومنبراً لدعوتها الدينية ، ورمزاً لسيادتها الروحية . وقد رأينا فيما تقدم طرفاً من البواعث والظروف التى كانت تحيط بقيام المساجد الجامعة فى العواصم الإسلامية الأولى ، والمغزى السياسى والدينى

الذى كان يعلق على إنشائها ، ورأينا كيف اقترن إنشاء الجامع الأزهر مسجد القاهرة الجامع ، بنفس البواعث والظروف .

بيد أن هذه الصفة المذهبية الرسمية التى أسبغت على الجامع الأزهر منذ إنشائه ، لم تكن لتحول دون اتسامه فيما بعد بالسمة الجامعية ، فإن المدرسة لم تكن قد وجدت بعد فى مصر الإسلامية ، وكانت المساجد الجامعة تقوم برسالتها العلمية إلى جانب رسالتها الدينية ؛ وكان جامع عمرو ، أول المساجد الجامعة فى مصر ، هو أيضاً أول معهد قام فيها للدرس والقراءة ؛ وكانت هذه التقاليد الجامعية قد غدت صفة لازمة للمساجد الجامعة لا فى مصر وحدها ، ولكن فى المشرق ، فى بغداد ؛ وفى الأندلس ، فى قرطبة وإشبيلية وغيرهما ، حيث كانت المساجد الجامعة تؤدى رسالتها العلمية . ولما أنشىء الأزهر لأول أمره مسجداً جامعاً للعاصمة الفاطمية الجديدة ، كان الجامع العتيق (جامع عمرو) بحلقاته الدراسية مثلا قائماً ، يمكن أن ينسج على منواله .

على أنه مضت بضعة أعوام قبل أن يطبق الجامع الفاطمى الجديد هذه السنن الجامعية ، ويبدأ فى القيام برسالته العلمية إلى جانب رسالته الدينية . ثم حدث فجأة أن دُفع الأزهر إلى هذا الطريق العلمى دون سابق قصد ولا ترتيب . والواقع أن فكرة

الدراسة بالأزهر ، كانت حدثاً عارضاً ترتب على فكرة الدعوة المذهبية ، وغلب الحدث العارض شيئاً فشيئاً على صفته الأولى حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعى الخالد .

ففى صفر سنة ٣٦٥ هـ (اكتوبر ٩٧٥ م) فى أواخر عهد المعز لدين الله ، جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان القيروانى[١] بالجامع الأزهر ، وقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت (فقه الشيعة) وهو المسمى بكتاب الإختصار فى جمع حافل من العلماء والكبراء ، وأثبتت أسماء الحاضرين ، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر[٢] . ثم توالت حلقات بنى النعمان بالأزهر بعد ذلك . وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعامتها وألسنتها الروحية ، فلحقوا بها إلى مصر ، واستأثروا فى ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن . وكانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى توطيد سلطانها

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد بن النعمان القيروانى ، تولى قضاء مصر فى أواخر عهد المعز لدين الله ، وكان أول من لقب بقاضى القضاة فى مصر ، وأقام فى منصبه حتى توفى سنة ٣٧٤ هـ فى عهد العزيز بالله ، وكان بارعاً فى النظم ، وكان من علاة الشيعة وأقطاب دعاتها . وأما أبوه فهو أبو حنيفة النعمان بن محمد ابن منصور القيروانى المعروف بابن حيون ، وكان من أكابر علماء الشيعة . تولى القضاء للمعز بالمغرب ، وقدم معه الى مصر ولكنه لم يتول قضاءها .

(٢) الخطط ج ٤ ص ١٥٦ .

بمصر على عصبتها المغربية ، ثم على صحبها وخاصتها من الموالى الأجانب وجلهم من الصقالبة . وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر وبالقصر ، حلقات دعاية دينية وسياسية تعقد فى الغالب للأكابر والخاصة ، ولم تكن لها فى البداية صفة الدروس العامة .

وكانت هذه أول حلقة للقراءة والدرس بالجامع الأزهر ، ولم يكن مضى على إنشائه سوى ثلاثة أعوام ونصف ، وكانت هذه بداية ضئيلة لحركة دراسية متواضعة . بيد أنها كانت بداية جامعية فى معنى من المعانى . وفى أوائل عهد العزيز بالله حدث بالجامع الأزهر حادث جامعى آخر . ففى رمضان سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلّس وزير المعز لدين الله ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر ، وقرأ على الناس كتاباً ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية ، متضمناً ما سمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز ، وهو المعروف « بالرسالة الوزيرية » نسبة إلى مؤلفها الوزير . وكان يجلس لقراءته بنفسه فى الناس خاصتهم وعامتهم ، ويهرع إلى سماعه سائر الفقهاء والقضاة والأدباء وأكابر القصر والدولة ؛ وأفتى الناس يومئذ بما فيه[1] . وكان ابن كلّس كما سنرى شخصية

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ، والخطط ج ٤ ص ٥٧ . وراجع أيضاً الإشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص ٢٣ .

ممتازة تجمع بين السياسة والعلم ، وكان نصيراً كبيراً للعلماء والأدباء ، وكان يعقد مجالسه الفقهية والأدبية تارة بالجامع الأزهر ، وتارة بداره الخاصة ، فيهرع إليها العلماء والطلاب من كل صوب . وكانت مجالس ابن كلّس فى الواقع أول مجالس جامعية حقيقية عقدت بالجامع الأزهر ، وكانت تمتاز عن مجالس بنى النعمان بتحررها من القيود الرسمية ، واتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية .

والظاهر أن الوزير ابن كلّس هو أول من فكر فى اتخاذ الجامع الأزهر معهداً للدراسة المنظمة المستقرة . وعلى أى فهو أول من فكر فى تنفيذ هذا المشروع الجامعى العظيم . ففى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) استأذن ابن كلّس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ، ويعقدون مجالسهم بالأزهر فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ؛ وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيهاً ورئيسهم ، ومنظم حلقتهم الفقيه أبو يعقوب قاضى الخندق ؛ وكان جل حديثهم فى الفقه وما إليه . ورتب لهم العزيز أرزاقاً وجرايات شهرية حسنة ، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم فى يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات تشريفاً لهم وتكريماً ، وأجرى عليهم ابن كلّس أيضاً أرزاقاً من ماله الخاص[1] ؛

(١) صبح الأعشى (عن المسبحى) ج ٣ ص ٣٦٧ ، والخطط ج ٤ ص ٤٩ .

وهنا نجد أنفسنا أمام حدث جامعى حقيقى . فقد كان أولئك الفقهاء الذين رتبهم ابن كلّس للقراءة والدرس بالأزهر وأقرهم العزيز بالله ، أول فوج من الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر ، وأجرت عليهم الدولة أرزاقاً ثابتة ، وباشروا مهمتهم العلمية تحت إشراف الدولة بطريقة منظمة مستقرة ؛ وإذاً فنحن نستطيع هنا أن نقول إن الأزهر يكتسب عندئذ لأول مرة صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة ، وأنه يبدأ حياته الجامعية الحافلة المديدة .

— ٢ —

وإذا ما تقررت هذه الحقيقة التاريخية ، فإنا نستطيع أيضاً أن نقول إن أكبر الفضل فى تتويج الجامع الأزهر بهذه الصفة الجامعية الخالدة يعود إلى الوزير ابن كلّس الذى أسبغ عليه لأول مرة صفة المعاهد الدراسية ، ورتب له أول فريق من الأساتذة الرسميين ، ويعود إلى الخليفة الوزير بالله الذى قدر مشروع وزيره النابه ، وعاونه فى تحقيقه وتنفيذه .

ولقد كان ابن كلّس وزيراً عظيما وعالماً جليلا ، بل كان عبقرية سياسية حقة . وهو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس ، واسمه يدل على أصله الذمىّ . ذلك أن ابن كلّس كان يهودياً نشأ ببغداد وغادرها فى شبابه إلى الشام . واشتغل هنالك

حيناً بالتجارة ، وأثقلته ديون عجز عن أدائها ، ففر الى مصر فى عهد كافور الإخشيدى ، واتصل به وقام له ببعض الأعمال والمهام المالية ، فأبدى فى أدائها خبرة وبراعة . وطاف بريف مصر يحصل الأموال ويعقد الصفقات ، حتى تمكنت منزلته لدى كافور ، وأثرى وكثرت أمواله وأملاكه . ثم ثابت له فكرة فى الأخذ بنصيب من السلطة والولاية ، ورأى الإسلام خير طريق لتحقيق هذه الغاية . وكان قد بلغه أن كافوراً قال فى حقه « لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً » . فدرس قواعد الإسلام وشرائعه سراً . وفى شعبان سنة ٣٥٦ هـ دخل جامع مصر (جامع عمرو) وصلى به الصبح فى موكب حافل . ثم ركب فى موكبه الى كافور فخلع عليه ، واشتهر أمره وعلت منزلته وقوى نفوذه . فتوجس وزير مصر جعفر بن الفرات من تقدمه وتمكن نفوذه شرا ، وأخذ يدس له الدسائس ويوغر عليه الصدور . فخشى ابن كلّس العاقبة وفر الى المغرب فى شوال سنة ٣٥٧ هـ ، ولحق بالمعز لدين الله الخليفة الفاطمى ، وهو يومئذ ينظم مشروعه لغزو مصر . فقدر المعز مواهبه وخلاله ، ووقف منه عل أحوال مصر ومواطن القوة والضعف فيها . ولبث ابن كلّس فى خدمته حتى تم فتح مصر على يد جوهر الصّقلى . ولما قدم المعز الى مصر بأهله وأمواله وجيوشه فى

رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، قدم معه ابن كلّس ، وقلده المعز شؤون الخراج والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشئون المالية الأخرى ، فأبدى فى إدارتها وتنظيمها براعة ، وزاد الدخل زيادة واضحة . ثم عهد إليه المعز بشئونه الخاصة . ولما توفى المعز بعد ذلك بقليل فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ ، فوض ولده العزيز بالله الى ابن كلّس النظر فى سائر أموره ، ثم لقبه بالوزير الأجل . ووقعت فى حقه وشايات من بعض خصومه فاعتقله العزيز بالقصر بضعة أشهر . ثم أطلقه ورده إلى مناصبه ، وتضاعفت منزلته لدى العزيز ، وغدا أقوى رجل فى الدولة . وبذل ابن كلّس جهوداً عظيمة فى تنظيم الإدارة والدواوين ، وكان من أكبر بناة الدولة الفاطمية بمصر وموطدى دعائمها ونفوذها .

وليس غريباً أن يحرز رجل مثل ابن كلّس تلك المكانة الرفيعة فى ظل الدولة الفاطمية مع أنه يهودى الأصل والنشأة ؛ فقد كانت الخلافة الفاطمية تصطنع الذميين والصقالبة وتوليهم ثقتها . وقد ولى وزارتها فيما بعد فى عصر الحاكم بأمر الله وزراء يهود ونصارى خلص ، مثل الرئيس ابن فهد ، وعيسى بن نسطورس ، وابن عبدون ، وتولى وزارة الدولة بعدهم كثيرون منهم فى مختلف العهود .

ولم يكن ابن كلّس وزيراً وسياسياً عظيما فقط ، بل كان

عالماً وأديباً كبيراً أيضاً ، وكان يعقد بداره مجالس علمية وأدبية دورية ينتظم فى سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء . وكان يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك فى أعمالها ويغدق العطاء على روّادها . وقد أخذ ابن كلّس بقسط حسن فى التأليف والكتابة ، فوضع كتاباً فى القراءات ، وكتاباً فى الفقه ، وكتاباً فى آداب رسول الله ، وكتاباً فى علم الأبدان والصحة ، ومختصراً فى فقه الشيعة ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية التى أشرنا اليها فيما تقدم . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتارة بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظرهم ويصلهم . وكانت موائده دائماً منصوبة معدة للوافدين ، وكان كثير الصلات والإحسان ؛ وبالجملة فقد كان هذا الوزير والعالم والأديب علماً بين رجالات عصره ؛ وقد أشاد شعراء العصر بخلاله وجوده وعبقريته ، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة فى يده :

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمت
رأيت فى كل شىء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته
من أجله واسأل القرطاس والقلما
هل ينهض المجد إلا أن يؤيده
ساق يقدم فى إنهاضه قدما

لولا العزيز وآراء الوزير معاً
تحيفتنا خطوب تشعب الأمما

ومرض ابن كلّس فى شوال سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، فجزع عليه العزيز أيما جزع ، ولبث يعوده ويرعاه حتى توفى فى الخامس من ذى الحجة ؛ فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر الى داره فى موكب صامت مؤثر ، وشهد تجهيزه وصلى عايه بنفسه ، ووقف حتى وورى فى التراب وهو يبكى بدمع غزير ، واحتجب فى داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته ، والحزن يشمل الخاص والقصر كله . وأفاض الشعراء فى رثاء الوزير الراحل ومديحه فوصلهم العزيز جميعاً . وعلى الجملة فقد سما ابن كلّس فى ظل الدولة الفاطمية الى أرفع مكانة ، وترك بوفاته فيها أعظم فراغ ، وكان له أعظم الأثر فى توطيد حكمها وإدارتها بمصر[1] .

---

(١) راجع فى حياة ابن كلس ، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ، والخطط ج ٣ ص ٧ — ١٠ ، والإشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ .

الفصل الرابع

الأزهر ودار الحكمة

دار الحكمة أو دار العلم . بواعث إنشائها . نظمها الدراسية .
علاقتها بالدعوة المذهبية . التنافس بينها وبين الأزهر . اضطراب
الحياة العقلية فى مصر الاسلامية

— ١ —

هكذا كانت حياة ذلك الوزير الخطير الذى يدين له الجامع الأزهر بأول خطوة عملية حقيقية فى سبيل الحياة الجامعية ، والذى كان له أكبر فضل فى وضع هذا الغرس الجامعى ، الذى أينع فيما بعد وازدهر . ومن المحقق أن هذه الخطوة الأولى فى ترتيب الأساتذة وتنظيم الدراسة بالأزهر ، كان لها أثر كبير فى تطور الغاية الأولى التى أنشئ من أجلها المسجد الجامع بالقاهرة المعزية ، فقد كان هذا الإنشاء يرجع كما قدمنا إلى بواعث تقليدية ومذهبية ، وقد أريد بالأزهر أن يكون قبل كل شىء رمزاً للخلافة الجديدة ومنبراً لدعوتها ، ولم ينشأ فى الأصل لغاية علمية أو دراسية .

على أن هذه البداية الدراسية المتواضعة التى ظفر بها الأزهر فى أواخر عهد المعز ، ثم نمت وانتظمت فى عهد العزيز على يد الوزير ابن كلس ، لم تكن حدثاً جديداً أو بدعة فى تقاليد المساجد الجامعة . فقد رأيت أن جامع مصر (جامع عمرو) كان منذ القرن الأول للهجرة يقوم بهذه المهمة العلمية إلى جانب مهمته الدينية ، وكانت حلقاته مجمع الفقهاء والأدباء ، وكان حين قيام الجامع الأزهر أهم معهد للدراسة الممتازة فى مصر ، بل سنرى أنه لبث عصوراً يقوم إلى جانب الأزهر بدوره العلمى القديم .

وهكذا فإن الاتجاه الدراسى الذى دفع الأزهر إلى طريقه كان وليد المصادفة والظروف ، وكان وليد رغبة عارضة خطرت لوزير عالم وأمير مستنير . بيد أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية لم تقصد فى البداية أن توجه الأزهر إلى تلك الغاية الجامعية المحضة ، فقد كان فى برنامجها مع ذلك أن تحقق هذه الغاية على يد معهد دراسى خاص ، وأن تقيم فى العاصمة الجديدة جامعة للدرس ونشر المذهب الفاطمى . ولكنها لم تر أن تتخذ من الأزهر ، وهو مسجد الدولة الرسمى مقرا لهذه الجامعة ، بل أريد أن تكون الجامعة الجديدة معهداً مستقلا بذاته . وعلى ذلك أنشئت دار الحكمة الفاطمية أو دار العلم

الشهيرة ، أنشأها الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (مارس سنة ١٠٠٥ م) أعنى لنحو خمسة وثلاثين عاماً من قيام الجامع الأزهر . وكانت تعقد قبل ذلك بالقصر وأحياناً بالأزهر ، مجالس تسمى مجالس الحكمة ، ينظمها قاضى القضاة وتقرأ فيها علوم آل البيت ، ويهرع الناس إلى شهودها ، وتخصص فيها مجالس للخاصة ومجالس للكافة وأخرى للنساء . ولكن الحاكم بأمر الله رأى أن تكون هذه المجالس أوسع مدى ، وأن تنظم فى سلك حلقات دينية وعلمية متصلة يجمعها معهد رسمى واحد ، فأنشئ المعهد الجديد وأطلق عليه دار الحكمة أو دار العلم .

ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد أو بالحرى هذه الجامعة الغريبة ؛ ذلك لأن دار الحكمة كانت جامعة حقة ، تضم عدة حلقات وكليات دينية وعلمية وأدبية . وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر الصغير بجوار باب التبانين تعرف بدار مختار الصقلبى ، وقسمت إلى عدة أقسام أو مجالس ، لعلوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرها ، وعين لها أقطاب الأساتذة فى كل علم وفن . وعنى بتأثيثها وزخرفتها عناية فائقة ، وحملت إليها من خزائن القصر

مجموعات عظيمة من الكتب فى سائر العلوم والفنون ، لتكون رهن البحث والمراجعة ، ورصدت للإنفاق عليها وعلى أساتذتها وموظفيها وخدمها أموال ضخمة . وخصها الحاكم بجزء من ريع أملاكه التى وقفها على بعض مساجد القاهرة ومعاهدها ، وخص فيها الجامع الأزهر أيضاً بجزء من هذا الربع [١] . وكان التعليم فيها حرا على نفقة الدولة ، ويمنح الطلاب والباحثون جميع الأدوات الكتابية ، ولهم أن يقرأوا وينسخوا ما شاءوا من الكتب ، وأن يستمعوا إلى ما شاءوا من الدروس والمحاضرات . وهرع الطلاب إلى دار الحكمة من كل صوب ، وأفردت للنساء فيها مجالس خاصة . ويصف لنا المسبِّحى وهو مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، ما اتخذ لإنشاء دار الحكمة من عظيم الأهبة والعناية ، وما اجتمع فى مكتبتها العظيمة من نفائس المراجع والكتب « مما لم يجتمع مثله لأحد قط من الملوك » .

واتخذت دار الحكمة فى البداية طابعا حرا ، فدعى إليها الأساتذة من المذهبين ، السنة والشيعة ، وقرئت بها فضائل الصحابة ، ولكن أبعد عنها الأساتذة السنيون فيما بعد ، وقتل بعضهم ، وتأكدت بذلك صفتها المذهبية . وكان الإشراف على مجالس الحكمة من شئون قاضى القضاة ، ولكنها لما انتظمت

---

(١) سنعرض الى هذه الوثيقة فيما بعد .

واتسع نطاقها بقيام دار الحكمة ، عهد بها الى زعيم دينى خاص يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويسمى داعى الدعاة[١] ، وأنشىء لها بين وظائف الدولة ديوان خاص .

كانت دار الحكمة فى ظاهرها جامعة حرة علنية يلتحق بها من يشاء ، ويدرس ما شاء من مختلف العلوم والفنون . ولكن هذا المظهر العلمى لم يكن فى الواقع إلا ستاراً للغاية الأصلية التى أنشئت دار الحكمة لتحقيقها ، وهى بث الدعوة الفاطمية بطريقة علمية منظمة تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية ، بالأصول والمبادئ المذهبية ، وتكون أبعد أثرا فى غزو الأذهان والعقائد من مجالس القصر ، وبذا تجتمع جهود الدعاة فى مركز رئيسى ، يُحشد فيه المؤمنون من كل صوب ، ليقوموا فيما بعد بقسطهم فى حمل الدعوة وبثها فى سائر المجتمعات والأنحاء[٢] .

---

(١) كان منصب داعى الدعاة أو رئيس الدعاة من المناصب الدينية الكبيرة فى الدولة الفاطمية ، وكان يختار من أكابر العلماء المتفوقين فى علوم آل البيت وله نقباء ونواب فى سائر النواحى . (راجع الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧) .

(٢) راجع فى تاريخ دار الحكمة ونظمها ومجالسها ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٣٣٤ و ٣٣٧ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٣ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٨ ، وراجع كتابى « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » ص ١٦٤ و ١٦٥ .

واستطاعت دار الحكمة فى ظل الرعاية الرسمية أن تنمو بسرعة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى ازدهرت وسار ذكرها فى الآفاق ، وهرع إليها الطلاب من سائر الأقطار ، وتبوأت مركز الزعامة فى الدراسات العلميـــة والفقهية الممتازة فى هذا العصر .

واجتذبت الجامعة الجديدة بشهرتها وأساليبها العلمية الخاصة كثيرا من أعلام المشرق . وكان الشاعر والرحالة الفارسى ناصرى خسرو فى مقدمة الوافدين على مصر فى هذا العصر ؛ وفد عليها سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٨ م) فى أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله ، وانتظم حينا بين تلاميذ دار الحكمة ، يتلقى مناهجها السرية على يد داعى الدعاة نفسه ؛ وأثرت هذه الدراسة التى يشيد بها فى ديوانه فى نفسه أعظم تأثير ، حتى أنه تحول من تعاليم السنة الى التعاليم الفاطمية ، وعاد يبشر بها فى بلاده ؛ ولم يشد ناصرى خسرو بذكر الأزهر كما أشاد بذكر دار الحكمة ، وداعى الدعاة ، وجامع عمرو . وكان من تلاميذ دار الحكمة أيضا مواطنـــه الفيلسوف الحسن بن الصباح مؤسس طائفة الاسماعيلية الباطنية الشهيرة ، وفد على مصر فى أواخر عهد المستنصر بالله ، وتفقه فى الدعوة السرية على أساتذة دار الحكمة ، التى لبثت بالرغم من تضاؤل نفوذها القديم يومئذ ، أخصب مورد لهذه الدعوة المذهبية الغريبة .

وليس من موضوعنا أن نتتبع ذلك الجانب الخفى من نشاط دار الحكمة الفاطمية ، وهو جانب كان له أكبر الأثر فى بث الدعوة السرية الفاطمية ، وإنما نتتبع نشاطها من ناحية علاقته بسير الحركة العلمية فى مصر فى القرن الخامس الهجرى ، وصلته بالدور الذى كان يؤديه الجامع الأزهر فى هذه الحركة : ذلك أنه كان لقيام الجامعة الجديدة أثر كبير فى سير الدراسة بالجامع الأزهر ، وكانت منافساً شديد الوطأة لمعهد لم تستقر نظمه ، ولم تتوطد بعد . ومن ثم فقد ركدت حلقات الأزهر يومئذ ، وانفض عنه كثير من الطلاب والأساتذة الى الجامعة الجديدة ، وكانت تجذب الأنظار بجدّتها وروعتها وتصنيف علومها . بيد أنه يلوح لنا من جهة أخرى أن الأزهر لبث فى هذه الفترة ملاذا للعلوم الدينية . والواقع أن قيام دار الحكمة لم يكن ناسخا للدور الذى أخذ الأزهر فى الاضطلاع به كمعهد للقراءة والدرس ، وإنما كان متمما لهذا الدور فى معنى من المعانى . ذلك أنه بينما استمر الأزهر مركزا للثقافة الدينية المحضة ، إذا بدار الحكمة تعنى الى جانب مهمتها فى نشر علوم آل البيت ، بتدريس علوم اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة وما إليها[1] ؛ وبينما

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ . وراجع كتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى (الذيل) طبعة رفن جست ص ٦١٠

لبث الأزهر محتفظا بطابعه الدينى الخالص ، إذا بدار الحكمة تغلب عليها الصبغة المدنيـــة والفلسفية . وثمة فارق آخر بين المعهدين المتنافسين ، هو أنه بينما كانت العلوم الدينية تدرس بالأزهر فى نوع من الحرية دون التقيد المطلق بالقيود المذهبية ، إذا بدار الحكمة تقتصر مدى حين فى التعليم الدينى على علوم الشيعة وعقائدها ، وتتقيد بجميع قيودها المذهبية .

كذلك يجب ألا ننسى أن جامع مصر أو جامع عمرو كان فى الوقت نفسه ، لا يزال يحتفظ الى جانب الأزهر ودار الحكمة ، بقسط من نشاطه القديم فى توجيه الحركة الفكرية ، وكانت ، حلقاته العلمية والأدبية تعقد بانتظام ، ويشهدها كثير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء(١) .

— ٢ —

كانت هذه المعاهد الثلاثة ، جامع القاهرة أو الجامع الأزهر ودار الحكمة أو دار العلم وجامع مصر أو جامع عمرو ، هى معاهد الدراسات العالية فى مصر الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى . وكانت دولة التفكير والأدب فى بغداد قد أخذت فى الضعف والاضمحلال ، وأخذت مصر تتأهب بدورها لرعاية التفكير الإسلامى فى المشرق ، وأخذت قاهرتها تجذب

---

(١) الخطط ج ٢ ص ١٤٨ .

أنظار العلماء فى المشرق والمغرب ، ولكن كان عليها أن تقطع عصراً آخر قبل أن تصل الى تحقيق هذه الأمنية السامية . ذلك أن الأزهر لم يكن قد تبوأ بعد مركز الزعامة العلمية ، التى جعلته فيما بعد كعبة العلماء والطلاب من جميع الأقطار الإسلامية . ونلاحظ أن العلماء والرحل الذين وفدوا على مصر فى تلك الفترة مثل ناصرى خسرو الذى شهدها سنة ٤٣٩ هـ (١٤٠٨ م)[١] ، وعبد العزيز بن أبى الصلت العلامة الأندلسى الذى شهدها فى أوائل القرن السادس الهجرى[٢] ، لم يشيدوا بذكر الأزهر ومكانته العلمية كما أشاد بها بعد ذلك بنحو قرن علماء مثل عبد اللطيف البغدادى[٣] . بيد أن الأزهر كان يومئذ موئل الثقافة الدينية فى مصر ، وكان عنصراً هاماً من عناصر الحركة الفكرية ، وكان يأخذ بقسط بارز تخريج العلماء والأساتذة ، ولا سيما المحدثين والفقهاء ، وكانت تعقد فيه الى جانب الحلقات الدراسية ، مجالس الحكمة للنساء فى أحيان كثيرة[٤] ، وكانت له فوق ذلك أهمية رسمية خاصة ، ففيه

---

(١) راجع الترجمة الفرنسية لرحلة ناصرى خسرو Relation du Voyage de Nasiri Khosru ص ٤٦ — ٥٤ حيث يصف قاهرة عصره .

(٢) وفد ابن أبى الصلت على مصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى فى خلافة الآمر بأحكام الله وتوفى سنة ٥٢٨ هـ .

(٣) وفد عبد اللطيف البغدادى على مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

كان جلوس قاضى القضاة فى أيام معينة[١] ، وفيه كان مركز المحتسب العام[٢] ، وفيه كان يعقد كثير من المجالس الخلافية والقضائية حسبما نفصل بعد .

ولبثت دار الحكمة مدى قرن تنافس الأزهر فى مهمته العلمية ، وتتبوأ مكان السبق والزعامة فى كثير من الأحيان . بيد أن عصر ازدهارها لم يطل ، فقد اضطربت شئون هذه الجامعة المذهبية ، وفتر نشاطها منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، وفقدت كثيراً من أهميتها أيام الخليفة المستنصر بالله ، حينما اضطربت شئون الخلافة الفاطمية ، وسرت الفوضى الى كل شئون الدولة ومرافقها ، وما زال أمرها فى انحلال حتى انتهى أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بأبطالها وإغلاقها فى أوائل القرن السادس الهجرى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥—٥١٤ ﻫ) لما ذاع من تدخلها فى العقائد ، ثم أعادها المأمون البطائحى وزير الآمر بأحكام الله سنة ٥١٧ ﻫ على نمط جديد ، روعى فيه تخفيف صبغتها المذهبية ، وعنى فيها عندئذ بتدريس القرآن وعلومه عناية خاصة ، واستمرت زهاء نصف قرن آخر حتى نهاية الدولة الفاطمية[٣] . بيد أنها كانت فى تلك الفترة معهداً

---

(١) كتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٦٠٠ و ٦١١ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣١٣ و ٣٣٧ .

عادياً لا يتمتع بكثير من أهميته القديمة .

ولقد أصيبت الحياة العقلية فى مصر الإسلامية بكثير من الاضطراب والضعف فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، أعنى منذ اضطربت شئون الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر بالله ، ونكبت مصر بالشدة العظمى ، وعانت عسف القحط والوباء أعواماً طويلة (٤٤٦ — ٤٦٤ هـ) وشغل المجتمع المصرى حيناً بما توالى عليه من الأرزاء والمحن ، وشغل الخلفاء ورجال الدولة بالتنازع على السلطان وتدبير الانقلابات السياسية العنيفة عن تعهد الحركة الفكرية ، وعجزت الدولة عن الإنفاق على معاهد التعليم لنضوب مواردها ، وبددت خزائن الكتب أثناء الفتنة ، وكانت من أنفس وأعظم ما عرف العالم الإسلامى[١] .

وكان لهذا الاضطراب أثره فى الأزهر ودار الحكمة ، فركدت حركة الدرس والتحصيل تبعاً لركود الحياة العامة واضطراب الحياة الخاصة . وفى أواخر القرن الخامس فى عصر أمير الجيوش بدر الجمالى المتغلب على الدولة (٤٦٥ — ٤٨٧ هـ) وولده الأفضل شاهنشاه (٤٨٧ — ٥١٥ هـ) ، عاد النظام والأمن والرخاء إلى البلاد وانتظمت الحياة العامة ، واستعادت الحياة الفكرية نشاطها بما أسبغ عليها من الرعاية ، وما بذل للإنفاق على معاهد الدرس من الأموال والأرزاق :

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٥٤ .

الفصل الخامس

نظم الدراسة والحلقات الجامعية

الحلقات الدراسية بمصر الإسلامية . حلقات الفسطاط والمسجد الجامع . مجالس الشعر والأدب . نظام الدراسة بالأزهر . مصادر الإنفاق عليه . الأحباس والأعطية الخاصة . الأزهر جامعة حرة .

لبثت دار الحكمة كما رأينا عصراً تأخذ فى توجيه الحركة الفكرية بقسط وافر . وكان الجامع الأزهر أثناء ذلك يقوم بمهمته العلمية ، فى ذلك المدى المحدود الذى أتيح له أن يعمل فيه حسبما بينا . بيد أنه كان يعمل فى جو أكثر هدوءاً وانتظاماً ، بعيداً عن تلك العواصف التى تضطرب لها الدراسة فى دار الحكمة . وربما كان أثره لذلك أبعد فى تكوين المجتمع الفكرى يومئذ ، خصوصاً منذ اضمحلت دار الحكمة ، ثم أغلقت فى أوائل القرن السادس . وكان لإغلاق دار الحكمة بلا ريب أثره فى نشاط الدراسة بالأزهر خصوصاً فى علوم اللغة والعلوم التى كانت تستأثر بها دار الحكمة[1] ؛ ونلاحظ أن صفة الأزهر كجامعة رئيسية للعاصمة الفاطمية أخذت تبدو من ذلك

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ ، وكتاب الولاة والقضاة للكندى ص ٦١٠

الحين بوضوح . وكان جامع مصر لا يزال يحتفظ بحلقاته ، ولكنها كانت تقتصر فى الغالب على حلقات الإقراء والمطارحات الأدبية . ولم يكن لبعث دار الحكمة فى عهد الآمر بأحكام الله كبير شأن ، فكان الأزهر منذ أوائل القرن السادس فى الواقع أهم معاهد التعليم والدراسة المنظمة فى مصر الإسلامية .

ماذا كانت أنظمة الدراسة بالأزهر ، فى تلك المرحلة من تاريخه ؟ من الصعب أن نقدم عن تلك الأنظمة صورة دقيقة ، وليس فيما لدينا من المصادر عنها أية رواية شافية . بيد أنه يلوح لنا من الإشارات الموجزة أن نظام الدرس بالأزهر ، قد بدأ على نفس النمط القديم الذى كان متبعاً فى مصر وباقى العواصم الإسلامية يومئذ ، ونعنى به نظام الحلقات ومجالس الدروس الخاصة . وقد اشتهر نظام الحلقات الدراسية بمصر منذ القرن الثانى للهجرة . وكانت الفسطاط ومسجدها الجامع منذ القرن الأول مركزاً للدراسة الممتازة ، وكانت هذه الدراسة فى البداية دينية فقهية ، وفى مهادها تخرج جماعة من أقطاب الفقهاء والمحدثين مثل يزيد بن حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ ، والليث ابن سعد المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وعبد الله بن وهب المتوفى سنة ١٩٧ هـ . وكانت هذه الحلقات على نوعين : عامة وخاصة . فأما العامة فكان مركزها بالأخص المسجد الجامع أو جامع

عمرو ، وكانت حلقاته يومئذ أشهر المجتمعات العلمية والأدبية العامة ؛ وكان المسجد الجامع منذ إنشائه قلب الفسطاط الفكرى ، وقد قام بأعظم دور فى تاريخ الحركة العقلية فى مصر الإسلامية فى القرون الأربعة الأولى للهجرة ، وبين جدرانه كانت توجه حركة التفكير والآداب مدى عصور . ويبدو مما كتبه المؤرخون المعاصرون أن هذه الحلقات كانت دورية ، وكانت منتظمة تعقد كل يوم تقريباً فى المسجد الجامع ، وأهمها ما كان يعقد فى عصر يوم الجمعة ؛ وكانت حلقات الجمعة تعتبر موسماً أسبوعياً حافلا ، يغص فيه المسجد الشهير بجمهرة الفقهاء والأدباء والقراء ، وفيها كانت البحوث الكلامية ، والمناظرات الأدبية ، والمطارحات الشعرية ، والرواية التاريخية ، تنتظم فى حلقات خاصة(١) .

وكانت العلوم الدينية تحتل المكانة الأولى بين هذه الحلقات ، وفى هذه الحلقات تخرج معظم المحدثين والفقهاء بمصر الإسلامية ، حتى أوائل القرن الرابع الهجرى . وكان منها حلقة الإمام محمد ابن إدريس الشافعى الشهيرة فى خاتمة القرن الثانى وفاتحة القرن الثالث (١٩٨–٢٠٤ هـ) ، وهى التى تخرج فيها عدة من أقطاب المحدثين والفقهاء فى هذا العهد .

---

(١) راجع ابن زولاق فى كتاب سيبويه المصرى (طبع مصر) ص ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ .

وأما الحلقات الخاصة ، فكان يعقدها كبار الفقهاء والأدباء في منازلهم ، ويقرأون فيها دروسهم ومصنفاتهم على الأخصاء من أصدقائهم وتلاميذهم . وكان أشهر هذه الحلقات حلقة بنى عبد الحكم[١] ، وهم أسرة مصرية نابهة نبغ فيها عدة فقهاء ومحدثين فى أوائل القرن الثالث[٢] . وكانت حلقاتهم العلمية والأدبية تجذب أكابر العلماء الوافدين على مصر من مختلف الأقطار . ولما قدم الإمام الشافعى إلى مصر استقبله بنو عبدالحكم ، وأكرموا وفادته ، ومهدوا له سبل الإقامة ، وعاونوه على تنظيم حلقاته ودروسه ، وكانوا فى مقدمة المنتفعين بعلمه وأدبه . وفى أوائل القرن الرابع كانت حلقات الفسطاط العلمية والأدبية فى أوج ازدهارها ؛ واجتمع فى هذه الفترة من زعماء التفكير والأدب فى مصر الإسلامية عدة من الزعماء والأقطاب ، منهم أبو القاسم بن قُديد الفقيه والمحدث ، وتلميذه أبو عمر الكندى مؤرخ ولاة مصر وقضاتها ، وأبو جعفر النحاس المصرى الكاتب والشاعر ، وأبو بكر الحداد قاضى مصر ، وأبو القاسم بن طباطبا

---

(١) السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) كان عميد الأسرة عبد الله بن عبد الحكم أحد أقطاب الفقه المالكى وقد توفى سنة ٢١٤ هـ ، وإبناه عبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية وصاحب كتاب « فتوح مصر وأخبارها » وقد توفى سنة ٢٥٧ هـ ، ومحمد وهو فقيه كبير وقد توفى سنة ٢٦٩ هـ (راجع ابن خلكان ج ١ ص ٣١٢).

الحسنى الشاعر ، والحسن بن زولاق المؤرخ الأشهر[١] ، وكثيرون غيرهم . وكان المسجد الجامع يومئذ جامعة حقة يموج بهذه الحلقات العلمية والأدبية الشهيرة . وفى هذه الفترة ذاتها كان الشاعر الأكبر أبو الطيب المتنبى الذى وفد على مصر سنة ٣٤٦ ﻫ (٩٥٧ م) ليستظل بحماية الإخشيد ، يعقد حلقاته الأدبية فى مسجد يعرف بمسجد ابن عمروس ،وهناك يجتمع إليه الأدباء والشعراء . وكانت حلقة المتنبى بلا ريب من أهم مجالس الشعر والأدب والفلسفة فى هذا العصر[٢] . وإلى جانب هذه الحلقات العامة المختلفة ، كانت ثمة مجالس علمية وأدبية خاصة يعقدها الأمراء والكبراء أو تعقد تحت رعايتهم . فمثلا كان الأمير محمد بن طغج (الإخشيد) وولده أنوجور ، ووزيرهما الخصى النابه كافور ، والوزيران أبو الفضل جعفر بن الفرات ، والحسين بن محمد الماردانى[٣] ، من حماة العلوم والآداب ، وكانت لهم أبهاء

(١) توفى ابن قديد سنة ٣١٢ ﻫ ، وأبو عمر الكندى سنة ٣٥٠ ﻫ ، وأبو جعفر النحاس سنة ٣٣٨ ﻫ ، وأبو بكر الحداد سنة ٣٤٥ ﻫ ، وابن طباطبا الحسنى سنة ٣٤٥ ﻫ ، والحسن بن زولاق سنة ٣٨٧ ﻫ .

(٢) راجع الحسن بن زولاق فى كتاب أخبار سيبويه المصرى (مصر) ص ٤٤ .

(٣) محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر والشام (سنة ٣٢٣ – ٣٣٤ ﻫ) وكان أميراً عظيماً استطاع أن يستقل بملك مصر والشام فى ظل الدولة العباسية ، وأن ينشىء له ولعقبه فيهما مملكة مستقلة . وخلفه ولده أنوجور واستمرت =

ومجالس علمية يؤمها كبار العلماء والأدباء[١] . والظاهر أن هذه المجالس والحلقات الأدبية الخاصة ، كانت يومئذ من تقاليد الحياة الرفيعة ، وكانت نوعاً من الترف الذى يأخذ به الأمراء والعظماء. بيد أنها كانت تسبغ فى الوقت نفســه على الحركة الفكرية قوة وبهاء .

والخلاصة أن نظام الحلقات العلمية كان وقت إنشاء الجامع الأزهر هو نظام الدراسة الممتازة فى مصر الإسلامية ، وفى معظم الأقطار الإسلامية الأخرى ؛ ونحن نعرف أن هذا النظام بالذات كان هو السائد فى معاهد الأندلس ، فى قرطبة وإشبيلية وبلنسية وغيرها من القواعد الكبرى ، وقد غدا فى الواقع قوام الحياة الجامعية والفكرية فى العالم الإسلامى . وكان طبيعيا أن الأزهر حينما أتيح له أن يدخل هذا الميدان الدراسى ، أن تقوم

= ولايته على مصر والشام حتى سنة ٣٤٩ هـ . وكافور خادم الإخشيد ووزيره ، ثم وزير ولديه أنوجور وعلى من بعــده . وقد استطاع أن يستخلص الإمارة لنفسه ، بعد موت على بن الإخشيد سنة ٣٥٥ هـ وتوفى سنة ٣٥٧ . وجعفر بن الفرات من وزراء مصر المشاهير ، ولى الوزارة للدولة الإخشيدية ، ولما فتح الفاطميون مصر اعتزل الحياة العامة . وكان عالماً أديباً وتوفى سنة ٣٩١ هـ . والحسين بن محمد الماردانى من وزراء مصر أيضاً فى أواخر الدولة الطولونية ، وفى عهد الولاة العباسيين فى أوائل القرن الثالث ، ولى خراجها أكثر من مرة ، ولعبت أسرته دوراً كبيراً فى حوادث مصر فى هذا العهد .

(١) ابن زولاق فى أخبار سيبويه ص ٣٢ و ٣٤ و ٣٦ وما بعدها .

الدراسة فيه وفقاً لهذا النظام التقليدى المتوارث . ولم يك ثمة نظام آخر يمكن التفكير فيه فى عصر لم تكن قد عرفت فيه المدارس النظامية بعد . وهكذا بدأت الدراسة فى الأزهر فى حلقات علمية وأدبية ، واستمرت كذلك على كر العصور . وعقدت أول حلقات للدرس بالأزهر فى صفر سنة ٣٦٥ هـ كما تقدم ، وعقدها قاضى القضاة على بن النعمان ، وقرأ فيها مختصر أبيه فى فقه آل البيت وهو الكتاب المسمى « الاقتصار » فى جمع حافل أثبتت فيه أسماء الحاضرين . وفى سنة ٣٧٨ هـ أذن العزيز بالله لوزيره ابن كلّس أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة ، وكانوا يعقدون « حلقاتهم » الدراسية بالجامع يوم الجمعة من بعد الصلاة إلى العصر ، وهم أول أساتذة أجريت عليهم من الدولة رواتب خاصة حسبما قدمنا . وفى هذين النصين القديمين ما يوضح لنا نظم الدراسة الأساسية بالأزهر ، وهى نظم كان قوامها الحلقة الدراسية ، فيجلس الأستاذ ليقرأ درسه فى حلقة من تلاميذه والمستمعين إليه ، وتنظم الحلقات فى الزمان والمكان طبقاً للمواد التى تدرس ، ويجلس أستاذ المادة من فقه أو حديث أو تفسير أو نحو أو بيان أو منطق أو غيرها فى المكان المخصص لذلك من أروقة الجامع أو أبهائه ، وأمامه الطلبة والمستمعون يصغون إليه ويناقشونه فيما يعن لهم . وقد

استقر هذا النظام بالأزهر منذ البداية واستمر طوال العصور ، وغدا خلال العصور الوسطى أيام الأزهر الزاهرة ، نوعاً من المحاضرة الجامعية الممتازة . وكان لهذه الطريقة على بساطتها كثير من مزايا الدراسة الجامعية ، لأنها كانت تجمع بين الأساتذة والطلاب فى جو من البساطة وعدم الكلفة ، وتفسح كبير مجال للمناقشة والمحاجة .

ومن بواعث الأسف حقاً أن يكون من آثار نظم الأزهر الجديدة أن تختفى هذه الحلقات الجامعية القديمة من أروقة الأزهر وساحاته اليوم لتحل محلها بعض الدروس الثانوية ، تلقى من آن إلى آخر . وقد كانت مدى عصور من مفاخر الجامع الشهير .

نشأ الأزهر واستمر طوال العصور حتى عصرنا معهداً حراً يؤمه الطلاب من كل صوب ، من مصر ومن سائر أنحاء العالم الإسلامى ، لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقة أو كلفة ؛ بل كثيراً ما رتبت لهم إلى جانب الدراسة الحرة ، أعطية وأرزاق تكفى للإنفاق عليهم فى حياتهم الخاصة . وهذا ما يقوم به الأزهر اليوم بالنسبة للطلاب الوافدين عليه من مختلف الأمم الإسلامية ، والذين ينتظمون فى «معهد البعوث الإسلامية» وفى مختلف الكليات وهم نحو ثلاثة آلاف طالب ، فإن الأزهر ، حسبما نفصل بعد ، يشملهم بأتم رعاية ، فيقوم بتعليمهم فى سائر المراحل ، ويؤدى

لهم من الإعانات المالية ، ما يكفى لنفقاتهم المعيشية ؛ وفضلا عن ذلك فقد أنشأ لسكنى أولئك الطلاب الوافدين ، مدينة جامعية ضخمة على أحدث طراز . وقد كانت هذه السياسة التعليمية الحرة ، وهذا البذل الوفير فى سبيل العلم ، وهذه الرعاية السابغة لطلبة العلم : كانت هذه وما زالت مفخرة حقيقية للجامع الأزهر يمتاز بها على سائر جامعات العالم ، فلسنا نعرف فى العالم المتمدن أية جامعة أخرى ، تقوم بالإنفاق على تعليم الآلاف المؤلفة من طلابها كما فعل الأزهر خلال حياته الطويلة ، وكما تفعل الجامعة الأزهرية اليوم .

وإن هذه المفخرة الخالدة ، لتبدو اليوم فى عظمتها الحقيقية متى علمنا أن الجامع الأزهر والمعاهد الدينية الملحقة به ، تضم اليوم نحو أربعة وأربعين ألف طالب ، منهم نحو ثلاثة آلاف من الطلبة الغرباء من مختلف الأمم ، حشد لتعليمهم نحو ألفى أستاذ ومدرس ومراقب . وأن ميزانية الأزهر التى رصدت للإنفاق على تعليم هذا الحشد الضخم من طلاب الجامعة الأزهرية والمعاهد الدينية ، بلغت فى سنة ١٣٧٨ هـ (سنة ١٩٥٨ م) أكثر من مليونين من الجنيهات .

هذا ، وما زال الأزهر يقدم إلى الطلاب فى بعض المعاهد أعطية شهرية مالية ، حلت محل الخبز القديم (الجراية) التى

لبثت عصوراً ، من أبرز مظاهر البر لطلاب الأزهر (المجاورين) ، وهى أعطية تقدم على ضآلتها معاونة ثمينة للطلاب الفقراء ، وما زالت أروقة الأزهر القديمة ، تأوى مئات من الطلاب الغرباء من مختلف الأمم ، يقوم الأزهر بإعانتهم ، وتسهيل سبل الدراسة والعيش لهم[١] .

أنشئ الأزهر كما رأينا ليكون مسجداً رسميا للدولة الفاطمية ، فكانت الدولة هى التى تتولى الإنفاق عليه كما كان شأن المساجد الجامعة فى جميع الأمصار الإسلامية . فلما أنشئت به الحلقات الدراسية الأولى فى عهد العزيز بالله ، رتب العزيز من ماله أو من مال الدولة ، أرزاقاً خاصة للأساتذة الذين يتولون الدراسة بالأزهر ، ورتب لهم الوزير ابن كلّس أيضاً شيئاً من ماله الخاص . ومن ذلك الحين نرى النفقة على الجامع الأزهر ترجع إلى مصدرين أساسيين ، هما الأحباس (الأوقاف) والصدقات العامة والخاصة . فأما الأحباس الخاصة فيرتبها الأكابر والأغنياء على نحو ما فعل الوزير ابن كلّس . وأما الصدقات فتشمل نصيب الأزهر من الأعطية والصدقات الخليفية وغيرها ، مما كان يوهب ويعطى فى مختلف المواسم والمناسبات .

---

(١) أثبتنا فى نهاية الكتاب بعض بيانات وإحصاءات تفصيلية ؛ عن عدد الطلبة وأبواب الميزانية وأنصبة الجراية .

وقد انتهت إلينا عن العصر الفاطمي عدة وثائق ونصوص تلقى ضوءاً على موارد الجامع الأزهر فى ذلك العصر . وأولى هذه الوثائق وأهمها ، سجل صدر عن الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، بحبس بعض أملاكه من دور وحوانيت ومخازن لينفق من ريعها على الجامع الأزهر وجامع راشدة وجامع المقس ودار الحكمة ، وفيه يفرد لكل منها نصيباً خاصا ويفصل وجوه النفقة لكل منها . ومن ذلك فيما يختص بالجامع الأزهر رواتب الخطيب والمشرف والأئمة ، وما ينفق على فرش الجامع وتأثيثه وإنارته من الحصر والقناديل والزيت ، وعلى إصلاحه وتنظيفه وإمداده بالماء وغير ذلك ، مفصلا تفصيلا شاملا ، يراجع فى هــذه الوثيقة التى رأينا أن ننقلها بنصها فى ذيل هذا الكتاب نظراً لأهميتها . ويبدو من ديباجة هذا السجل أنه إنما صدر لتأييد سجل سابق صدر عن الحاكم بحبس هــذه الأملاك عينها ، على الجهات المتقدمة مع تعديل فى الشروط والتفاصيل[1] .

وهذه فيما نعلم أول وقفية ملوكية خاصة رتبت للجامع الأزهر . وذكر لنا المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية فى حوادث

---

(١) أورد لنا المقريزى نص هــذا السجل كاملا فى الخطط (ج ٤ ص ٤٩ — ٥١)

سنة خمس وأربعمائة أعنى فى عصر الحاكم بأمر الله أيضاً ، أنه «قرئ فى شهر صفر سجل بتحبيس عدة ضياع وعدة قياسر وغيرها ، على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع وعلى القوام بها ، ونفقة المارستانات وأرزاق المستخدمين فيها وثمن الأكفان » . وفى الشطر الأول من هذا النص ما يدلى بأن القراء والأساتذة بالأزهر كانوا من المنتفعين بموارد الأعيان المحبوسة فى السجل[١] .

ونقل إلينا المقريزى أيضاً عن الشريف بن أسعد الجوانى أن القضاة بمصر ، كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام يطوفون يوميا على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة ، يبدأون بجامع المقس ثم القاهرة (وجامع القاهرة هو الجامع الأزهر) ثم المشاهد ثم القرافة ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس ، لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وما تشعث منه . وما زال الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية[٢] .

ونستطيع أن نتعرف فى هذه النصوص والوثائق القليلة ، مصدراً من المصادر التى كان الجامع الأزهر يعتمد عليها فى حياته كمسجد وكمعهد للدرس ، وهو مصدر الأحباس العامة والخاصة ؛ وكانت الأحباس فى ظل الدولة الفاطمية تحت

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٨٤ .

(٢) الخطط ج ٤ ص ٨٤ .

إشراف قاضى القضاة ولها ديوان خاص[١] . وقد نما هذا المصدر واتسع فيما بعد فى ظل دول السلاطين حتى غدا أخصب مورد للجامع الشهير .

على أنه كان ثمة للأزهر فى العصر الفاطمى غير الأحباس مورد آخر لا يقل عنها أهمية ، بل لعله كان فيما يتعلق بطلبة العلم أخصب وأجدى فى النفقة عليهم ، وتيسير سبيل العيش لهم ، ذلك هو مورد الأعطية والصدقات العامة والخاصة . وكانت هذه الأعطية والصدقات مالية ونوعية معاً . فأما المالية فكانت تشمل نصيب الأزهر من مال النجوى ، وهى جعل اختيارى قدره ثلاثة دراهم ونصف ، يؤديه إلى داعى الدعاة من شاء من المستمعين لمجالس الحكمة ، وكان يحصل منها مال كثير ينفق على الدعاة ، ويؤدى بعضه إلى الجامع الأزهر ليفرق فى فقراء الطلاب[٢] . وتشمل أيضا كل ما يجود به الكرماء من المال لهذا الغرض . وأما الصدقات النوعية فكانت كثيرة تشمل توزيع أولى الأمر والكبراء ، الأطعمة والحلوى على الطلبة والمساكين بالأزهر وغيره من المساجد الجامعة فى مواسم معينة . وقد انتهت الينا فى ذلك عدة روايات

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٨٣ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٢

ونصوص شائقة نقلها الينا المقريزى عن المعاصرين من مؤرخى الدولة الفاطمية . ومن ذلك ما ذكر عن العزيز بالله ، من أنه كان يقيم سماطاً فى جامع القاهرة (الأزهر) لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان[١] . وكانت لحوم الأضحية التى تنحر يوم الأضحى فى المنحر الخليفى ، ويتولى الخليفة نحرها بنفسه ، يفرق معظمها على الطلبة بدار العلم ، وعلى المتصدرين بجوامع القاهرة ومنها الجامع الأزهر[٢] . وذكر ابن الطوير أنه كانت تخرج يوم المولد النبوى الكريم من دار للفطرة صوانى الحلوى من الصباح إلى الظهر ، لتفرق فى أرباب الرسوم والقراء والخطباء والمتصدرين بجوامع القاهرة[٣] . وذكر ابن المأمون أن الخليفة الآمر بأحكام الله كان يطلق فى يوم مولده مقادير عظيمة من الخبز والأطعمة والحلوى لتفرق فى المساكين بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر (جامع عمرو)[٤] ، وذكر لنا أيضاً أنه كان يطلق فى ليالى الوقود الأربعة وهى مستهل رجب ونصفه ، ومستهل شعبان ونصفه ، برسم جوامع مصر والقاهرة (ومنها الأزهر) جملة كثيرة من

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٦٧

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٠٠

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٩٣

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٩٢

الزيت والطيب[١] ، إلى غير ذلك من الروايات والنصوص التى توضح لنا طرفاً مما كان يعمل فى هذا العصر ، فى سبيل العناية بالمساجد الجامعة والإنفاق على طلبة العلم ؛ ولا سيما طلبة الجامع الأزهر ودار الحكمة ، وهما يومئـذ أهم المعاهد الدراسية النظامية .

وفى وسعنا أن نرجع نظام الأعطية التى لبث الأزهر حتى العصر الأخير ، يغدقها على أساتذته وطلابه فى شكل كميات من الخبز يومية أو شهرية (الجراية) ، والتى استبدلت اليوم بأعطية مالية مماثلة ، إلى هذا النوع من الهبات والأعطية التى كان ينفح بها الأساتذة والطلاب فى العصر الفاطمى .

وقد استمرت هذه الموارد العامة والخاصة تنمو على كر العصور ، وتوالت أوقاف السلاطين والأمراء والكبراء على الجامع الأزهر خلال العصور الوسطى ، كما كانت تتوالى الأعطية والأرزاق الثابتة والموقتة لأساتذته وطلابه . وكان من أجل أعمال البر وأشرفها ، أن يوقف القادرون من أملاكهم وضياعهم على دور العلم وبخاصة على الجامع الأزهر ؛ وكانت هذه الأوقاف ترتب إما بصفة عامة أو تخصص لأساتذة المذاهب أو الأروقة المختلفة وطلبتها ، أو للإنفاق على تدريس مادة معينة ولاسيما علوم القرآن والحديث ؛ وما زالت هذه الأوقاف

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٣٤

فى نماء حتى العصر الأخير ، حيث يجتمع للأزهر منها نصيب حسن ؛ يعاونه اليوم معاونة قيمة على أداء مهمته الدينية الثقافية .

وكان الأزهر مذ بدأت فيه الدراسة مفتوح الباب لكل مسلم، يقصد إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها . وكان يضم بين طلبته دائماً الى جانب الطلاب المصريين ، عدداً كبيراً من أبناء الأمم الإسلامية يتلقون الدراسة ، وتجرى عليهم الأرزاق ، وتقيم كل جماعة منهم فى مكان خاص بها . وهذا هو نظام الأروقة الشهير الذى نعتقد أنه بدأ بالأزهر فى عصر مبكر جدا[1] والذى استمر قائماً حتى العصر الأخير ؛ ومازالت منه إلى اليوم بقيـــة بالجامع الأزهر ، ومعظم سكان الأروقة الباقية اليوم من الطلبة الغرباء . ويذكر لنا المقريزى أن عدد الطلبة الغرباء الذين كانوا يلازمون الإقامة بالأزهر فى الأروقة الخاصة بهم فى عصره ، أعنى فى أوائل القرن التاسع بلغ سبعمائة وخمسين « ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة » وهو رقم كبير يدل على ضخامة العدد الذى كان يضمه الأزهر بصفة عامة من طلاب مصر ، وطلاب الأمم الإسلامية المختلفة فى تلك العصور .

---

(١) يستفاد من أقوال المقريزى أن نظام الأروقة قد بدأ بالأزهر منذ بناء الجامع ذاته (الخطط ج ٤ ص ٥٤) ، بيد أنه يلوح لنا أن هذا القول مبالغ فيه ، لأن صفة الأزهر الدراسية لم تستقر إلا بعد ذلك بحين .

الفصل السادس

المواد والكتب والأساتذة

الأزهر والصبغة المذهبية . العلوم الدينية والمدنية . الكتب الدراسية الأولى التى درست بالأزهر . المكتبة الفاطمية ومكتبة الأزهر . بعض أساتذة الأزهر فى العصر الفاطمى . أثر الأزهر فى الحياة العقلية والسياسية

أما مواد الدراسة بالأزهر فى هذا العصر فإنه يصعب علينا استقصاؤها بوجه التحقيق . بيد أنه لا ريب أن علوم الدين واللغة كانت فى المقدمة دائماً . وكان للعلوم الدينية بنوع خاص أوفر قسط ، فعلوم القرآن والحديث والكلام والأصول والفقه على مختلف المذاهب ، وكذلك علوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة ثم الأدب والتاريخ ، هذه كلها كانت زاهرة بالأزهر خلال العصور الوسطى .

وقد كانت الصبغة المذهبية تغلب كما رأينا على الدراسة بالأزهر ولا سيما فى بداية عهدها ، ولم يك ذلك غريباً فى ظل دولة كالدولة الفاطمية تتشح بثوبها المذهبى العميق ؛ وكان من الطبيعى أيضاً أن تحتل علوم الشيعة وفقه آل البيت من

حلقاته الدينية المقام الأول . بيد أنه يمكن أن يقال من جهة أخرى إن هذه الصبغة المذهبية لم تكن دائماً مطلقة ، ولم تكن دائماً لزاماً على الطلاب . ونحن نعرف أن الخلافة الفاطمية بالرغم من استمساكها بصبغتها المذهبية العميقة ، لم تستطع أن تحشد سواد الشعب المصرى إلى جانبها فى هذا المضمار ، ولم تحاول دائماً أن تجرى على سياسة الإرغام فى طبعه بطابعها ، وفى فرض لونها المذهبى على عقائده ، بل نراها فى أحيان كثيرة تلجأ فى ذلك إلى سياسة الرفق والتسامح . ولنا فى ذلك مثل ساطع فى المرسوم الدينى الذى أصدره الحاكم بأمر الله — وهو من غلاة الخلفاء الفاطميين — فى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) وفيه يقرر بعض الأحكام ويفسرها ، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف فى فهمها ، ويحاول أن يوفق فى ذلك بين المذاهب المختلفة ، وقد جاء فيه بعد الديباجة :

« يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ؛ صلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لامانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ؛ يُخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ؛ لا يُسب أحد

من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف والخالف فيهم بما خلف ؛ لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده ؛ وعنده كتابه وعليه حسابه . ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده ، من جميع ما نصه أمير المؤمنين فى سجله هذا ، وبعده قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون »[1] ه . .

وقد رأينا أن الدراسة فى دار الحكمة ذاتها وهى الجامعة الفاطمية المذهبية ، كانت فى البداية حرة تدرس فيها علوم السنة إلى جانب علوم الشيعة ، وأنها تحررت كثيراً من صبغتها المذهبية حينما أعيدت بعد إغلاقها فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله ؛ فمن الواضح إذاً أن الدراسة بالأزهر كانت حتى فى الوقت الذى يشتد فيه تيار الدعوة المذهبية ، تحظى دائماً بقسط من الحرية يزيد أو ينقص وفقاً للظروف والأحوال . وكانت دار الحكمة تستأثر بعد ذلك بتدريس العلوم المدنية ، بينما كان الأزهر يقتصر على تدريس العلوم الدينية . بيد أن هذه الصبغة المذهبية خفت

---

(١) راجع نص هذا المرسوم بأكمله فى ابن خلدون — كتاب العبر ج ٤ ص ٦٠ .

وطأتها منذ اضمحل شأن الدولة الفاطمية ، وأخذت تختفى شيئاً فشيئاً . وزالت هذه التفرقة بين العلوم مذ ضعف شأن دار الحكمة ثم أغلقت ، وأخذ الأزهر بنصيبه من العلوم المدنية إلى جانب العلوم الدينية . وهنالك ما يدل على أن الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات ، كانت تدرس فى هذا العصر بالأزهر فى حدود ضيقة ولطبقة خاصة من الطلاب .

* * *

هذا وأما عن الكتب الدراسية التى كانت تدرس بالأزهر فى العصر الفاطمى ، فليس لدينا أيضا سوى إشارات موجزة جداً . وأول كتاب درس بالجامع الأزهر هو كتاب « الإقتصار » أو « الإقصار » الذى وضعه أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى قاضى المعز لدين الله فى فقه آل البيت[1] ، وكان يتولى قراءته وتدريسه بالأزهر ، ولده أبو الحسين على بن النعمان كما قدمنا . واستمرت قراءته مدى حين على يد بنى النعمان الذين تعاقبوا فى قضاء مصر حتى نهاية القرن الرابع . وكان للنعمان القيروانى كتب أخرى فى فقه الإمامية (الشيعة) ، ذكر لنا ابن زولاق مؤرخ المعز لدين الله ، أسماءها وهى كتاب « دعائم الإسلام » ،

---

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمى المغربى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م)

الذى عنى بتدريسه بالأزهر فيما بعد عناية خاصة كما سنرى ، وكتاب « اختلاف أصول المذاهب » وكتاب « الأخبار » وكتاب « اختلاف الفقهاء » ، ومن المرجح أنها كانت تقرأ أو تدرس بالأزهر إلى جانب كتاب « الإقتصار » حتى أواخر القرن الرابع (١) .

وقد انتهى إلينا بعض هذه المؤلفات الشيعية التى افتتحت بها الدعوة إلى دراسة فقه الإمامية بمصر . ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة من المجلد الأول من كتاب « دعائم الإسلام » ، وعنـوانه الكامل « دعائم الإسلام فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله » . ويلقى الكتاب ضوءاً على عقيدة الفاطميين ويبدأ بتعريف الإيمان والفرق بين الإسلام والإيمان ، ثم يتحدث عن ضرورة اعتقاد المسلمين فى « الإمامة » ، ووجوب اتباع الأئمة فى معتقداتهم وآرائهم ، والخضوع لأوامرهم . ويقول لنا مؤلفه النعمان القيروانى فى ديباجته : « إنه لما اضطربت الأحكام واختلفت المذاهب وانقلبت أوضاعها ، رأى عملا بقول رسول الله : « إذا ظهرت البدع فى أمتى فليظهر العالم علمه » أن يضع كتاباً جامعاً مختصراً بما جاء عن الأئمة من أهل بيت رسول الله ، من جملة ما اختلف فيه الرواة عنهم فى

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٩ .

دعائم الإسلام ، وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام . وهذه الدعائم حسبما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق هى « الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد » ، وهى الموضوعات التى يتناولها المجلد الأول من الكتاب(١) ؛

كذلك توجد بدار الكتب نسخة مصورة قديمة من كتاب « الأخبار » أو « شرح الأخبار » . وقد ذكر لنا النعمان القيروانى موضوعه وطريقة تأليفه فى مقدمته فيما يأتى : « أثرت منه الأخبار ، وجمعت الآثار فى فضل الأئمة الأبرار حسبما وجدته ، وغاية ما أمكننى واستطعته ، فصححت ما بسطته فى كتابى هذا وألفته ، بأن عرضته على ولى الأمر وصاحب الزمان والعصر ، مولاى المعز لدين الله أمير المؤمنين عليه السلام وعلى سلفه وخلفه ؛ وأثبت منه ما أثبته ، وصح عنده وعرفه ، وأثره عن الأئمة الطاهرين ، وأجاز لى سماعه منه ، وبأن أرويه لمن يأخذه عنى وعنه عليه السلام ، فبسطت فى هذا الكتاب ما أثبته وأجازه وعرفه ، وأسقطت ما أنكره من

---

(١) يعتبر هذا الكتاب من أهم كتب الشيعة ، وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة بالهند . وهو جزءان كبيران يتناول الأول منهما شئون العبادات ، ويتناول الثانى شئون المعاملات . وقد قام بنشر المجلد الأول الأستاذ آصف بن على بن أصغر فيضى ، سفير الهند السابق بمصر ، وصدر عن دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ .

ذلك ، وذلك مما نسبه إلى أهل الحق المبطلون ، وحرف من قولهم المحرفون » .

ثم قرئ بالأزهر كتاب ألفه الوزير ابن كلّس فى الفقه الشيعى على مذهب الإسماعيلية مما سمعه فى ذلك من المعز لدين الله والعزيز بالله وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ، وكان يجلس لقراءته وتدريسه بنفسه حسبما قدمنا ، وأفتى الناس بما فيه[١] .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك حقيقة تاريخية هامة ، هى أن الكتب الأولى التى قررت للتدريس بالأزهر هى كتب اشتقت من المصادر المذهبية الرسمية ، أعنى من أولياء الخلافة الفاطمية ذاتها ، وكان لها صبغـــة رسمية واضحة . وكان التدريس بالأزهر يجرى يومئذ على مذهب الشيعة بصفة رسمية ، وشدد فى ذلك بادئ ذى بدء حتى أنه فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة فى عهد العزيز بالله ، قبض على رجل وجد عنده كتاب « الموطأ » للإمام مالك ، وجلد من أجل إحرازه[٢] .

وفى سنة ست عشرة وأربعمائة ، أمر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ولده الحاكم بأمرالله ، بأن يدرس الدعاة للناس كتاب

---

(١) راجع الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ص ٢٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ، والخطط ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) الخطط ج ٤ ص ١٥٧ .

« دعائم الإسلام » ، وكتاب « مختصر الوزير » ورتب لمن يحفظهما مالا[١]. والدعاة هم أساتذة دار الحكمة ، وقد كانوا يجلسون للتدريس بالجامع الأزهر فى أحيان كثيرة[٢] . وقد عرفت موضوع كتاب « دعائم الإسلام » وعرفت مؤلفه . أما « مختصر الوزير » فيلوح لنا أنه هو مؤلف ابن كلّس أعنى « الرسالة الوزيرية » .

والمرجح أن كثيراً من الكتب الفقهية التى كانت تدرس بدار الحكمة كانت تدرس أيضاً بالأزهر ؛ ومن الأسف أننا لم نعثر على نصوص أو بيانات أخرى تلقى ضوءاً على أنواع الكتب التى كانت تدرس بالأزهر فى هذا العصر فى العلوم الأخرى ؛ بيد أنه يمكن أن يقال إنها كانت تشمل مصنفات أعلام الأساتذة المعاصرين ، الذين انتهت إليهم الرياسة فى بعض العلوم ، أو الذين تولوا التدريس بالأزهر يومئذ ؛ مثل العلامة أبى الحسن على بن إبراهيم الحوفى إمام العربية والنحو وصاحب كتاب «إعراب القرآن» ، وابن بابشاذ النحوى صاحب كتاب «المقدمة» و«شرح الجمل» ، وابن القطاع اللغوى صاحب كتاب «الأفعال» ، وأبى محمد عبد الله بن برى المصرى إمام اللغة فى عصره ،

---

(١) الخطط ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٢٦ ، وتاريخ ابن ميسر ص ٦٤ .

وأبى العباس أحمد بن هاشم المحدث والمقرئ ، وأبى القاسم الرعينى الشاطبى إمام القراءات وصاحب القصيدة الشهيرة فى علم القراءات « حرز الأمانى ووجه التهانى »[١] ، وغيرهم ممن انتهت إليهم الرياسة فى هذا العصر ، واعتبرت مصنفاتهم متوناً ومراجع : بل لقد لبثت مصنفات بعض أولئك الأئمة تدرس بالأزهر حتى العصر الأخير مثل قصيدة الشاطبى فى القراءات .

كذلك لم نعثر على شىء من أسماء الكتب التى كانت تدرس بدار الحكمة ، وإن كان قد انتهى إلينا شىء عن الدعوة السرية الفاطمية التى كانت تلقن فيها ، وقليل من رسائل الدعاة وتعاليمهم[٢] . ومن المحقق أن كثيراً من الكتب التى ألفت ودرست فى هذا العهد ، قد دثر بانتهاء الدولة الفاطمية ،وحرص الدولة الأيوبية التى خلفتها ، على محو رسومها وآثارها ، فلم يعن كثيراً بتداولها والتعريف عنها .

هذا وقد عنيت الدولة الفاطمية عناية خاصة باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات العظيمة ، وكان بالقصر الفاطمى مكتبة جامعة ،

---

(١) توفى الحوفى سنة ٤٣٠ هـ ، وابن بابشاذ سنة ٤٦٩ هـ ، وابن القطاع سنة ٥١٥ هـ ، وابن برى سنة ٤٩٩ هـ ، وابن هاشم سنة ٤٤٥ هـ ، والشاطبى سنة ٥٩٠ هـ .

(٢) راجع ما أورده المقريزى عن الدعوة السرية فى الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٣٥ .

بفيض المؤرخون المعاصرون فى وصف عظمتها ونفاسة محتوياتها ؛ وكان بها ما يزيد على مائتى ألف مجلد فى سائر العلوم والفنون ، فى الفقه والحديث واللغة والتاريخ والأدب والطب والكيمياء والفلك وغيرها . قال ابن أبى طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر »(١) . وكان بدار الحكمة مكتبة أخرى يرجع إليها الأساتذة والطلاب ، وبها عدد وافر من الكتب الفلسفية والرياضية والروحانية وغيرها مما يتصل بدروس الحكمة(٢) ، وكانت فى الواقع خلفا لمكتبة الإسكندرية الشهيرة . وكان للجامع الأزهر مكتبة خاصة به ؛ وكانت المساجد الجامعة تزود فى هذه العصور بمجموعات من الكتب ، ولاسيما كتب الحديث والفقه . ولكن يوجد ثمة ما يدل على أن الأزهر كان له من خزائن الكتب نصيب حسن ، وكانت له مكتبة كبيرة ذات أهمية خاصة ؛ فإن ابن ميسر يقول لنا فى أخبار سنة

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ولعله لم يفق المكتبة الفاطمية فى ضخامتها سوى مكتبة قرطبة الشهيرة التى بلغت ذروتها فى عهد الحكم المستنصر بالله ، وقدر ما بها يومئذ من الكتب بستمائة ألف مجلد .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ و ٣٣٤ .

٥١٧ هـ ، إنه قد أسند الى داعى الدعاة أبى الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب(١) ؛ وإسناد الإشراف على خزانة الكتب إلى داعى الدعاة ، وهو أكبر رئيس دينى بعد قاضى القضاة ، دليل على قيمتها وأهميتها .

* * *

ونستطيع أن نذكر عدة من الأساتذة الأعلام الذين تولوا الدراسة بالأزهر فى العصر الفاطمى ؛ وكان فى مقدمة أولئك الأساتذة بنو النعمان قضاة مصر . فكان القاضى أبو الحسن على ابن النعمان أول من درس بالأزهر ، وكان فوق تضلعه فى فقه آل البيت أديباً شاعراً ، وتوفى سنة ٣٧٤ هـ ؛ ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضى محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ؛ ثم ولده الحسين بن النعمان قاضى الحاكم بأمر الله(٢) . ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) كان من الذين تولوا الدراسة بالأزهر يومئذ ؛ فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته ، ثم صديق ولده العزيز من بعده . ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمى الجديد .

---

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٤ .

(٢) ابن خلكان ج٢ ص ٢١٩-٢٢٣ ، وحسن المحاضرة ج١ ص ٢٦٨ ، وذيل قضاة مصر (ملحق كتاب الكندى) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١ .

وهناك من أعلام التفكير والأدب فى هذا العصر من كانت لهم بلا ريب صلة علمية بالأزهر فتلقوا دراستهم أو تولوا التدريس فيه ؛ فمنهم المسبّحى الكاتب والمؤرخ الشهير ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ ، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ ؛ وكان من أقطاب الأمراء والعلماء ؛ تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ، وأخذ بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ؛ ومن المعقول أن يكون المسبّحى وهو من أولياء الدولة الفاطمية ، وأقطاب علمائها من أساتذة المعهدين الفاطميين ، دار الحكمة والأزهر . وشغف المسبّحى بتدوين التاريخ وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «أخبار مصر وفضائلها» ، وهو أثر ضخم يتناول تاريخ مصر وما بها من الأبنية والعجائب ، وذكر نيلها وإقليمها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ؛ ولم يصلنا هذا الأثر الذى يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته . وكتب المسبحى كتباً أخرى فى التاريخ والأدب والفلك ولكنا لم نتلق شيئاً منها[1]

---

(١) راجع فى ترجمة المسبحى ، ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ ، وحسن —

ومنهم أبو عبد الله القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ ، وهو محمد بن سلامة بن جعفر . ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ . وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، تولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ؛ وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا قيصرة قسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ؛ وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ ، منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما فى الحديث ، وكتاب « مناقب الإمام الشافعى » و « أنباء الأنبياء » و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ، وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره[١] ؛

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى ، وهو أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد ، وكان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل

= المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ ؛ وبحثاً لى فى مجلة الرسالة عدد ١١٥ . ويوجد من تاريخ المسبحى « أخبار مصر » فصــل صغير ضمن مجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال (رقم ٥٣٤ الغزيرى) .

(١) راجع فى ترجمة القضاعى ، ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ ، والسبكى فى طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ، وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ ؛ وبحثاً لى فى مجلة الرسالة عدد ١١٤ .

مدة طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتباً كثيرة فى النحو والأدب ، منها كتاب « إعراب القرآن » وكانت وفاته فى سنة ٤٣٠ هـ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين ، واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفى سنة ٤٤٥ هـ .

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر ابن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو وألف فيهما عدة كتب ضخمة ، واشتغل حيناً بديوان الإنشاء فى عهد المستنصر بالله ، وتوفى سنة ٤٦٩ هـ .

ومنهم أبو عبـد الله محمد بن بركات النحوى تلميذ القضاعى ؛ كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو وتوفى سنة ٥٠٢ هـ .

ومنهم العلامة المقرئ الشهير أبو القاسم الرعينى الشاطبى الضرير ؛ ولد بشاطبة من أعمال الأندلس سنة ٥٣٨ هـ ، وبرع فى علوم القرآن ، واشتهر بالأخص بالتضلع فى علم القراءات. وقدم إلى مصر عقب انتهاء الدولة الفاطمية يسبقه صيته وتصدر للإقراء والدرس بالقاهرة ، فهرع إليه الطلاب من كل صوب ؛ وكان إمام القراءات فى عصره ، ووضع فى علم القراءات قصيدته الشهيرة « حرز الأمانى ووجه التهانى » التى مازالت إلى

يومنا متناً من أهم متون هذا الفن ، وكانت وفاته سنة ٥٩٠ هـ .

ومنهم الفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسى ، كان من أقطاب الفقه الحنفى والتفسير ، وكان أيضاً عارفاً بالرياضة والطب ، وعلوم اللغة والتاريخ ؛ وله مصنفات فى التاريخ والفقه ، واشتغل زمناً طويلا بالتدريس بالأزهر وتوفى سنة ٥٩٨ هـ .

* * *

كان للأزهر بلا ريب أثره فى توجيه الحياة العقلية المصرية فى هذا العصر (العصر الفاطمى) . بيد أن هذا الأثر كان محدوداً خصوصاً منذ قيام دار الحكمة جامعة الدولة الرسمية ، وتبوئها مقام الزعامة فى توجيه الحركة الفكرية . وقد كان أثر الأزهر أقوى وأشد ظهوراً فى نشر العلوم الدينية ، وتخريج علماء الدين إذ كان كما قلنا موئل الثقافة الدينية ، بينما كانت دار الحكمة موئل الثقافة المدنية . وعلى أى حال فإن مؤرخ الآداب العربية لا يسعه إلا أن ينوه بما كان للأزهر من أثر فى سير الحركة الفكرية أيام الدولة الفاطمية ، وإن كان هذا الأثر لم يبلغ يومئذ ما بلغه فيما بعد من الأهمية والخطورة .

الفصل السابع

المناسبات الدينية والإجتماعية

مهمة المساجد الجامعة . الأزهر مسجد الدولة الفاطمية . صلاة المعز بالأزهر . إقامة الصلوات الرسمية فيه . ركوب العزيز إليه . هيئة صلاة الجمعة الخليفية بالأزهر . الأذان الفاطمى . الأزهر مركز المحتسب . الإحتفال فيه بالمولد النبوى وعاشوراء . الأزهر فى ليالى الوقود . عقد مجالس الحكمة فيه .

كان للمساجد الجامعة مذ قامت عاصمة الإسلام فى مصر ، صبغة شبيهة بالرسمية ، تقام فيها صلاة الجماعة الرسمية التى يؤمها الأمير أيام الجمع والأعياد ، وتتلى من منابرها المراسيم والأوامر والأحكام ، وتعقد فيها مجالس القضاء . وكان جامع عمرو أول مسجد أقيم بمصر الإسلامية ، أول مسجد جامع أسبغت عليه هذه الصفة ، ولبث يستأثر بها مدى حين ، وأطلق عليه اسم « المسجد الجامع » منذ إنشائه ، وهو الإسم الذى غدا فيما بعد علماً على جميع « المساجد الجامعة » أو المساجد الرسمية فى مختلف العواصم والقواعد الإسلامية . فلما أنشأ العباسيون مدينة العسكر على أثر افتتاحهم لمصر سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) وأقيم

بها « مسجد جامع » هو جامع العسكر تحولت الصفة الرسمية إلى المسجد الجديد . ولما أنشأ أحمد بن طولون مدينة القطائع لتكون عاصمة ملكه فى سنة ٢٥٦ ﻫ (٨٧٠ م) وأنشأ بها مسجده الشهير، غدا مسجد الدولة الرسمى ؛ بيد أن قيام هذين المسجدين الجديدين لم ينزع من « المسجد الجامع » (جامع عمرو) ، كل مظاهره وصفاته الرسمية ، فقد لبث محتفظاً بهيبته القديمة ، تقام فيه الجمعة الرسمية أحياناً إلى جانب المسجد الجديد ، ويجلس فيه القاضى أو المحتسب ؛ وفى أيام الدولة الإخشيدية عاد مسجد الدولة الرسمى ، واحتفظ بهذه الصفة مدى حين عقب الفتح الفاطمى ، وأقيمت فيه أول جمعة رسمية دعى فيها للخليفة الفاطمى فى رمضان سنة ٣٥٨ ﻫ ، ولبثت تقام الجمعة فيه وفى مسجد ابن طولون ، حتى إنشاء الجامع الأزهر وافتتاحه للصلاة فى السابع من رمضان سنة ٣٦١ ﻫ[١] .

وغدا الجامع الأزهر منـــذ قيامه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى ؛ وفى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٢ ﻫ ركب المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، عقب مقدمه إلى عاصمة ملكه الجديد بقليل ، الى الجامع الأزهر لصلاة العيد ، وألقى

---

(١) راجع المقريزى فى الخطط ، ج ٤ ص ٢ ، وابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ .

خطبة بليغة أبكى فيها الناس[١] ، وكانت هـذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمى بالجامع الأزهر .

واستمر الأزهر يستأثر بهذا الامتياز الرسمى فى ظل الدولة الفاطمية زهاء أربعين عاماً تقام فيه الجمع الرسمية ، ويخطب الخليفة فيه بنفسه فى جمع رمضان وفى الأعياد ، حتى تم إنشاء الجامع الحاكمى أو الجامع الأنور فى عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكان الخليفة العزيز بالله قد بدأ بإنشائه منذ سنة ٣٨٠ هـ ، وشهد به الجمعة فى رمضان وخطب فيه غير مرة ، ولكنه توفى قبل إتمامه ؛ فعنى ولده الحاكم بأمر الله بإتمامه منذ سنة ٣٩٣ هـ ، واستغرق بناؤه عشر سنين . ولما تم بناؤه عنى الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية كبيرة ، وزين بالستور الفخمة والتنانير الفضية ، وأقيمت فيه الجمعة الرسمية فى رمضان سنة ٤٠٣ هـ ، وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوماً مشهوداً[٢] . وألفى الجامع الأزهر لأول مرة فى جامع الحاكم ، منافساً ينازعه الصفة الرسمية التى استأثر بها حتى ذلك الحين . وكانت الجمعة الرسمية تقام أيضاً من وقت إلى آخر فى بعض المساجد الفاطمية الأخرى ، مثل جامعى راشدة والمقس اللذين أنشأهما الحاكم بأمر الله ، وكانت

---

(١) المقريزى عن ابن زولاق فى اتعاظ الحنفاء ص ٩٢ .

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٥٦ .

الخطب الخلافية تلقى فى الأزهر والجامع الحاكمى ، وكذلك فى جامعى عمرو وابن طولون اللذين لبثا يحتفظان دائماً بهيبتهما القديمة(١) . بيد أن الجامع الأزهر لم يفقد من جراء هذه المنافسة مكانته الخاصة ، بل كان دائماً يعتبر فى نظر الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة مسجد الدولة الأول .

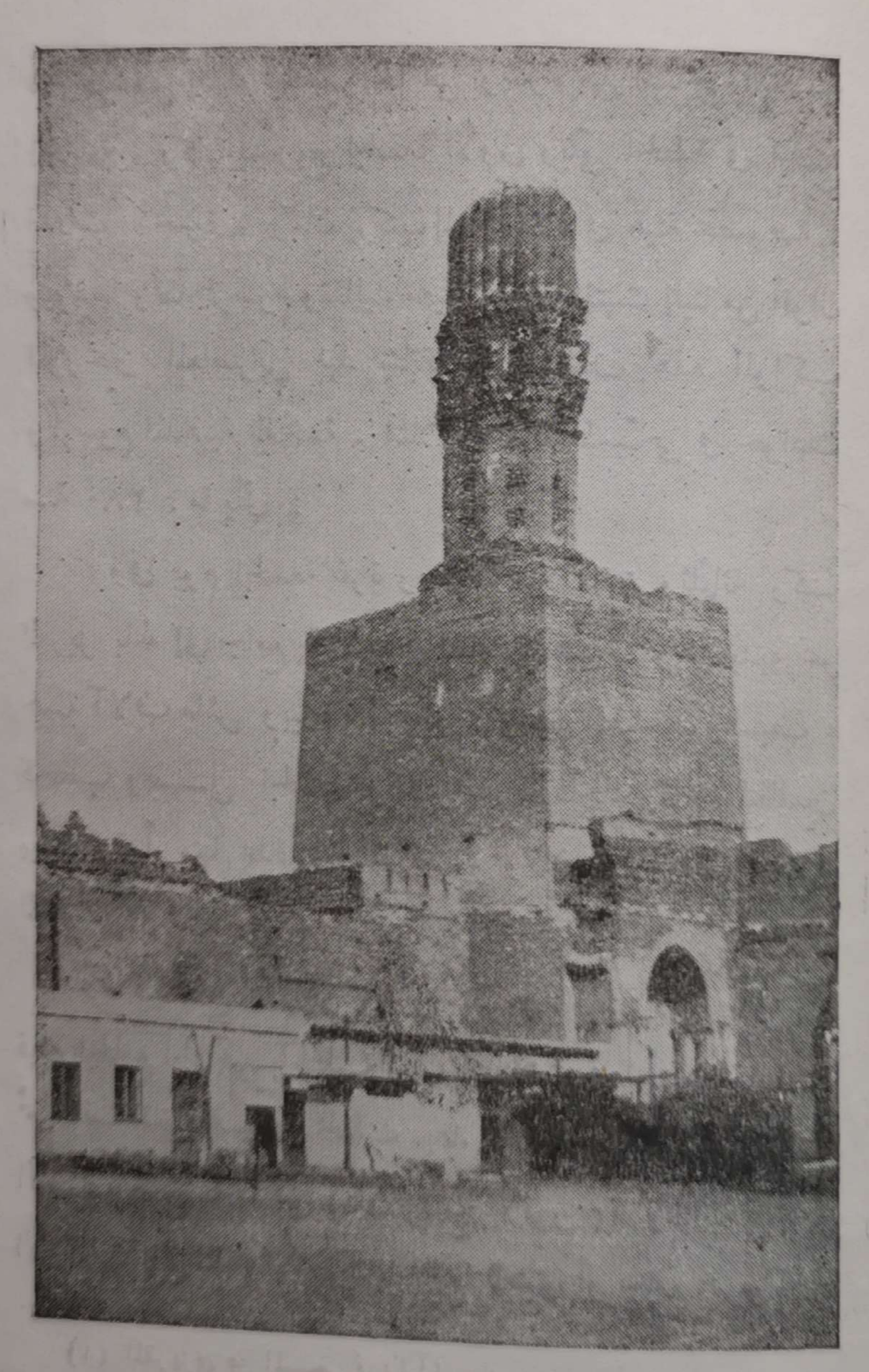
وكانت إقامة الجمعة والصلوات الموسمية الجامعة بالأزهر من أخص المظاهر المذهبية الرسمية التى أسبغتها عليه الخلافة الفاطمية ؛ وقد رأينا فيما تقدم أن الجامع الأزهر أنشئ ليكون رمزاً لإمامة الدولة الجديدة ومنبراً لدعوتها ، وقد لبث الأزهر منذ إنشائه محتفظا بهذه الصفة ، بالرغم من قيام عدة أخرى من المساجد الفاطمية الجامعة ، التى نافسته فيما بعد فى إقامة الجمعة والصلوات الموسمية ؛ وكان الخليفة يشهد الصلاة أيام الجمع والأعياد الموسمية ، ويخطب فيها بنفسه فى أحيان كثيرة ، وكانت خطبة الجمعة الرسمية ما تزال على عهدها تلقى بالجامع الأزهر حتى أواخر الدولة الفاطمية(٢) .

وكان الخليفة يلقى خطب الجمعة فى شهر رمضان بالجامع

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

(٢) راجع النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٦ ، حيث يذكر أن خطبة الجمعة كانت تلقى بالأزهر حتى عهد الآمر بأحكام الله (٤٩٦ – ٥٢٥ هـ) .



جامع الحاكم بأمر الله

الأزهر قبل إنشاء الجامع الحاكمى وغيره من المساجد الفاطمية الجامعة ؛ وكان يستريح الجمعة الأولى ويلقى الخطبة فى الجمع الثلاث الأخيرة ؛ وكان يركب إلى الصلاة فى هيئة مخصوصة ، ويؤديها وفقاً لرسوم وتقاليد معينة ؛ وقد انتهت إلينا من أقوال المؤرخين المعاصرين نبذ شائقة فى وصف هذه المواكب والرسوم المذهبية الفخمة ، فمثلا يقول لنا المسبّحى فى حوادث سنة ٣٨٠ ﻫ ما يأتى :

« وفى يوم الجمعة غرة رمضان سنة ثمانين وثلثمائة ركب العزيز بالله إلى جامع القاهرة بالمظلة الذهبية ، وبين يديه نحو خمسة آلاف ماش وبيده القضيب ، وعليه الطيلسان والسيف ، فخطب وصلى الجمعة وانصرف ، فأخذ رقاع المتظلمين بيده وقرأ منها عدة فى الطريق ، وكان يوما عظيما ذكرته الشعراء »[١] .

وكان الجامع الأزهر يستأثر منذ عهد المعز لدين الله حتى قيام الجامع الحاكمى بالخطب الرسمية الثلاث فى جُمع رمضان ، ثم كانت تلقى هـذه الخطب بعد ذلك على الترتيب الآتى : الأولى بالجامع الحاكمى (أو الجامع الأنور) ، والثانية بالجامع الأزهر ، والثالثة والأخيرة بالجامع العتيق أو جامع عمرو[٢] .

---

(١) المقريزى عن المسبحى فى الخطط ج ٤ ص ٦١ .

(٢) يلاحظ أن بقية من ذلك التقليد لبثت قائمة حتى العصر الأخير حيث —

وقد نقل إلينا المؤرخون المتأخرون عن ابن الطوير وغيره من المؤرخين المعاصرين هيئة صلاة الجمعة فى هذه الأيام المشهودة. وبيان ذلك أن يركب الخليفة فى موكبه الفخم إلى الجامع، ويخرج من باب الذهب والمظلة بمشدة الجوهر على رأسه، وقد ارتدى ثياب الحرير الأبيض الساذجة توقيراً للصلاة، ويدخل من باب الخطابة، وبين يديه القراء يرتلون منذ خروجه من القصر، ومن حوله الجند والركابية. وإذا كانت الصلاة بالجامع الأزهر، فإنه يخرج فى موكبه إلى الجامع من باب الديلم الذى غدا باب المشهد الحسينى فيما بعد؛ ويعبر «الخوخ»، (الدروب) السبع إلى رحبة الجامع الأزهر؛ وكانت هذه الرحبة ساحة شاسعة تقع فى الجهة البحرية من الجامع، وكان يحتشد فيها الجند كلما قصد الخليفة إلى الأزهر، ثم يدخل الخليفة الجامع من بابه البحرى؛ ويجوز إلى الدهليز الأول الصغير، ومنه إلى القاعة المعلقة التى كانت برسم جلوسه فيجلس فى مجلسه، وترخى المقرمة الحرير وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار الجند، ومن الداخل حتى الباب بصبيان الخاص وغيرهم. ويقرأ المقرئون، وتفتح

———

= كان رئيس الدولة يشهد صلاة الجمعة الأخيرة فى رمضان بجامع عمرو، وهى المعروفة بالجمعة اليتيمة لأنها لا تتكرر.

أبواب الجامع حينئذ للناس بعد غلقها ، ووضع الحجاب عليها قبل مقدم الخليفة ؛ وتتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله ، فيأتى صاحب بيت المال وبين يديه الفرش المختص بالخليفة محمولا بأيدى الفراشين المميزين ملفوفاً فى العراضى الديبقية ، فيفرش فى المحراب ثلاث طراحات فاخرات واحدة فوق أخرى ، ويعلق ستران يمنة ويسرة ، يكتب فى أولهما بالحرير الأحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، ويكتب فى الستر الثانى سورة المنافقين كتابة واضحة ؛ فإذا استحق الأذان أذن مؤذنو القصر كلهم على باب مجلس الخليفة ؛ وعندئذ يصعد قاضى القضاة إلى المنبر ، وفى يده مدخنة لطيفة من الخيزران يقدمها صاحب بيت المال وفيها ند خاص بالخليفة ، ويبخر بها أعلى المنبر وهو يقبل درجاته . ثم يدخل مقصورة الخليفة مسلماً بقوله : « السلام على أمير المؤمنين الشريف — القاضى — الخطيب ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله » . فيخرج الخليفة وحوله الأساتذة المحنكون والوزراء والأمراء والحرس المسلح ، ويصعد إلى أعلى المنبر تحت القبة المبخرة ، ويقف الوزير بباب المنبر ووجهه إليه ؛ فإذا جلس أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزر تلك القبة حتى تصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلا

للخليفة ، ويقف ضابطاً للمنبر ؛ وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الإنشاء ، يتلو فيها آية من القرآن الكريم ، ثم يصلى على أبيه أى على بن أبى طالب وجده النبى عليه الصلاة والسلام ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ويتوسل بدعوات فخمة تليق به ، ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ثم يختتم بقوله : « اذكروا الله يذكركم » فيصعد إليه الوزير ، ويفك أزرة القبة ويعود القهقرى ، فينزل الخليفة ويقف للصلاة فوق الطراحات المذكورة فى المحراب وحده إماما ، وخلفه الوزير والقاضى ومن ورائهما الأساتذة والأمراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ، فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى ، وأسمع القاضى المؤذنين فأسمعوا الناس ؛ ويقرأ الخليفة فى الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر الأيمن وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر ، فإذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تباعاً ، ثم يعود الخليفة بموكبه إلى القصر والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً ؛ ويتكرر هذا الترتيب والنظام فى الجمعتين الأخريين[1] ،

---

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٦١ و ٦٢ ، وراجع أيضاً صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

وكانت تعمل للخليفة كل عام عدة حلل ملوكية تخصص لغرة رمضان وجمعتيه ، للغرة حلة موكبية مكملة مذهبة ، وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها وطيلسانها بياض ، وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى ؛ وتعمل حلل فاخرة أخرى برسم أخى الخليفة والوزير(١).

وكان الأذان من الأمور التى طبعها الفاطميون بطابعهم المذهبى ، وكان يؤذن وقت الفتح فى المسجد الجامع دون غيره ، ثم عم الأذان تباعاً بقية المساجد الأخرى ؛ وكان يفتتح بالتكبير على نمط أهل المدينة ، واستمر على ذلك عند إنشاء مدينة العسكر ، ثم مدينة القطائع ، حتى الفتح الفاطمى .

ولما دخل القائد جوهر بجيشه المظفر ، وشهد صلاة الجمعة فى يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة ٣٥٨ ﻫ بجامع ابن طولون ، أذن المؤذنون فى ذلك اليوم بقولهم : « حى على خير العمل » ، وذلك بدلا من قولهم : « حى على الصلاة حى على الفلاح » ؛ ثم أُذن بذلك فى المسجد الجامع ، ثم فى الجامع الأزهر منذ افتتاحه للصلاة فى رمضان سنة ٣٦١ ﻫ ، وعم الأذان الفاطمى بعد ذلك جميع المساجد الأخرى .

وفى سنة ٤٠٠ ﻫ ، فى عهد الحاكم بأمر الله ، صدر سجل

---

(١) المقريزى عن ابن المأمون — الخطط ج ٤ ص ٦٣ .

بترك النداء فى الأذان « بحى على خير العمل » وأن تستبدل فى صلاة الفجر بقولهم : « الصلاة خير من النوم » وأن يؤذن بذلك موذنو القصر ، وأن يختتموا بقولهم : « السلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله » ؛ وفى ربيع الآخر سنة ٤٠٣ ﻫ ، أمر بالعودة الى النداء « بحى على خير العمل » ؛ وأمر فى سنة ٤٠٥ ﻫ بأن يمتنع موذنو جامع القاهرة (الجامع الأزهر) من قولهم بعد الأذان « السلام على أمير المؤمنين » وأن يقولوا بعد الأذان « الصلاة يرحمك الله » وذلك اقتداء بما أثر عن الأذان أيام رسول الله والخلفاء الراشدين . ثم أعيد السلام على أمير المؤمنين بعد أذان صلاة الفجر ، وكان ذلك من خواص الأذان أيام الدولتين الأموية والعباسية . وكان الأذان أيام الفاطميين يتضمن أيضاً بعض الدعوات المذهبية المحضة كقولهم : « محمد وعلى خير البشر » . ولما سقطت الدولة الفاطمية واستبد صلاح الدين بالأمر ، أمر بإبطال صيغة الأذان الفاطمية ، وعاد المؤذنون الى اختتام الأذان بالسلام على رسول الله ، إذ لم يكن بمصر يومئذ خليفة يسلم عليه[1].

* * *

هذا وقد لبث الأزهر أيام الدولة الفاطمية فضلا عن صبغته

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٤٤ — ٤٦ .

الجامعية التى استقرت وتوطدت على ممر الأيام ، وفضلا عن إقامة الجمع والصلوات الرسمية فيه ، مركزاً لكثير من المظاهر والمناسبات الرسمية الأخرى .

فمن ذلك أنه كان مركز المحتسب ؛ وكان منصب المحتسب من أهم المناصب الدينية فى الدولة الفاطمية ، وهو الثالث عندهم بعد قاضى القضاة وداعى الدعاة ، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة ، وله نواب فى جميع أنحاء القطر ، ويجلس بالجامع الأزهر وجامع مصر (جامع عمرو) يوماً بعد يوم[1] ؛ وكانت مجالس القضاء تعقد قبل قيام الجامع الأزهر بجامع عمرو ، والجامع الطولونى .

ومن ذلك أنه كان مركز الاحتفال الرسمى بالمولد النبوى الكريم ؛ ففى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول يركب القاضى بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ، ومعهم أرباب تفرقة صوانى الحلوى التى أعدت بالقصر ، لتفرق فى أرباب الرسوم ، كقاضى القضاة وداعى الدعاة وقراء الحضرة والخطباء وغيرهم ؛ فيجلسون فى الجامع مقدار قراءة الختمة الكريمة ، ثم يعودون فى موكبهم إلى القصر ، وينتظرون تحت المنظرة التى يجلس فيها الخليفة ، ثم تفتح إحدى طاقات المنظرة

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

ويبدو منها وجه الخليفة . ثم يخرج أحد الأستاذين المحنكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يرد عليكم السلام ، ويقرأ القراء ويخطب الخطباء بترتيب معلوم ، فإذا انتهى الحفل أخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام كما تقدم ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس(١) .

وكان الاحتفال المحزن بيوم عاشوراء ، أو مأتم عاشوراء يقام بالجامع الأزهر قبل إنشاء المشهد الحسينى فى سنة ٥٤٩ هـ ؛ وكان هذا الحفل من أغرب المظاهر المذهبية التى رتبتها الدولة الفاطمية لإحياء ذكرى الحسين . ففى العاشر من المحرم يحتجب الخليفة عن الناس ؛ وفى الضحى يركب قاضى القضاة والشهود ، وقد ارتدوا ثياب الحداد ، الى الجامع الأزهر (أو المشهد الحسينى فيما بعد) فى حفل من الأمراء والأعيان وقراء الحضرة والعلماء ، ثم يأتى الوزير فيتبوأ صدر المجلس ، ويجلس إلى جانبيه قاضى القضاة وداعى الدعاة ، والقراء يتلون القرآن ، ثم ينشد قوم من الشعراء أشعاراً فى رثاء الحسن والحسين وآل البيت ، ويضج الحضور بالبكاء والعويل ؛ ثم ينصرف الوزير إلى داره ، ويُستدعى القوم إلى القصر وقد فرشت أروقته بالحصر بدل البسط ، فيجدون صاحب الباب فى انتظارهم ، فيجلس القاضى والداعى إلى جانبه ، والناس على اختلاف

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ .

مراتبهم ، ويقرأ القراء وينشد المنشدون على النحو السابق . ثم يمد فى القاعة سماط الحزن عند الظهر ، وليس فيه سوى العدس والألبان والأجبان الساذجة والأعسال النحل والخبز الأسمر ، ويدخل من شاء لتناول الطعام ؛ فإذا انتهى القوم انصرفوا إلى دورهم . ويعم الحزن والنواح القاهرة فى ذلك اليوم ، وتعطل الأسواق ، ويعتكف الناس حتى العصر ، ثم تفتح الأسواق وتسترد العاصمة شيئاً من نشاطها ومظهرها العادى(١) .

وفى ليالى الوقود الأربع ، وهى ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، كان الخليفة يقصد مساء إلى منظرة الجامع الأزهر ، وكانت بجواره من الجهة القبلية وتشرف عليه ؛ ويجلس الخليفة فى هذه المنظرة ومعه حرمه وذلك لمشاهدة الزينات المضيئة والاحتفالات الفخمة التى كانت تقام فى تلك الليالى الشهيرة(٢) . وإليك كيف يصف لنا المسبّحى بعض هذه الليالى . قال فى حوادث شهر رجب سنة ٣٨٠ هـ « وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجمع وليلة النصف إلى جامع القاهرة (يعنى الجامع الأزهر) عوضاً عن

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩١ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ١٨١ و ٣٤٥ .

القرافة ، وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع ، وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة ؛ والأطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها ، وحضر القاضى محمد بن النعمان ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد ، وقدمت إليه سلال الحلوى والطعام ، وجلس بين يديه القراء وغيرهم والمنشدون والناحة ، وأقام إلى نصف الليل ، وانصرف إلى داره بعد أن قدم إلى من معه أطعمة من عنده وبخرهم » . وقال فى حوادث شعبان من نفس السنة « وفى ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد ، ووقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ، ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء ، وحمل إليهم العزيز بالله الأطعمة والحلوى ، والبخور فكان جمعاً عظيما »[١] .

وهكذا كانت ليالى الوقود من المناسبات العامة التى يتبوأ فيها الجامع الأزهر مكانة خاصة ، فيخرج الناس إليه من كل فج ، ويبدو فيها المسجد الشهير كأنه شعلة من النور ، وتضاء فى جوانبه وعلى حافاته المشاعل والوقدات الساطعة ، ويعقد

---

(١) المقريزى عن المسبحى – الخطط ج ٢ ص ٣٤٥

فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برياسة قاضى القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم بسلال من الأطعمة والحلوى الفاخرة ، وتضاء جميع المساجد الأخرى وتبدو العاصمة الفاطمية كلها فى حلل بديعة من الأنوار الساطعة .

هذا وقد وصف لنا مؤرخو الدولة الفاطمية أيضاً الموكب الرسمى الذى كان ينظم فى ليالى الوقود ، عقب الغروب ، ويتقدمه القاضى ، ومن حوله القراء والمؤذنون ويسيرون على ضوء المشاعل والشموع الساطعة إلى القصر ، ثم ينتظمون فى ميدان بين القصرين تجاه باب الزمرد ، أحد أبواب القصر الغربية ، وينتظرون هنالك حتى يطل عليهم الخليفة ويحييهم من إحدى طاقات المنظرة الخلافية[1] .

كذلك كان الجامع الأزهر أيام المعز والعزيز والحاكم ، مركزاً لمجالس الحكمة الفاطمية . وكانت هذه المجالس الشهيرة التى رتبتها الخلافة الفاطمية لبث دعوتها وتوطيد إمامتها ، تتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت والتفقه فيها ؛ وكان يقوم بإلقاء هذه الدروس المذهبية أيام المعز بنو النعمان وهم أسرة مغربية نابهة قدمت فى ركاب الخليفة الفاطمى ، وتولت قضاء مصر زهاء نصف قرن . وكانت مجالس الحكمة تعقد

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٤٦ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

أحيانا فى القصر وأحياناً فى الجامع الأزهر ، ويشترك فى إلقائها بعض كبراء الدولة مثل الوزير ابن كلّس وزير المعز ثم ولده العزيز ؛ ثم عهد بعد ذلك إلى داعى الدعاة بالإشراف على تنظيم هذه الدعوة وبثها ، ووضعت لها نظم ورسوم خاصة ، وأحيطت مجالس الحكمة يومئذ بشىء من التحفظ ، واستحالت إلى نوع من الدعوة السرية تلقى فى الخاصة قبل كل شىء ، وتعقد مجالسها فى القصر ؛ وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر . وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعاً بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ؛ وكانت الدعوة تنظم طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان فلا يتلقى الكافة سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا[١] .

ولسنا نعرف أية مناسبة أخرى غير مجالس الحكمة الفاطمية يمثل فيها النساء فى الجامع الأزهر فى ذلك العصر لشهود نوع من القراءة والدرس ؛ بيد أنه يوجد ما يدل على أن النساء كن يظهرن أحياناً فى بعض العصور المتأخرة فى حلقات الأزهر الدراسية ؛ وقد كان من هؤلاء أم زينب ، فاطمة بنت عباس

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ . وراجع كتابى الحاكم بأمر الله ص ١٦١ — ١٦٣ .

المعروفة بالبغدادية ، التى توفيت سنة ٧١٤ هـ ، وكانت فقيهة وافرة العلم وانتفع بعلمها كثير من نساء مصر ودمشق[١] ؛ وذكر الجبرتى أيضاً ما يفيد أنه كان ثمة سيدة فقيهة عمياء تحضر دروس الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى[٢] ، وتلك أمثلة نادرة .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٩٤ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) ورد ذلك فى ترجمة الشيخ عبد الله الشرقاوى فى حوادث سنة ١٢٢٧ هـ (ج ٤ ص ١٧٢) .

الكتاب الثاني

الجامع الأزهر
منذ عصور السلاطين
حتى العصر الحاضر

الفصل الأول

الأزهر فى عصور السلاطين

سقوط الدولة الفاطمية . تعطيل خطبة الجمعة بالأزهر وإعادتها فى عهد الظاهر بيبرس . قيام المدارس فى مصر ومنافستها للأزهر . الأزهر فى القرن التاسع الهجرى . زعامته الثقافية فى ظل السلاطين . الأزهر وتطور الأساليب الجامعية .

لبث الجامع الأزهر فى ظل الدولة الفاطمية زهاء قرنين يتمتع بالرعاية الرسمية كمسجد للدولة ، وصفته الجامعية كمعهد للقراءة والدرس ؛ فلما انهارت دعائم الدولة الفاطمية أيام العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين ، وتولى صلاح الدين وزارة العاضد باسم الملك الناصر واستأثر بالأمر ، عمد الى إزالة شعائر الدولة الفاطمية وكل رسومها وآثارها المذهبية ؛ فقطع اسم العاضد من الخطبة ودعا للخليفة العباسى ؛ وأبطل من الأذان : « حى على خير العمل » وعزل قضاة الشيعة ، وعين فى منصب قاضى القضاة قاضياً شافعياً هو صدر الدين عبد الملك ابن درباس ، وجعل له نوابا من القضاة الشافعية ، فكان ذلك إيذاناً بانتشار مذهب الشافعى فى مصر : وأفتى ابن درباس

وفقاً لرأى الشافعى بأنه لا يجوز إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد ، فأبطل إقامة الجمعة بالجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى بحجة أنه أوسع رحابا . وقد كان الجامع الحاكمى أيضاً من المساجد الفاطمية ، وكان فى وقت ما يتمتع إلى جانب الأزهر بالصفة الرسمية . ولكن الأزهر كان منذ البداية مسجد الدولة ومنبرها الرسمى ، وكان يستأثر معظم الوقت بالصفة المذهبية ، وكان حرمانه من إقامة الجمعة يرجع بلا ريب إلى هذه الصفة الخاصة .

على أن قطع صلاة الجمعة من الجامع الأزهر على هذا النحو لم يبطل صفته الجامعية ، فقد لبث محتفظا بصفة كمعهد للدرس والقراءة ، ومع أنه لم يكن يحظى فى هذا العصر بكثير من الرعاية الرسمية ، فإنه مع ذلك لبث محتفظا بكثير من هيبته العلمية القديمة ؛ فنراه مقصد علماء بارزين مثل عبد اللطيف البغدادى الذى وفد على مصر فى سنة ٥٨٩ ﻫ أيام الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين ، وتولى التدريس بالأزهر بضعة أعوام حتى وفاة الملك العزيز فى سنة ٥٩٥ ﻫ[١] ، وكان يلقى دروسه فى الكلام والبيان والمنطق ؛ وربما ألقى فى نفس الوقت بعض دروسه الطبية فى حلقات خاصة . وهنالك ما يدل أيضاً

---

(١) راجع كتاب « الإفادة والاعتبار » (القاهرة ١٢٨٦ ﻫ) ص — ح .

على أن العلامة والطبيب اليهودى موسى بن ميمون ، الذى وفد على مصر فى هـــذا الوقت ، وخدم طبيباً للخاص فى بلاط السلطان صلاح الدين ، كان أيضاً يلقى بالأزهر بعض دروسه فى الرياضة والفلك ، وربما فى الطب أيضاً . وقد اتصل به يومئذ عبد اللطيف البغدادى ، ودرس عليه ، حسبما يحدثنا بذلك فى كتابه عن أحوال مصر فى هذا العصر[١] .

ونراه فى أواخر العصر الأيوبى ، وأوائل القرن السابع الهجرى ، مسرحاً لنشاط جمهرة من أعلام هذا العصر ؛ فمنهم العلامة والشاعر الصوفى المصرى الفذ الشيخ شرف الدين عمر ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وقد لبث حيناً يقيم بالجامع الأزهر ، ويعقد فيه حلقاته الصوفية والروحية[٢] . ومنهم الشيخ أبو القاسم المنفلوطى ، والشيخ شمس الدين الأتابكى ، والمحـــدث سعد الدين الحارثى الحنبلى ، والشيخ جمال الدين الأسيوطى ، والشيخ شهاب الدين السهروردى[٣] ، وكان منهم أيضاً العلامة المؤرخ شمس الدين بن خلّكان صاحب « وفيات الأعيان » المتوفى ســـنة ٦٨٠ هـ ؛ وقد وفد على القاهرة فى

---

(١) الإفادة والاعتبار ص — ح .

(٢) ابن إياس فى بدائع الزهور ج ١ ص ٨٣ .

(٣) ابن إياس ج ١ ص ٨٢ .

سنة ٦٣٧ هـ ، وأقام بها حيناً ، وألقى دروسه بالجامع الأزهر[١] .

ولبثت إقامة الجمعة معطلة بالجامع الأزهر نحو مائة عام من سنة ٥٦٧ هـ إلى سنة ٦٦٥ هـ فى عصر الملك الظاهر بيبرس ؛ ففى تلك السنة سعى الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى إعادة صلاة الجمعة إلى الأزهر . وكان الأمير يقيم فى قصره المجاور للأزهر من الجهة الغربية البحرية فى المكان الذى أقيمت فيه المدرسة الأقبغاوية فيما بعد : وقد رأى تقرباً إلى الله أن يعمل على تجديد عمارته وإحياء مآثره ؛ فسعى لدى السلطان فى ذلك ، وتبرع إلى جانب ما قرره السلطان بجملة كبيرة من المال ، وقام على تجديد الأزهر وعمارته وتجميله وتأثيثه ، وأنشأ فيه مقصورة ومنبراً جديدين ، ورتب فيه درساً لقراءة الفقه الشافعى ، واسترد له كثيراً من أوقافه المغصوبة بأيدى الناس . ثم سعى إلى إعادة الجمعة فيه باستفتاء علماء العصر فأفتى بعضهم بجوازها ، وأفتى بالمنع قاضى القضاة ، وهو يومئذ تاج الدين ابن بنت الأعز وغيره ، وأصر على فتواه رغم تدخل السلطان ، فعمل الأمير أيدمر بفتوى المجيزين ، وأقيمت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر يوم الجمعة ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ (نوفمبر ١٢٦٧) فى حفل من الأمراء

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥٨ .

والأكابر ؛ ولم يحضر السلطان ولا قاضى القضاة ولكنه كان مع ذلك يوماً مشهوداً استعاد فيه الأزهر مركزه الدينى القديم[١] ؛

وفى عهد الدولة الأيوبية بدئ بإنشاء المدارس فى مصر ، واقتدى السلطان صلاح الدين فى ذلك بما فعله الملك العادل نور الدين زنكى فى الشأم ، من إقامة المدارس فى دمشق وحلب ؛ وكانت أول مدرسة أقيمت بمصر على هـذا النحو المدرسة الناصرية التى أنشأها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ بجوار المسجد الجامع (جامع عمرو) لتدريس الفقه الشافعى . وفى نفس العام أنشأ السلطان على مقربة منها مدرسة لتدريس الفقه المالكى ، عرفت بالمدرسة القمحية نظراً لما كان يفرق فى طلابها من قمح تغله ضيعتها بالفيوم ، وهى المدرسة التى تولى التدريس فيها فيما بعد المؤرخ الفليسوف ابن خلدون . وفى سنة ٥٧٢ هـ ، أنشأ صلاح الدين المدرسة الصلاحية بجوار ضريح الإمام الشافعى ، وهى التى غدت فيما بعد أهم المدارس المصرية ، وتعاقب فى التدريس فيها عدد من أشهر علماء مصر . ثم توالى إنشاء المدارس فى مصر والقاهرة على أيدى السلاطين والأمراء والكبراء ، وكثر عددها فى القرنين السابع والثامن كثرة ظاهرة ،

---

(١) السلوك فى معرفة دول الملوك للمقريزى ج ١ ص ٥٥٦ و ٥٥٧ ، والخطط ج ٤ ص ٥٢ و ٥٣ .

فكان منها قبة بيبرس ، والمؤيدية ، والبرقوقية ، والشيخونية والصرغتمشية ، والمنصورية ، والظاهرية ، ومدرسة السلطان حسن ، ومدرسة قايتباى ، وغيرها . وكان إنشاء هذه المدارس يجرى فى الغالب على قاعدة التخصص ، فبعضها ينشأ للشافعية والبعض الآخر للحنفية أو المالكية أو الحنابلة ، وينشأ البعض لتدريس الفقه أو الحديث أو علوم القرآن ، وقليل منها ينشأ على قاعدة التعميم كالمدرسة الصالحية التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين سنة ٦٤١ هـ ، ورتب فيها دروساً للطلاب من المذاهب الأربعة . وكمدرسة (أو جامع) السلطان حسن الشهيرة التى أنشئت على نفس القاعدة ، وفتحت لطلاب المذاهب المختلفة .

وهذا كله عدا الحلقات الدراسية التى لبثت قائمة بالجوامع والمشاهد ، فى جامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الحاكمى ، وفى ضريح الإمام الشافعى ، والمشهد الحسينى ، والمشهد النفيسى وغيرها .

وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن ، أثر كبير فى سير الدراسة بالجامع الأزهر ؛ فقد نافسته منافسة شديدة ، واجتذبت إليها الطلاب من كل صوب ، كما اجتذبت إليها أعلام الأساتذة . وكانت تمتاز على الأزهر بجدتها

ووفرة أوقافها ، واستئثارها برعاية السلاطين والكبراء من منشئيها ومن إليهم ؛ وكانت مناصب التدريس فيها مغرية تدر على شاغلها الجزاء الحسن ، فكان يؤثرها أعلام الأساتذة ويتنافسون فى الفوز بها ؛ ومع ذلك ، وبالرغم من هذه المنافسة القوية ، فإن الأزهر كان دائماً يضم من الطلاب العدد الجم نظراً لاتساع مجال الدراسة فيه وتنوعها ، إذ كان مفتوحاً للطلاب من كل مذهب ، وتدرس به سائر العلوم الدينية واللغوية ، وهو مالم يكن ميسوراً فى مدارس أنشئت على قاعدة التخصص ، وكان يقوم على تثقيف هذه الجمهرة الكبيرة من الطلاب عدد كبير من الأساتذة . ومن جهة أخرى فقد كان الأزهر مقصد الطلاب الغرباء من كل صوب ، وكان يقطن فى أروقته منهم عدد كبير ، وقد بلغ عددهم فى أوائل القرن الثامن حسبما يحدثنا المقريزى زهاء سبعمائة وخمسين طالباً (١) .

وإذا كنا لا نجد فى تاريخ الأزهر فى تلك الفترة ، كثيراً من أعلام الأساتذة الذين تولوا التدريس فيه ، فذلك لأن معظمهم كان منصرفاً إلى التدريس فى المدارس ذات الأوقاف والجرايات الثابتة ؛ وكانت مدارس مثل الصلاحية والناصرية والكاملية وقبة

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

الشافعى والمشهد الحسينى والشيخونية والبرقوقيــة والمؤيدية والأشرفية والظاهرية وجامع الحاكم ، والجامع الطولونى وغيرها ، هى المفضلة ، وهى التى تستأثر بجهود معظم العلماء البارزين فى هذا العصر ، الذى تألقت فيه هذه المدارس المصرية من حول الأزهر ، وشاركته مشاركة قوية فى تأدية رسالته العلمية .

وقد انتهت إلينا أسماء بعض أكابر العلماء الذين كانوا يتولون التدريس بالجامع الأزهر فى أوائل القرن الثامن الهجرى ؛ فمنهم فى فاتحة هــذا القرن الإمام على بن يوسف بن جرير اللخمى الشنطوفى شيخ الإقراء فى عصره ؛ تصدر للإقراء بالأزهر ، وأقبل عليه الطلاب اقبالا عظيما ، فذاع صيته فى أنحاء العالم الإسلامى[(١)] ؛ ومنهم عدة ذكرهم لنا الرحالة ابن بطوطة الذى وفد على مصر ســنة ٧٢٦ هـ ، وزار الجامع الأزهر ، وتعرف بعلمائه ؛ وهو يشيد بذكر بعضهم ، ومنهم قوام الدين الكرمانى ، وكان يسكن بأعلى سطح الجامع ، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ؛ وشمس الدين الإصبهانى « إمام الدنيا فى المعقولات » ، وشرف الدين الزواوى المالكى[(٢)] .

وكان بمصر فى هذا الوقت بالذات العلامة ، الأندلسى

---

(١) السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ص ٢٥

اللغوى النحوى الكبير ، محمد بن يوسف بن حيان النفزى الغرناطى ، يلقى دروسه بالجامع الأزهر ، وكان من تلاميذه العلامة والفقيه المصرى تقى الدين أبو الحسن السبكى ؛ ويشيد البلوى فى رحلته بعبقرية العلامة الغرناطى ، وسمعته العلمية الواسعة بين تلاميذه المصريين[١] .

ونستطيع أن نذكر من الأساتذة الذين تولوا التدريس بالأزهر فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى ، قنبر بن عبد الله الشروانى ، وكان عالماً فيلسوفاً يدرس العلوم العقلية مثل المنطق والحكمة والهيئة ، وكان مقيما بالجامع الأزهر نفسه[٢] . وابن الدمامينى إمام النحو فى عصره[٣] ؛ والفخر البلبيسى الضرير أستاذ القراءات وإمام الأزهر ، والمؤرخ تقى الدين المقريزى ، والعلامة الحافظ ابن حجر العسقلانى ، وقد تولى خطابة الأزهر فى أواخر حياته مدى حين[٤] .

ثم أنه يوجد مع ذلك فى أنباء العصر ما يدل على أن الأزهر

---

(١) رحلة البلوى المسماة « تاج المفرق » (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٢ تاريخ)

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٦٢

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٨ ، وقد توفى ابن الدمامينى سنة ٨٢٧ هـ .

(٤) راجع التبر المسبوك للسخاوى ص ١٣١ و ٢٣١ .

كان خلال هذه الحقبة يحتفظ بمكانته الخاصة ؛ يعاونه فى ذلك اتساع حلقاته وأروقته ، وتنوع دراساته ، وهيبته القديمة ، وما يلاقيه الطلاب من أسباب التيسير فى الدراسة وأحياناً فى الإقامة . وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع أى مذ عفت معاهد بغداد وقرطبة ، كعبة الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وغدا أعظم مركز للدراسات الإسلامية العامة .

ويعرض لنا العلامة المستشرق الدكتور فولرز أسباب هذا التفوق فى قوله : « ومنذ عدة قرون ، يتفوق الأزهر كمعهد للدرس على جميع معاهد العالم الإسلامى ، ومن أسباب هـــذا التفوق ، عيث المغول وتخريباتهم فى البلاد الخارجة عن مصر ، والقضاء على الحضارة الأندلسية ؛ ويجب أن نضيف إلى ذلك ، موقع الجامع المتوسط ، وقربه من الحجاز ، وصبغته العربية المحضة ، وأهمية البلاد الإقتصادية ، والقارة الإفريقية العظمى التى تمتد فيما وراء مصر ، وأخيراً — وهو اعتبار له خطره — الازدهار العقلى القديم الذى ترك فى وادى النيل كثيراً من البذر الصالح لتقدم العلوم والآداب »[١]

ومنذ القرن الثامن الهجرى يتبوأ الأزهر فى مصر وفى العالم

---

(١) راجع مقال الدكتور كارل فولرز عن « الأزهر » فى :
Encyc. de l'Islam

الإسلامى نوعاً من الزعامة الفكرية والثقافية . وفى أنباء هذا القرن ما يدل على أن الأزهر كان يتمتع فى ظل دولة السلاطين برعاية خاصة ، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ، ويشغلون وظائف القضاء العليا ، ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد . وكان هذا النفوذ يصل أحياناً فى هذا العصر ، إلى التأثير فى سياسة الدولة العليا ، وأحياناً فى مصاير العرش والسلطان .

* * *

ومما تجب ملاحظته أن الأزهر كان فى تلك الفترة ، جامعة حقة ، تغلب فيه الصفة الدراسية على أية صفة أخرى . بيد أنه بالرغم من هذه الصفة العلمية الحرة ، كان ما يزال دائماً ، وقبل كل شىء ، جامعة إسلامية ، تغلب الصفة الدينية على برامجه وحلقاته ؛ وليس فى تاريخ الأزهر فى تلك الفترة ، ما يدل على أنه ، ما خلا علوم اللغة ، كانت تدرس به علوم مدنية ذات شأن ، سوى المنطق وقليل من العلوم الرياضية .

وهذه خاصة لم يكن ينفرد بها الأزهر فى العصور الوسطى ؛ ذلك أن الحركة العقلية كانت خلال هذه العصور ترتبط فى جميع الأمم بالدين أشد ارتباط ؛ وكانت الأديرة مراكز الدراسة فى أوربا والأحبار هم قادة الفكر . بيد أنه لما تقدمت الحركة الفكرية ، وتسربت النظريات الفلسفية إلى تعاليم الكنيسة أخذت

سيطرة الدين على حركة التعليم تضعف شيئاً فشيئاً .

ولم تلبث الجامعة الأوربية أن نشأت منذ القرن الثانى عشر ثم أخذت تقوى ويشتد ساعدها وتسير نحو استقلالها ؛ واضطرت الكنيسة أن تناصر هذا الاستقلال الجامعى ، طالما كان بعيداً عن الاصطدام بتعاليمها وتقاليدها ، وذلك خوفاً من أن يقع التعليم تحت سيطرة أمير أو حاكم مطلق يوجهه نحو خصومتها . ولم يأت ختام العصور الوسطى حتى كانت الجامعة الأوربية قد حققت استقلالها العلمى ، وأخذت تسير نحو النور والحقيقة ، بعيدة عن المؤثرات الدينية والسياسية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وقد كان التعليم الجامعى يميل منذ البداية نحو التخصص ، وكانت الدراسة تجرى تقريباً على نفس الأساليب التى كانت تتبع بالأزهر وباقى المعاهد الإسلامية من الاستيعاب والتخصص ؛ مثال ذلك جامعة بولونيا التى اشتهرت فى القرن الثانى عشر بتوفر أساتذتها وطلبتها على دراسة القانون الرومانى ووضع حواشيه الشهيرة .

غير أنه يلاحظ أن الجامعة الأوربية استطاعت أن تتحرر غير بعيد من روح العصور الوسطى وكل مؤثراتها ، وأن تسير بخطى سريعة نحو تحديد مهمتها العلمية . هذا بينما بقى الأزهر مدى الأحقاب ، وبالرغم من تطور العلوم وأساليب التفكير ، محتفظاً

بصبغته الدينية العميقة ، مشبعاً فى كثير من نظمه وأساليبه بروح العصر القديم ؟

يقول الدكتور فولرز : « إذا كان العمل العلمى والتعليم فى الأزهر ، يختلف اليوم اختلافاً جوهرياً عن الأساليب المتبعة اليوم فى الغرب ، فإنه يذكرنا بالضبط بالأساليب التى كانت تستعمل فى العصور القديمة من تاريخنا : ذلك أن الضغط المذهبى الذى تحدثه علوم الدين ، والذى انتهى لدينا منذ عصور إلى طريق التحلل ، ما زال يحتفظ بكل صرامته ودون هوادة فى الحياة الجامعية الإسلامية . وغاية العلم ، لا تتضمن بالنسبة للمتعلمين بالأزهر ، عمل بحوث وتحقيقات ومقارنات وتصحيحات ، ولا تتضمن إلا أن ينقلوا بإخلاص ما تركه السلف »(١) .

والواقع أن الجامعة الأوربية لم تُخرج العلوم الدينية من حظيرتها ؛ ففى معظم الجامعات الأوربية كليات أو معاهد خاصة لدراسة العلوم الدينية وتخريج رجال الدين ؛ ولكنها تجرى فى دراستها على أساليب عصرية ، وتعنى فى نفس الوقت بتدريس العلوم المدنية عناية تامة ، حتى أن رجل الدين المتخرج فيها لا يقل فى ثقافته المدنية والعصرية ، عن زملائه المتخرجين فى الكليات

---

(١) فى مقاله المشار إليه عن « الأزهر » فى Encyc. de l'Islam

الأخرى . وكثيراً ما نرى رجال الدين فى الأمم الأوربية بين قادة الفكر الممتازين وهم يأخذون فعلا فى قيادة التفكير بنصيب بارز ، ومنهم علماء أعلام فى مختلف العلوم والفنون .

وإذا كان الأزهر القديم قد استحال اليوم إلى جامعة أزهرية ذات كليات وشعب مختلفة ، وأدخل فى مناهجها كثير من العلوم « المدنية » ، وإذا كانت الجامعة الأزهرية تأخذ اليوم ببعض الأساليب العصرية فى شىء من التحفظ ، فإن ذلك لا يمكن أن يغير شيئاً من تلك الحقيقة ، وهى أن الأزهر ما يزال بالرغم من هذه المظاهر الشكلية متأثراً فى مناهجه ، وفى طرائقه وفى تفكيره ، بأساليب العصور الوسطى ، ومن الصعب على الباحث أن يشعر ، بأنه قد أحرز كثيراً من التقدم ، فى سبيل التحرر من هذه الأساليب القديمة .

الفصل الثانى

عصر الأزهر الذهبى

ذروة النهضة الأدبية ، الأزهر ومكانته الممتازة . ابن خلدون يحاضر بالأزهر . عصر الأزهر الذهبى . مناصب التدريس والتصدير . الإجازات العلمية . كتب الدراسة

كان القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) بالنسبة لمصر الإسلامية ، عصر الذروة وعصر الانهيار معاً ؛ ففيه بلغت مصر ، وبلغت المدنية المصرية ، فى ظل دول السلاطين ، أقصى مراحل التقدم والازدهار ، وبلغت حركة التفكير المصرية ، منذ أواخر القرن الثامن ، ذروة النضج والازدهار ، واستمرت على قوتها طوال القرن التاسع ، وحفلت مصر فى تلك الحقبة الطويلة بجمهرة من أعظم علمائها وكتابها ، مثل الحافظ ابن حجر العسقلانى ، وأبى العباس القلقشندى صاحب الموسوعة الدبلوماسية الكبرى المسماة « صبح الأعشى » ، ومؤرخ مصر الكبير تقى الدين المقريزى صاحب « الخطط » الشهيرة ، وابن تغرى بردى صاحب « النجوم الزاهرة » ، وبدر الدين العينى ، وسراج الدين البلقينى ، وشرف الدين المناوى ، وشمس الدين السخاوى

صاحب « الضوء اللامع » ، وجلال الدين السيوطى[1] وغيرهم ، من أقطاب التفكير والكتابة فى هذا العصر .

كان يبدو كأن مصر قد غدت فى هذا العصر ، بقواها ومواردها الزاخرة ، ومدنيتها ورخائها ، قوة لا تقهر ، وأنها بأزهرها ، ومدارسها ومعاهدها العديدة ، وعلمائها الأعلام ، سوف تمضى قُدُماً ، فى زعامتها الأدبية للعالم الإسلامى ، وهى الزعامة التى استأثرت بها ، منذ سقوط بغداد فى المشرق ، وتصدع الأندلس فى المغرب ، وسقوط قواعدها التالدة فى أيدى الإسبان ، وانطفاء مصابيح الثقافة الأندلسية فى الغرب الإسلامى .

وهى قد لبثت كذلك بالفعل ، طوال القرن التاسع الهجرى . وكانت هذه الجمهرة العظيمة ، من العلماء والكتاب ، وكان هذا الإنتاج الفكرى الضخم ، فى مختلف نواحى العلوم الإسلامية والعربية ، وهو الذى انتهى إلينا منه الكثير ، من المؤلفات والموسوعات العظيمة : كان ذلك كله عنوان نهضة فكرية عظيمة . وكان الجامع الأزهر يومئذ ، يحتل مكانته الأولى بين الجوامع والمعاهد العديدة . وبالرغم

---

(١) توفى الحافظ بن حجر سنة ٨٥٢ هـ ، والقلقشندى سنة ٨٢١ هـ ، والمقريزى سنة ٨٤٥ هـ ، وابن تغرى بردى سنة ٨٧٤ هـ ، والعينى سنة ٨٥٥ هـ ، والبلقينى سنة ٨٦٨ هـ ، والمناوى سنة ٨٧١ هـ ، والسخاوى سنة ٩٠٢ هـ ، والسيوطى سنة ٩١١ هـ .

من أن القاهرة كانت يومئذ ، تحفل بطائفة كبيرة من المدارس التى سبق ذكرها ، والتى رسخت مكانتها العلمية بانتظامها ، وتولى أكابر العلماء والأساتذة كراسى التدريس بها ، فإنها كانت تعتبر بالنسبة للأزهر ، كالأفرع الصغيرة من الدوحة العظيمة . كان الأزهر فى تلك الحقبة فى الواقع ، هو المدرسة الأم ، وهو الجامعة الإسلامية الكبرى ، التى لا تنافسها أية جامعة أخرى .

وكان أكابر العلماء ، بالرغم من إقبالهم على تولى وظائف التدريس فى المدارس ، نظراً لما تدره من المرتبات الوفيرة ، والمزايا العديدة ، يتطلعون دائما ، إلى شرف الجلوس والتدريس بالأزهر ، لما يقترن بذلك من هيبة علمية رفيعة . والواقع أننا منذ أواخر القرن الثامن ، قلما نجد عالما أو أستاذا ، من أعلام الدين أو اللغة ، لم يأخذ مجلسه بالجامع الأزهر ، سواء بصفة منتظمة أو عارضة . وكذلك كان الأزهر دائما مقصد سائر العلماء الوافدين على مصر من الشرق أو الغرب ، يؤمونه دائما عقب وصولهم ويتصدرون حلقاته .

وكان من أشهر العلماء ، الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر ، واشتركوا فى حلقات الأزهر بقسط بارز ، العلامة الفيلسوف المؤرخ ولى الدين ابن خلدون . وهو يشير إلى ذلك

فى التعريف بقوله : « وانثال على طلبة العلم بها (أى بالقاهرة) يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر بها »[١] . وكان جلوس ابن خلدون بالجامع الأزهر حادثا علميا ذا شأن ، نوهت به جميع الروايات المصرية المعاصرة واللاحقة ؛ ودرس عليه يومئذ جماعة من أكابر العلماء المصريين مثل ابن حجر ، والقلقشندى ، والمقريزى ؛ وبالرغم من أن المؤرخ عُين للتدريس يومئذ فى المدرسة القمحية ، وأجريت عليه الرواتب المجزية ، فإنه لم يترك دروسه بالأزهر ؛ وقد كان يدرس الحديث والفقه المالكى ، ويشرح للخاصة من تلاميذه ، نظرياته فى العمران والعصبية ، وأسس الملك ، ونشأة الدول ، وغيرها مما عرض إليه فى مقدمته الشهيرة . وقد ترك أثره العميق يومئذ فى التفكير المصرى ، وظهر ذلك فى كتابات تلميذه المقريزى ، حيث تعتبر رسالته « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ثمرة واضحة لنظريات ابن خلدون العمرانية والاقتصادية ؛

ووفد على مصر بعد ابن خلدون ، العلامة المغربى محمد تقى الدين الفاسى ، المتوفى سنة ٨٤٢ هـ ، ودرس كذلك بالجامع الأزهر ، وكان ممن سمع عليه وأخذ عنه العلامة ابن حجر .

---

(١) التعريف بابن خلدون (لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٥١) ص٢٤٨

ونستطيع أن نصف هذا العصر ، بأنه عصر الأزهر الذهبى ، سواء من حيث مكانته العلمية ، أو إنتاجه الفكرى . ذلك أنه لم يجتمع فى عصر سابق ، من تاريخ مصر الإسلامية ، مثل هذه الجمهرة الممتازة ، من العلماء الأعلام فى كل علم وفن . ولم يصدر مثل هذه الثروة الفكرية الضخمة ، التى تمتاز كذلك بتنوعها ، وطرافة الكثير من عناصرها ؛ وقد كان بين أقطابها كثير من علماء الأزهر ، أساتذة وتلاميذ . ولقد امتاز هـذا العصر ، فوق ذلك ، بروحه الأدبية العالية ، وأفقه النقدى الواسع . ويكفى أن نستعرض موسوعة السخاوى الأدبية الكبرى « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » لنرى إلى أى حد ، وصل الافتنان الأدبى والنقدى ، فى التراجم الإسلامية ، فى هذا العصر ، أو أن نستعرض المساجلات الأدبية العنيفة ، التى وقعت بين البِقاعى والسيوطى ، والبقاعى والسخاوى من ناحية ، وبين السيوطى والسخاوى من ناحية أخرى ، لندرك أن هذه المعارك القلمية العنيفة ، التى نشبت بين أولئك الكتاب والعلماء الأعلام ، كانت عنوان نهضة أدبية زاهرة ، من أسطع وأقوى ما عرفت مصر الإسلامية[١] .

• • •

---

(١) نشبت فى أواخر القرن التاسع الهجرى خصومة أدبية عنيفة ، بين السخاوى وبين عدة من أكابر العلماء المعاصرين ، وذلك بسبب ما ورد فى =

وقد أبدى السلاطين فى هذا العصر عناية خاصة برعاية الأزهر ، وتقدير مهمته العلمية العظيمة ، ومكانته الفذة فى العالم الإسلامى ، وشاطرهم الأمراء والكبراء هذه الرعاية وهذا التقدير ؛ فكانت الأحباس والهبات الثابتة ، تتوالى على الجامع وطلبته من جانب هؤلاء وهؤلاء ؛ وكان من أشدهم حماسة فى ذلك السلطان الأشرف قايتباى المحمودى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ) (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) ، فقد كان حامى الأزهر وراعيه بحق ، وقد قام بتجديده وإصلاحه ، وأنشأ به المنارة المسماة باسمه حسبما تقدم ، وأنشأ به رباعاً لسكنى الطلاب ، ورصد أحباساً خيرية كثيرة للعلماء والطلاب[1] .

= معجمه الكبير « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » من حملات نقدية لاذعة على كثير من الكتاب والعلماء ؛ وكان فى مقدمة خصومه الذين اشتدوا فى مقارعته ابراهيم بن أبى بكر البقاعى ، المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ، والسيوطى ؛ وقد تبادل كل منهما مع السخاوى حملات ومقالات عنيفة ، تفيض بالقذف والسباب ، وألف السيوطى ضد السخاوى مقامة لاذعة عنوانها « الكاوى فى تاريخ السخاوى » . ورد السخاوى عليه بمقالات ومطاعن ملتهبة . ونشبت مثل هذه الخصومة بين البقاعى والسيوطى ، وحمل كل منهما على الآخر بعنف وشدة . واستمرت هذه الخصومات الأدبية المضطرمة بين السخاوى ومعاصريه أعواماً طويلة ، وكانت من أشهر الحوادث الأدبية فى ذلك العصر .

(١) تاريخ ابن إياس ج ٢ ص ١٦٩

وكانت مناصب التدريس يومئذ بالأزهر ، أو غيره من الجوامع والمدارس الكبرى ، تعتبر — كمنصب القضاء — من المناصب العلمية والدينية الرفيعة ؛ وكان الأستاذ يعين فى منصبه بمرسوم خاص ، تغدق عليه فيه الألقاب العلمية ، ويُسدى إليه النصح ، برعاية مصالح الطلاب «وإعزازهم والاشتمال عليهم» ، وتودع هذه المراسيم بالجامع أو المدرسة ذات الشأن . وكانت صيغ هذه المراسيم تختلف باختلاف المادة التى يسند تدريسها إلى الأستاذ ، من الفقه الشافعى أو الحنفى أو المالكى مثلا ، أو الحديث ، أو التفسير ، أو اللغة ، أو النحو ، أو غير ذلك ، وتختلف كذلك صيغ النصائح الموجهة إلى الأستاذ صاحب الشأن[١] .

وكانت مراسيم التعيين للعلماء ، فى وظائف التدريس أو القضاء ، تقرن بألقاب وصفات متعددة ، اصطُلح عليها فى ذلك العصر ، وهى مقسمة إلى مراتب مثل : « الجناب الشريف » ثم « الجناب الكريم » أو « الجناب العالى » وإلى جانبها ألقاب وصفات مختلفة مثل : «الإمامى ، العالِمى ، الكامِلى ، الأوحدى ، المفيدى ، القدوى ، الحجى ، المحقق . . . » ، « جمال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، أوحد الفضلاء

---

(١) راجع صبح الأعشى (ج ١١ ص ٢٣١ وما بعدها) حيث يورد عدداً من المراسيم المختلفة بتعيين مدرسين فى مختلف المعاهد .

المفيدين ، قدوة البلغاء ، حجة الأمة ، عمدة المحققين ، فخر المدرسين . . . . : الخ »(١) .

وكذلك كان يخص العلماء والقضاة فى تلك العصور ، عصور السلاطين ، فى المخاطبة بطائفة من الألقاب الخاصة ، أرفعها أن يخاطب الأستاذ أو القاضى ، بعبارة « سيد العلماء والحكام » ويليها « أوحد العلماء الأعلام » ثم « الجناب الشريف » أو « شرف العلماء » ونهايتها « جمـال العلماء » أو « أوحد الفضلاء »(٢) .

وكانت وظيفة «التصدير» من أبرز وظائف التدريس يومئذ ، وقد ذكر لنا القلقشندى ، أن التصدير موضوعه « الجلوس بصدر المجلس ، بجامع أو نحوه ، ويجلس متكلم أمامه على كرسى كأنه يقرأ عليه ، يفتتح بالتفسير ثم بالرقائق والوعظيات ، فإذا انتهى كلامه وسكت ، أخذ المتصدر فى الكلام على ما هو فى معنى تفسير الآية التى يقع الكلام عليها ، ويستدرج من ذلك إلى ما سنح منه الكلام » . ويستفاد من بعض المراسيم أن المتصدر ، يقوم عادة بإلقاء دروس فى التفسير ، وتجرى خلال ذلك المناظرة . وكانت وظيفة « المتصدر » من الوظائف القديمة

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ٦ ص ١٥٦ و ١٥٧

(٢) صبح الأعشى ج ٦ ص ١١١

بالجامع الأزهر ، وقد زادت أهميتها على كر العصور ، وكثر تقلدها بالأزهر فى عصور السلاطين[١] .

وكانت الإجازات الدراسية ، من التقاليد العلمية الرفيعة فى ذلك العصر ، وكانت لها قيم أدبية كبيرة ، وكانت تصدر من الأستاذ إلى تلاميذه ، أو الذين سمعوا عليه ، وتكتب فى أساليب خاصـة ، وفيها يُنوه عادة بفضائل الصادرة إليه ، ومقدرته العلمية ، ويذكر فيها ما قرأه من الكتب على أستاذه ، وهى الكتب التى يجيز له أن يقوم هو بتدريسها ؛ وقد تكون هذه الكتب من تأليف الأستاذ الذى صدرت عنه الإجازة ، وقد تكون من كتب غيره ؛ وأحياناً تقتصر الإجازة على الإذن بالتدريس لمادة معينة ، أو مذهب فقهى معين ، والإفتاء به . وكانت الإجازة تكتب أحياناً بإسهاب وإفاضة ، وذلك حسبما يبدو من النماذج التى أوردها لنا القلقشندى ، وأحياناً تصدر عامة موجزة[٢] . وكانت تتخذ فى بعض الأحيان صفة فخرية ، فتصدر من عالم كبير إلى زميله على سبيل الفخر والاعتزاز . ونستطيع أن نمثل لذلك بالاستدعاء الذى قدمه العلامة الحافظ

---

(١) صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٥١ و ٢٥٢

(٢) راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ وما بعدها ، حيث يورد بعض نماذج من الإجازات العلمية ، وقد أوردنا فى نهاية الكتاب بعض فقرات منها .

ابن حجر العسقلانى ، وجماعة من زملائه العلماء المصريين ، إلى العلامة الفيلسوف ابن خلدون ، ليصدر لهم إجازة جماعية ، وقد أصدر لهم ابن خلدون الإجازة الآتية بخطه وتوقيعه، ونصها :

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أجزت لهؤلاء السادة والعلماء القادة ، أهل التحصيل والإفادة ، والفضل والإجازة ، والإبداء فى الكمال والإعادة ، جميع ما سألوه ، ورجوه من الإجازة وأملوه ، على شروطه المعتبرة عند العلماء البررة . وأخبرهم أن مولدى فى غرة رمضان عام اثنين وثلاثين وسبع مائة ، والله تعالى ينفعنا وإياهم بالعلم وأهله ، ويجعلنا من سالكى سبله . وكتب بذلك عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمى المالكى فى منتصف شعبان عام سبعة وتسعين وسبعمائة » .

وقد استمرت هذه الإجازات مدى عصور ، تقليداً علميا ذائعا ، وبقيت آثارها حتى العصر الأخير .

ويبدو من مراجعة صيغ الإجازات العلمية التى أوردها لنا القلقشندى ، أن كتب الدراسة بالجامع الأزهر كانت فى عصور السلاطين ، تتضمن الكتب الآتية : كتب الحديث الستة المشهورة ، وهى كتب البخارى ، ومسلم ، وأبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، ومسند أحمد ، والشافعى

وغيرهما . ومنها « عمدة الأحكام » للحافظ عبد الغنى ، و « شذور الذهب » للشيخ جمال الدين بن هشام ، و « جامع الجوامع » و « البدر المنير فى تخريج الأحاديث » ، و « الآثار الواقعة الشرح الكبير » ، للإمام ابن قاسم الرافعى ، « والمنهاج » فى فقه الشافعى من تأليف أبى ذكريا النووى ، و « الأربعين حديثا » للشيخ محيي الدين النووى و « الورقات » فى الأصول ، و « اللمحة البدرية » فى النحو للشيخ أثير الدين أبى حيان الأندلسى ، وغيرها[١] .

وهنالك ما يدل على أن نظام المعيدين ، وهو النظام الجامعى الحديث ، كان معمولا به بالجامع الأزهر والمدارس الكبرى ، منذ العصور الوسطى ؛ فقد كان لكبار الأساتذة ، معيدون من المدرسين الأصاغر ، يلقون الدرس ، أو يلقون ملخصه فى الطلاب عقب انتهاء الأستاذ من إلقائه ، وكان يكتفى أحياناً فى بعض المواد بوجود المعيد دون الأستاذ[٢] ؛ وسنرى فيما بعد أن نظام المعيدين قد استمر بالأزهر حتى العصر الحديث

---

(١) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٤ وما بعدها .

(٢) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٥٧ ، وقد أشار الجبرتى أيضاً فى تاريخه غير مرة إلى النظام المتقدم (راجع ج ٢ ص ٢٦٢) .

كذلك هنالك ما يدل على أن الدراسة فى الجوامع ، كانت فى تلك العصور ، تشمل بعض المواد العلمية المحضة ، مثل الطب ؛ فقد ذكر لنا السيوطى مثلا فى ترجمة شمس الدين ابن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، أنه كان يتولى تدريس الطب بجامع ابن طولون . ونحن نعتقد بالقياس ، أن الطب كان كذلك يدرس بالجامع الأزهر فى مجالس خاصة ، ولو أننا لم نعثر على نص صريح فى ذلك[1] .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٢ .

الفصل الثالث

الأزهر فى العصر التركى

انحلال الدولة المصرية . الغزو العثمانى وآثاره المخربة . الأزهر والعلماء الترك . يغدو حصن اللغة العربية . بعض علماء الأزهر فى العصر التركى . بعض العلماء الوافدين عليه . ضعف الأزهر وانكماشه . خدمته العظمى للدين واللغة . بعض علمائه فى أواخر هذا العهد . بعض الوافدين عليه

كانت هذه المظاهر البراقة ، التى تبدو بها مصر الإسلامية ، فى القرن التاسع الهجرى ، من القوة والتمدن والرخاء ، وتقدم العلوم والفنون والثقافة ، تحجب كثيراً من العوامل الخفية الأخرى ، التى تقضم أسس هذا الصرح الشامخ . وكانت دولة السلاطين العظيمة ، قد شاخت يومئذ ، بعد عصور متعاقبة من القوة والمجد ، وتسربت إليها عوامل الفساد والضعف ، وأخذت تسير نحو الانهيار بخطى سريعة ؛ وتصدع بناء المجتمع المصرى وسرت إليه عوامل الوهن والتفكك . وكان من جراء هذا الانحلال الشامل ، أن اضطربت أحوال المعاهد والمدارس المصرية ، وتضاءلت مواردها ، وفقدت كثيراً مما كانت تتمتع به من رعاية السلاطين والأمراء ، وأصاب الجامع الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى ، من الإعراض والركود واختلال الأحوال .

كان ذلك فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، وكانت تتجمع فى أفق مصر يومئذ ، سحب العاصفة التى توشك أن تنقض عليها ، وكان يرقبها ويشعر بها أولو النظر البعيد من الحاكمين والمفكرين ، الذين وقفوا على مطامع الدولة العثمانية الفتية ، ومشاريعها الغازية للأمم الإسلامية المجاورة ، ولاسيما مصر جارتها الغنية الزاهرة من الجنوب ؛ ولم يمض قليل على ذلك حتى تحققت مخاوفهم ، ووقعت المأساة المروعة ، وسقطت مصر فى موقعة مرج دابق المشئومة صريعة الغزو العثمانى[١] ، وفقدت استقلالها وحرياتها التالدة ، وبدأت عهدا طويلا من التبعية والذلة والاستعباد .

وكان الفتح العثمانى لمصر ، أشنع ضربة أصابت المدنية الإسلامية ، مذ قضى التتار على الدولة العباسية ، فى منتصف القرن السابع الهجرى ، وقوضوا صروح المدنية الإسلامية فى المشرق ؛ وكانت مصر مستودع هذا التراث الباذخ ، ولاسيما بعد أن سقطت قواعد الأندلس المسلمة فى يد اسبانيا النصرانية ، وعفت معاهدها وحضارتها الشهيرة ، وسقطت غرناطة آخر

---

(١) وقعت موقعة مرج دابق ، التى هزمت فيها الجيوش المصرية أمام الغزاة الترك ، وقتل السلطان الغورى ، فى شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ الموافق شهر أغسطس سنة ١٥١٦ م

معاقلها قبل وقوع الفتح العثمانى لمصر بنحو ربع قرن فقط . وكانت المدنية الإسلامية ، تتألق بعلومها وفنونها ، فى ظل دول السلاطين المصرية ، منذ ثلاثة قرون ، فجاء الفتح التركى بويلاته ، ليطفئ هذا السراج المنير ، مدى ثلاثة قرون أخرى .

وكما قضت اسبانيا وديوان التحقيق الإسبانى[1] على حضارة الأندلس وعلومها وفنونها ، وفقا لخطة منظمة ، فكذلك عمل الغزاة الترك ، على تقويض صرح المدنية الإسلامية فى مصر ، عقب الفتح مباشرة . وقضى السلطان سليم فاتح مصر فى القاهرة ، زهاء ثمانية أشهر ، يجمع من تراث مصر وثرواتها الفنية كل ما استطاع ، ويخرب المساجد والآثار الخالدة ، لينتزع منها نفائسها وكنوزها الفنية ، ويبعث بها إلى قسطنطينية ، ويقبض على أكابر مصر وزعمائها وعلمائها ، ورجال المهن والفنون فيها ، ومهرة العمال والصناع ، ويرسلهم جموعاً حاشدة فى السفن إلى قسطنطينية . وقد ذكر لنا ابن إياس مؤرخ الفتح العثمانى ، أسماء عدة كبيرة من العلماء والقضاة المصريين ، الذين قبض عليهم السلطان سليم ، وبعثهم قسراً إلى عاصمته[2] . ولم

---

(١) هو المعروف خطأ بديوان التفتيش (Inquisition)

(٢) يعقد ابن إياس فى تاريخه فصلا خاصا يذكر فيه أسماء مئات من أكابر العلماء المصريين الذين نفاهم السلطان سليم إلى قسطنطينية (راجع بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٩ و ١٢٠ و ١٢١) .

يفت الفاتح أن يضع يده كذلك على تراث مصر العلمى والأدبى ، فأمر بأن تنتزع الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ، وأن تحمل إلى العاصمة التركية . وما زالت توجد من هذا التراث المصرى إلى اليوم ، بقية كبيرة فى مكتبات استانبول ، وفيها مؤلفات خطية لكثير من أعلام القرن التاسع الهجرى المصريين ، مثل المقريزى والسيوطى والسخاوى وابن إياس وغيرهم ، مما يندر وجوده بمصر ذاتها صاحبة هذا التراث العلمى .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية ، فى مصر الإسلامية ، عقب الفتح التركى ، كما انهارت عناصر القوة والحياة فى المجتمع المصرى ، وتضاءل شأن العلوم والآداب ، وانحط معيار الثقافة ، واختفى جيل العلماء والكتاب الأعلام ، الذين حفلت بهم العصور السالفة ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة ، التى أظلتها دول السلاطين المصرية ، سوى آثار دارسة ، يبدو شعاعها الضئيل ، من وقت إلى آخر .

* * *

وأصاب الأزهر ، ما أصاب الحركة الفكرية كلها ، من الانحلال والتدهور ، فاضطربت أحواله ، ونضبت موارده تباعاً ، وانخفض عدد أساتذته وطلابه ، وانكمشت حركة التعليم

كلها ، سواء فى الجوامع أو فى المدارس ، لإهمال النفقة عليها ، وانقطاع مواردها القديمة من الهبات والأوقاف ، ولجأ كثير من العلماء والطلاب إلى أقاصى الصعيد ، بعيداً عن عسف الفاتحين وظلمهم ، وقامت هنالك فى قفط وقوص وغيرهما حركة علمية وأدبية محلية .

على أن الجامع الأزهر ، يقوم عندئذ ، فى ظل هذا الأفق القاتم ، وهذا العسف المطبق ، الذى بسط ظله على مصر كلها ، بأعظم وأسمى مهمة أتيح له ، خلال تاريخه الطويل الحافل ، أن يقوم بها . فقد استطاع خلال المحنة الشاملة ، أن يستبقى شيئاً من مكانته ، وأن يؤثر بماضيه التالد ، وهيبته القديمة ، فى نفوس الغزاة أنفسهم . وقد كان الأزهر قبل الفتح العثمانى ، يتمتع بشهرة علمية ودينية راسخة ، فى البلاد العثمانية ، وقد وفد عليه ودرس فيه ، جمهرة من أكابر العلماء العثمانيين ، مثل شمس الدين الفنارى الذى وفد على مصر فى أواخر القرن الثامن الهجرى ، وكان تلميذاً وزميلا للحافظ ابن حجر ؛ ويعقوب ابن إدريس ، الشهير بقرا يعقوب المتوفى سنة ٨٣٣ هـ ؛ والعلامة الأشهر محيى الدين الكافيجى[1] المتوفى سنة ٨٧٩ هـ ، وقد

---

(١) نسبة إلى متن « الكافية » فى علم النحو ، وذلك لكثرة اشتغاله به وبراعته فى شروحه .

درس ثم تولى التدريس بالجامع الأزهر وغيره من المعاهد ، وكان شيخاً للسيوطى وغيره من الأعلام المصريين ، وكان يدرس المعانى والبيان والمنطق والفلسفة ؛ والمولى أحمد بن إسماعيل الكورانى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، وقد درس الحديث والتفسير ، على ابن حجر وغيره من أقطاب العلماء المصريين ؛ وغير هؤلاء من أعلام الترك ، الذين برعوا فى العلوم العربية والإسلامية ، ونهلوا من تراث مصر العلمى والدينى ، وحملوه إلى بلادهم :

كان للأزهر منذ البداية إذاً ، فى نفوس الغزاة هيبته واحترامه ، فنجد الفاتح التركى يتبرك بالصلاة فيه غير مرة[1] ، ونجد الغزاة يبتعدون عن كل مساس به ، ويحلونه من بين سائر الجوامع والمعاهد مكانة خاصة ، ويحاولون فيما بعد ، استغلال نفوذ علمائه ، كلما حدث اضطراب أو ثورة داخلية . وفى خلال ذلك يغدو الأزهر ملاذاً أخيراً لعلوم الدين واللغة ، ويغدو بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية ، تحتفظ فى أروقته ، بكثير من قوتها وحيويتها ، ويدرأ عنها ، بجهود علمائه وطلابه ، عادية التدهور النهائى ، ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها ، وردها عن التغلغل فى المجتمع المصرى .

---

(١) راجع ابن إياس فى بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٦ و ١٣٢ .

وكان من أعلام الأساتذة الذين تولوا التدريس بالجامع الأزهر ، فى أوائل العهد التركى ، نور الدين على البحيرى المتوفى سنة ٩٤٤ هـ ، والعلامة شهاب الدين ابن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوى المتوفى سنة ٩٥٠هـ ، وشمس الدين الشيشينى القاهرى الشافعى ، والإمام شمس الدين أبو عبد الله العلقمى المتوفى سنة ٩٦٢ هـ ، والإمام شمس الدين الصفدى المقدسى الشافعى المتوفى فى حدود التسعين وتسعمائة وغيرهم[1] .

وكان منهم فى أواسط العصر التركى جمهرة كبيرة ، منهم العلامة أحمد الشوبرى ، وشهاب الدين القليوبى ، وأبو الضياء الشُّبراملّسى ، وشمس الدين البابلى ، وسلطان المزاحى ، وقد ظهروا جميعا فى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى ، ثم العلامة شمس الدين العنانى المتوفى سنة ١٠٩٨ هـ ، وعبد الباقى ابن يوسف الزرقانى المالكى المتوفى سنة ١٠٩٩ هـ ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوى المتوفى سنة ١١٠١ هـ وكان يتصدر للإقراء بالأزهر فى فنون عديدة ، والشيخ محمد الخرشى المالكى شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١١٠١ هـ ،

---

(١) راجع فى تراجم هؤلاء العلماء الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة — مخطوطة بدار الكتب .

والعلامة شمس الدين محمد بن محمد الشهير بالشرنبابلى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ ، ويصفه الجبرتى ، « بشيخ مشايخ الأزهر فى عصره » ، والإمام العلامة إبراهيم بن محمد بن شهاب الدين البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ هـ ، وكان شيخا للجامع الأزهر ، والشيخ حسن بن على بن محمد الجبرتى جد والد الجبرتى المؤرخ ، وقد توفى سنة ١١١٦ هـ ، والعلامة عبد الحى ابن عبد الحق الشرنبلالى المتوفى سنة ١١١٧ هـ ، وكثيرون غيرهم [١] .

وكان الأزهر فى نفس الوقت ، كعهده القديم ، دائما مقصد أكابر العلماء الوافدين على مصر سواء من المشرق أو المغرب ؛ وكان من أشهر من زاره فى أوائل القرن الحادى عشر ، علامة المغرب الكبير شهاب الدين المقّرى ، الذى وفد على مصر فى سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٨ م) ، واستقر بها أعواما طويلة . وكان المقرى خلال إقامته بمصر ، وهى التى استطالت حتى وفاته فى سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣٣ م) يلازم الجلوس والتدريس بالجامع الأزهر ، ويلقى معظم دروسه فى الحديث ، وكانت حلقاته تغص بالعلماء والطلاب من كل صوب ، وكان يُبكى السامعين بخطبه ومواعظه ، وكان يقضى

---

(١) راجع تراجم هؤلاء العلماء فى عجائب الآثار للجبرتى ج ١ ص ٦٧ وما بعدها .

أوقاتا طويلة فى رواق المغاربة ، ينقب ويكتب ، وكان من آثار إقامته بمصر أن كتب كتابيه الشهيرين ، نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، وغيرهما من كتبه المعروفة[١] .

* * *

ووفد على مصر فى فاتحة القرن الثانى عشر (سنة ١١٠٥ هـ) العلامة الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى وزار الجامع الأزهر ودون لنا فى رحلة عن هذه الزيارة ما يأتى :

« ثم ذهبنا ، فدخلنا الجامع الأزهر ، المعمور بالعلماء والصلحاء ، وقراءة القرآن ، ودروس العلم ليلا ونهارا ... ثم اجتمعنا بالعلماء المدرسين هناك ، وحضرنا عندهم فى دروسهم ، وحصلت لنا البركة بمجالستهم ، فطلبوا منا أن نعمل لهم درسا فى الجامع الأزهر ، عاما فى الحديث أو فى شرح العقائد للسعد التفتازانى ، وأقدمت علينا الطلبة والأفاضل بذلك ، فاعتذرنا لهم بأنا مسافرون إلى بلاد الحجاز ... » ثم يصف مغادرته للجامع فى قوله « فقمنا وخرجنا من الجامع ، وقد انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك ، يقبلون يدنا ، ويطلبون منا الدعاء ، مع زيادة الاعتقاد ، فأخذتنا هيبة

---

(١) راجع ذلك فى ترجمة المقرى ، فى « تراجم إسلامية شرقية وأندلسية » لمحمد عبد الله عنان ص ٢٤٥ وما بعدها .

الحال ، فصرنا نبكى وهم يبكون ، وندعو لهم حتى خرجنا من الجامع »[١] .

واستمر الأزهر قائماً بمهمته العلمية التالدة ، لا يلوى على شىء ، والظلمات تتكاثف من حوله ، فى ظل الأحكام والنظم التركية الغاشمة ، ومصباحه الخافت يرتجف فى مهب الريح ، وهو ينكمش ويتضاءل شيئاً فشيئاً ، سواء من حيث موارده ، أو شيوخه وطلابه ، حتى أن طلبته فى أواخر القرن الثانى عشر بلغوا نحو ألف طالب فقط ، بعد أن كانوا آلافاً عدة ، وتضاءل عدد شيوخه على هذا النحو ؛ وأبلغ من ذلك فى الدلالة على ما أصاب الأزهر من التدهور العلمى فى تلك الفترة ، أن الدراسة كانت تقتصر فيــه على العلوم الدينية واللغوية ، وأن العلوم الرياضية لم تكن تدرس به فى أواخر القرن الثانى عشر ؛ وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا كور والى مصر سنة ١١٦٢ ﻫ (١٧٤٨ م) ، وكان من هواة العلوم الرياضية حينما قابله صدور العلماء ، وفى مقدمتهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر ، وأحجموا عن التحدث معه فى العلوم الرياضية ، واعتذروا بأنهم لا يعرفون شيئاً منها ، ونعى الوزير فى حديث

---

(١) رحلة النابلسى المسماة « الحقيقة والمجاز » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

له مع شيخ الجامع أورده لنا الجبرتى ، هذا النقص على علماء مصر ، وهو نقص يدلى بما آلت إليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركى[١] .

ويذكر لنا الجبرتى بهذه المناسبة أن والده الشيخ حسن الجبرتى ، وكان من أكابر علماء الأزهر يومئذ ، قد نال حظوة لدى الوزير المذكور لبراعته فى العلوم الهندسية والرياضية ، وكان يتلقى عليه الدروس ، ويشيد ببراعته ، وأنه أى الوزير قام بتصميم عدة مزاول لتبيان الوقت ، وأهدى إحداها إلى الجامع الأزهر ، وهى ما تزال قائمة فى الناحية الغربية من صحنه إلى يومنا[٢] .

على أن الجامع الأزهر ، بالرغم من كل ما أصابه من التدهور والركود ، لبث حفيظا على أمانته التاريخية الكبرى . وقد استطاع فى تلك الأحقاب المظلمة أن يسدى إلى اللغة العربية ، والعلوم الإسلامية أجل الخدمات . وإذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركى ، ملاذاً لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية ، فأكبر الفضل فى ذلك عائد إلى الأزهر . وقد استطاعت مصر لحسن الطالع بفضل أزهرها ، أن تحمى هذا التراث نحو ثلاثة قرون ، حتى

---

(١) تاريخ الجبرتى ج ١ ص ١٩٣ و ١٩٤ .

(٢) راجع ص ٢٨ من هذا الكتاب .

انتهى العصر التركى بمحنه وظلماته .

وربما كانت هذه المهمة السامية ، التى ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر ، فى تلك الأوقات العصيبة ، من حياة الأمة المصرية ، والعالم الإسلامى بأسره ، هى أعظم ما أدى الأزهر من رسالة ، وأعظم ما وفق لإسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل .

* * *

وقد ورد لنا الجبرتى ، أسماء طائفة كبيرة من العلماء الذين اضطلعوا بمهمة التدريس بالأزهر فى أواخر العهد التركى ، ومنهم العلامة اللغوى الشاعر ، الشيخ حسن البدرى الحجازى المتوفى سنة ١١٣١ هـ ، وكان كاتباً وشاعراً جزلا ، له طريقة بديعة فى الشعر ؛ والعلامة عبد الرؤوف بن عبد اللطيف البشبيشى المتوفى سنة ١١٤٣ هـ ، وكان من أساتذة عصره فى النحو والمعانى ، ويصفه الجبرتى بأنه « خاتمة محقق العلماء » ؛ وأحمد بن عيسى العماوى المالكى ، وكان من علماء الحديث ؛ والشيخ الفقيه محمد ابن أحمد الحنفى المتوفى سنة ١١٧٠ ؛ والشيخ حسن بن على بن أحمد الشافعى الشهير بالمدابغى ، كان من أشهر أساتذة الأزهر فى عصره ، وله حواشى وشروح عديدة ، منها حاشية على جمع الجوامع ، وشرح للأجرومية ، وكثير غيرها ، وقد توفى

سنة ١١٧٠ هـ ؛ والعلامة الفقيه الرياضى ، الشيخ حسين المحلى الشافعى ، وكان وحيد عصره فى الفقه والأصول والعلوم الرياضية ؛ والفقيه المحدث الشيخ أحمد بن الحسن بن عبد الكريم الخالدى الشافعى الشهير بالجوهرى ، المتوفى سنة ١١٨٢ هـ ، وله شروح ورسائل كثيرة ؛ والفقيه الشيخ حسن بن نور الدين المقدسى الحنفى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ ، وكان من أشهر فقهاء المذهب ومدرسيه ، وله فى شرحه مؤلفات قيمة ؛ والعلامة النحوى عيسى بن أحمد بن عيسى الزاوى الشافعى المتوفى أيضاً فى سنة ١١٨٢ هـ ، وكانت حلقته بالأزهر من أشهر الحلقات ، وكان يلقب بالشافعى الصغير لبراعته فى الفقه ؛ والشيخ عبد الرؤوف السجينى الشافعى شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١١٨٢ هـ[1] .

وذكر لنا الجبرتى أيضاً بعض الكتب الأزهرية ، التى كانت تدرس بالأزهر ، خلال القرن الثانى عشر الهجرى ، (الثامن عشر الميلادى) ومنها الأشمونى ، وابن عقيل ، والشيخ خالد وشروحه ، والأزهرية وشروحها ، والشذور ، وكتب التوحيد ، مثل شروح الجوهرة ، والهدهدى ، وشروح السنوسية الكبرى ، والصغرى ، وبعض كتب المنطق والاستعارات والمعانى والبيان ،

---

(١) تراجع تراجم هؤلاء العلماء فى تاريخ الجبرتى (الجزء الأول) فى سنى وفاياتهم .

وهذا عدا كتب الحديث والتفسير التقليدية المعروفة[١] .

وكان من أشهر العلماء الوافدين على مصر وأزهرها فى أواخر القرن الثانى عشر ، العلامة اللغوى الكبير محمد بن عبد الرازق ، الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى شارح القاموس ، وكان من أقطاب عصره فى الحديث والأدب وفقه اللغة . قدم إلى مصر فى سنة ١١٦٧ ﻫ ، وتلقى عن كثير من شيوخ الأزهر فى هذا العصر ، وتلقى عنه الكثيرون من علماء مصر ، ومنهم الجبرتى صاحب التاريخ ، وظهرت مواهبه بنوع خاص فى الحديث واللغة ، وذاع صيته ، وتمكن قدره ونفوذه ، ووضع خلال إقامته بالقاهرة شرحه الشهير للقاموس المسمى « تاج العروس من جواهر القاموس » وتوفى بها سنة ١٢٠٥ ﻫ (١٧٩٠ م) . ويخصص الجبرتى لشيخه الزبيدى ترجمة حافلة ، يشيد فيها بخلاله ومناقبه[٢] .

ووفد على مصر كذلك فى أواخر القرن الثانى عشر ، العلامة المغربى أبو عبد الله محمد بن سودة المرى الفاسى ؛ قدم إليها فى سنة ١١٨٢ ﻫ ، وعقد له درساً حافلا بالجامع الأزهر ، برواق المغاربة ، وكان يلقى دروسه فى الفقه المالكى ، فى جموع حاشدة

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٤٠١

(٢) راجع هذه الترجمة فى الجبرتى ج ٢ ص ٢٠٨ وما بعدها .

من الطلاب والمستمعين . وله مؤلفات عديدة منها حاشية على البخارى ، وحاشية على الزرقانى ، ومؤلفات كثيرة أخرى .

وهنالك ما يدل على أن نظام المعيدين ، الذى كان معروفاً بالأزهر منذ العصور الوسطى ، كان ما يزال قائماً فى هذا العصر ، وكان لكثير من أكابر الأساتذة ، معيدون من المدرسين يقومون بشرح دروسهم[١] . ونحن نعرف أن هذا التقليد القديم ، مازال متبعا فى النظام الجامعى الحديث .

---

(١) راجع الجبرتى ج ٢ ص ٢٦٢ و ٢٧٤

الفصل الرابع

الأزهر وقت الإحتلال الفرنسى

حيوية الأزهر الكامنـة . الغزو الفرنسى لمصر . الأزهر يتولى الزعامة الوطنية . المشايخ والغزاة . تأليف الديوان الأول . اضطراب الأحوال . لجنة الثورة الأزهرية . اضطرام الثورة حول الأزهر . المشايخ ونابليون . ضرب الأزهر بالقنابل . احتلال الفرنسيين للأزهر . اتصال المشايخ بنابليون . القبض على بعض المشايخ وإعدامهم . المنشورات المهدئة . الديوان العمومى والديوان الخصوصى . مغادرة نابليون لمصر . رياسة الجنرال كليبر . الفرنسيون والجامع الأزهر . زحف الترك على مصر ومعاهدة العريش . الثورة فى القاهرة . مصرع الجنرال كليبر بيد سليمان الحلبى . محاكمة سليمان وزملائه والحكم بإعدامهم . إغلاق الجامع الأزهر . جاك عبد الله منو . الديوان الجديد وأعضاؤه . جلاء الفرنسيين عن مصر . افتتاح الأزهر . التعريف ببعض علمائه فى هذا العصر . العلماء أعضاء الديوان . عبد الرحمن الجبرتى . بعض العلماء من غير أعضاء الديوان . إسماعيل الخشاب . حسن العطار

— ١ —

لبث الأزهر فى ظل الحكم العثمانى ، سائرا فى طريقه ، قائما بمهمته العلمية ، وذلك بالرغم مما كان يحيط به من الصعاب ، ويعتريه من أسباب الضعف المادية والأدبية .

وقد انتهى الأزهر كما رأينا ، فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ، إلى حالة من الركود والانحلال لم يعانى مثلها من قبل قط ، وهبط عدد أساتذته وطلابه إلى أقل حد وصل إليه فى عصر من العصور ، كما هبط مستواه العلمى والثقافى ، ونضبت حلقاته من العلوم العقلية والجدلية القديمة ، التى كانت تدرس به من قبل ، واقتصرت على العلوم الدينية وعلوم اللغة ، تدرس بطرائق سفسطائية عقيمة .

على أن هذه الحالة المؤسفة ، التى انتهى إليها الجامع الأزهر ، فى ظل الحكم العثمانى ، لم تفقده حيويته القديمة ؛ فقد لبثت هذه الحيوية كامنة بين جدرانه ، وبين شيوخه وطلابه ، تنتظر الهزة التى توقظها ، والشرارة التى تضرمها .

وقد شاء القدر أن تقع هذه الهزة ، وأن تضطرم هذه الشرارة ، عن طريق حادث جلل كان له أكبر صدى ، فى تطور مصر التاريخى ، فى خاتمة القرن الثامن عشر ، ونعنى بذلك الغزو الفرنسى .

وصلت حملة نابليون الغازية إلى مياه الإسكندرية ، فى يوم أول يوليه سنة ١٧٩٨ م (١٧ محرم سنة ١٢١٣ هـ) ، ونزلت الجنود الفرنسية إلى الثغر فى مساء اليوم التالى ، فاحتلته فرقة منهم ، ثم تلاحقت قواتهم إلى دمنهور فى طريقها إلى

القاهرة ؛ وأذاع نابليون على الشعب المصرى منشوره الشهير ، فى الثانى من يوليه ، يقول فيه إنه قدم لمعاقبة الصناجق ، الذين يحكمون مصر ، ويعادون الفرنسيين ويظلمون تجارهم ، والقضاء على سلطان المماليك ، وإنقاذ المصريين من ظلمهم ، وإصلاح دفة الحكم ، وإن الفرنسيين يحبون المسلمين ويخلصون للسلطان العثمانى ، ثم يطلب استسلام القرى الواقعة فى دائرة طريق جيشه لمسافة ثلاث ساعات ، وينبه على المشايخ فى كل بلد ، بالتحفظ على أملاك المماليك ، وأنه يجب على المشايخ والعلماء والقضاة أن يلازموا وظائفهم ، وعلى كل أحد أن يبقى مطمئنا فى داره ، وأن تكون الصلاة قائمة فى الجوامع .... الخ[١] .

وهزم الفرنسيون قوات مراد بك فى معركة الأهرام ، أو معركة امبابة ، فى ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ م ، وعبروا النيل ، واحتلوا القاهرة ، وانسحبت القوات المدافعة الأخرى مؤمنة بعقم القتال ، وتُركت العاصمة تحت رحمة الغزاة ، فساد فى أرجائها الاضطراب والذعر ، وفر الكثيرون فى مختلف الأنحاء .

وهنا يبدو الجامع الأزهر ، فى ثوبه الذى اتشح به غداة المحنة ، واستمر متشحا به خلال الأحداث المتعاقبة ، التى انتهت بجلاء المحتلين عن البلاد وتحريرها من الحكم التركى ، ثوب

---

(١) أورد لنا الجبرتى نص هذا المنشور بأكمله (ج ٣ ص ٤ و ٥) .

القيادة الشعبية ، والزعامة الوطنية ؛ ففى صباح يوم الأحد غرة شهر صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٢ يوليه) اجتمع فى الجامع الأزهر بعض العلماء والمشايخ ، ولم يكن الغزاة قد عبروا النيل إلى القاهرة بعد ، وتباحثوا فى الأمر ، واتفق الرأى على أن يبعثوا برسالة الى الفرنسيين يسألونهم عن مقاصدهم ، ثم يرون ماذا يكون الجواب ، وحمل الرسالة اثنان عبرا إلى معسكر الجيش الفرنسى بالجيزة وأخذا إلى القائد العام ، وأسفرت المحادثات التى جرت بينهما عن إصـدار خطاب لأهل مصر بالأمان ، وتوكيد نيات الفرنسيين الحسنة ، وطلب القائد العام حضور المشايخ والزعماء ليؤلف منهم ديوانا لتدبير الأمور ، فاطمأن الناس ، وعاد معظم المشايخ والزعماء الفارين . وفى يوم الثلاء ٢٥ يوليه ، بعد أن عبر الفرنسيون إلى القاهرة ، واستقر بونابارت فى منزل الألفى بالأزبكية ، استدعى العلماء والمشايخ لمقابلته ، وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وأسفرت المباحثات عن تأليف ديوان يشرف على حكم القاهرة وتدبير شئونها ، مؤلف من تسعة أعضاء ، هم الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ مصطفى الدمنهورى ، والشيخ أحمد العريشى ،

والشيخ يوسف الشبرخيتى ، والشيخ محمد الدواخلى ، وعين الشيخ محمد المهدى أمينا (سكرتيراً) لأعمال الديوان[1] .

وهكذا أنشئ ديوان الحكم الأول ، فى ظل الاحتلال الفرنسى ، من علماء الجامع الأزهر ؛ وبالرغم من أن سلطة هذا الديوان كانت محدودة ، وخاضعة لتوجيه المحتلين ، فإن فى تأليفه على هذا النحو ، تنويه ظاهر بأهمية الجامع الأزهر ، ومكانة علمائه ، والاعتراف بزعامتهم الشعبية والوطنية .

وتتابعت الأحداث ، ولم تستقر الأمور ، ولم تهدأ النفوس . واستمر الفرنسيون فى العمل لإخضاع البلاد ، وسيروا حملاتهم المتوالية إلى الأقاليم البحرية والقبلية ، وهم يلقون مقاومة مستمرة من بقايا قوات الزعماء المماليك ، ومن يلتف حولهم من جموع الشعب . وأما فى العاصمة فقد اشتدت وطأتهم شيئاً فشيئاً ، وفرضوا عليها ، كما فرضوا على باقى البلاد ، مختلف الضرائب

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠ و ١١ ، وقد نقلنا أسماء أعضاء هذا الديوان الأول عن الجبرتى . ولكن المرسوم الفرنسى الصادر بتعيين أعضائه أغفل أسماء الدمنهورى ، والشبراخيتى ، والدواخلى ، وذكر بدلا منهم الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الأمير ؛ والظاهر أن هؤلاء الثلاثة رفضوا ، وكان النقيب فوق ذلك غائباً فاراً . فتعين بدلا منهم بعد ذلك الثلاثة الآخرين الذين ذكرهم الجبرتى .

والمغارم الفادحة ، وصادروا كثيراً من الأملاك والمبانى ، وهدموا أبواب الحارات الداخلية ، لكى يُحكموا قبضتهم على سائر الأحياء ، وأسرفوا فى قتل الأهالى ، وعلى الجملة فقد فرضوا على المدينة حكم إرهاب مطبق ، وشعر الشعب القاهرى بمنتهى الضيق والحرج ، وأخذ يتربص للانتقاض والانتقام .

وألفت النقمة العامة صداها فى الجامع الأزهر ، وأُلفت داخل الجامع « لجنة للثورة » حسبما تسميها المصادر الفرنسية ، أو « بعض المتعممين الذين لم ينظروا فى عاقبة الأمور » حسبما يشير إليها الجبرتى ، وأخذت تبث الدعاية للانتقاض والمقاومة ، وبدأ الهياج كالعادة باحتشاد الجماهير فى الطرقات ، وضعف سلطان الديوان الأدبى ، ولم يستمع الناس إلى كبار المشايخ بالتزام الهدوء والإخلاد إلى السكينة .

وبدت طلائع الهياج فى يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، حيث احتشدت جموع الشعب منذ الصباح الباكر ، ولا سيما فى حى الحسينية ، وساروا إلى بيت قاضى العسكر (قاضى القضاة التركى) ، وألزموه أن يركب معهم ليسير بهم إلى منزل بونابارت ، ولكنه أحجم بعد ذلك خشية العواقب ، فرجموه ونهبوا منزله . واجتمع فى نفس الوقت جمع عظيم بصحن الجامع الأزهر ، وهم يهتفون بالثورة والقتال ، وعلى رأسهم

بعض المشايخ يلهبون أنفسهم بخطبهم ؛ وعلم الجنرال ديبوى حاكم القاهرة بالخبر ، فنزل إلى المدينة فى كتيبة من الفرسان، وسار إلى الموسكى ثم الغورية ، فازدحمت الجموع من حوله ، وتساقطت عليه وعلى رجاله الأحجار من كل صوب ، فحاول ديبوى أن يهدئ الجموع ، فلم يصغ إليه أحد ، فهجم عليها بفرسانه ، وردت الجماهير بالهجوم ، وانهالوا عليه وعلى رجاله بالضرب والرجم ، والطعن بالرماح والسيوف ، فقتل ديبوى وبعض رجاله ؛ وعندئذ اشتد الهياج ، وتضاعفت الجموع ، وانساب الثوار إلى سائر الأحياء المجاورة ، وتفاقمت الأحوال .

وأدرك نابليون خطورة الحال ، واتفق رأى القادة على أن مركز الثورة الحقيقى هو الجامع الأزهر. وكان الثوار قد أقاموا المتاريس والحواجز ، فى سائر الشوارع والدروب المؤدية إلى الجامع الشهير ، فأمر نابليون ، أن تُنصب المدافع على المقطم ، لكى تطلق مع مدافع القلعة على الأزهر .

وفى صباح اليوم التالى ، خرجت كتائب عديدة من الفرنسيين ، وسارت إلى مختلف الأنحاء التى تجمعت فيها الجماهير ، فى سائر المناطق المؤدية إلى الجامع الأزهر ، وسارت كتائب أخرى لتمنع جموع الأهالى التى تقاطرت من

الضواحى على العاصمة ، وكان منها كتيبة يقودها الكولونيل سلكوسكى ياور نابليون .

وكانت جموع الثوار قد تضاعفت ، وازدادت حميتها ، فالتحمت ببعض الكتائب ، وحاولت أن تزحف على المرتفعات التى ركبت فيها المدافع فوق تلال البرقية والقلعة ، فصدها الفرنسيون ، وقتلوا عدداً كبيراً من الأهالى ، وقتل فى تلك الأثناء الكولونيل سلكوسكى ، وحمل نبأ مصرعه إلى نابليون فحزن لفقده حزنا عظيما ، واشتد سخطه على الثوار ، واعتزم أن ينكل بهم أيما تنكيل .

وكانت المدافع فى أثناء ذلك ترسل نيرانها على مراكز الثوار ، ولا سيما المناطق المحيطة بالجامع الأزهر ، فتفتك بهم ، وتحطم الدور والمتاجر ، وتقوض فى طريقها كل شىء . فلما تفاقم الخطب ، واشتد الكرب ، ذهب مشايخ الديوان عصراً لمقابلة نابليون (صارى عسكر) فاتهمهم بالتقصير ، وأنبهم على تهاونهم ، فاعتذروا إليه ، ورجوه أن يرفع الضرب عن المدينة ، فاستمع إلى ضراعتهم ، وأمر بالكف عن الضرب موقتاً ، وذهب المشايخ إلى الأزهر لينصحوا الثوار بالتزام الهدوء والسكينة ، فلم يصغوا إليهم ، وردوهم بجفاء ، ومنعوهم من دخول الجامع .

وهنا أيقن الفرنسيون أن لابد للتغلب نهائياً على الثوار ، أن يحتلوا الجامع الأزهر والمنافذ المؤدية إليه ، وصدرت الأوامر بضرب الجامع الشهير ، وأخذت القنابل تنهال عليـــه ، وعلى الأحياء المجاورة مثل الصنادقية والغورية ، والفحامين وغيرها ، بشدة لا مثيل لها ؛ فساد الفزع والروع ،وتزعزت أركان الجامع وقتل كثير من الناس ، ودفن الكثير منهم تحت الأنقاض ، واستمر الضرب حتى المساء ، فمزقت صفوف الثوار ، وطالبوا بالأمان ، وألقوا السلاح ، وتفرق معظمهم فى سائر الدروب والأزقة ، ورفع الفرنسيون المتاريس من طرقات الجامع ، وتواثبوا إليه ، فرساناً ومشاة ، واقتحموه اقتحام الضوارى بخيولهم ، واحتلوه فى مناظر وحشية ، غير مكترثين لحرمته الدينية والعلمية . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م (١٣ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ) .

وإليك ما كتبه الجبرتى ، وهو يومئذ شاهد عيان ، وكان يقيم على مقربة من مسرح الحوادث ، فى وصف تفاصيل هذا العمل الهمجى ، الذى يعتبر من أفظع مثالب الحملة الفرنسية :

« وبعد هجعة الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع كالشياطين ، أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخل طائفة من

بباب البرقية ، ومشوا إلى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجعوا ، وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين ، وتراسلوا إرسالا ، ركباناً ورجالا ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . . . وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه » .

وهكذا احتل الفرنسيون الجامع الأزهر ، ومنعوا العلماء والطلاب من دخوله ، وانتشرت الجنود فى الأحياء المجاورة ، تنهب البيوت بحجة البحث عن السلاح ، وتصادر المارة ، وتعيث فى الأسواق ، وتقبض على الأبرياء ، واضطر كثير من سكان الأحياء المجاورة إلى الفرار ناجين بأنفسهم .

ويعلق الجبرتى على هذا العمل بقوله : « وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع ويرغب الناس فى سكناها ،

ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع ، والفرنساوية لا يمرون بها إلا فى النادر ، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر ، فانقلبت بهذه الحركة فيها الموضوع ، وانخفض على غير القياس المرفوع »[1] .

وليس من موضوعنا أن نتتبع حوادث هـذه الثورة التى اضطرمت بها القاهرة على الفرنسيين ، والتى ذهب ضحيتها آلاف من المصريين سواء منهم من قتل أثناء المعارك ، أو قبض عليهم أفراداً وجماعات دون ذنب ولا جريمة ، وسـيقوا إلى القلعة ثم أعدموا بعد ذلك . وإنما يهمنا من هذه الحوادث فقط ما تعلق منها بالجامع الأزهر ، والدور الذى اضطلع به فى مقاومة المحتلين .

لم تقف المحنة عند احتلال الجامع الأزهر ، وانتهاك حُرمه على هذا النحو ، بل وقع ثمة اعتداء محزن آخر على علمائه :

ففى غداة احتلال الجامع ، ذهب المشايخ إلى بيت سارى عسكر (نابليون) ، يرجون منه العفو وإصدار الأمان ليطمئن الناس ، وتزول مخاوفهم ، ثم رجوه أيضاً فى جلاء الجنود عن الجامع الأزهر ، فوعدهم بإجابة ملتمسهم ، ولكنه طلب إليهم التعريف عن زعماء الفتنة من مشايخ الأزهر ، فأبدوا له أنهم لا يعرفون أحداً منهم ، فقال لهم إنهم يعرفونهم واحداً

---

(١) راجع فى هذه الحوادث الجبرتى ج ٣ ص ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .

واحداً . ثم أصدر أوامره بجلاء الجند عن الجامع ، ولكن بقيت منهم كتيبة تبلغ السبعين ، ترابط فى الأحياء المجاورة ، لضبط النظام ، والسهر على حركات الطلاب والأهالى[١] .

وفى اليوم التالى ، بعث الفرنسيون رجالهم للبحث عن زعماء الفتنة ، « المتعممين » والقبض عليهم ، فانتهوا إلى القبض على الشيوخ الآتية أسماؤهم :

الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى ؛ وبحثوا عن الشيخ بدر المقدسى ، ولكنه كان قد فر وسافر إلى الشام . وكان هؤلاء جميعاً من أواسط علماء الأزهر . وأُخذ الشيوخ المقبوض عليهم إلى بيت البكرى ، حيث اعتقلوا هنالك . فلما علم كبار الشيوخ بما وقع ، ذهب وفد منهم ، وعلى رأسه الشيخ السادات إلى منزل « صارى عسكر » والتمسوا إليه العفو عن الشيوخ المقبوض عليهم ، فاستُمهلوا ، وطُلب إليهم التريث والانتظار .

ولبث المقبوض عليهم فى بيت البكرى ، الى مساء يوم السبت ، ثم جاءت ثلة من الجند ، وأخذتهم أولا الى منزل « القومندان » بدرب الجماميز ، ثم هنالك جردوا من ثيابهم ،

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٨ .

ثم اقتيدوا إلى القلعة ، وسجنوا هنالك . ويقول لنا الجبرتى ، إنهم أعدموا فى اليوم التالى رمياً بالرصاص ، وألقيت جثثهم من السور خلف القلعة ، وغاب أمرهم عن أكثر الناس أياماً ، ولكن يُستفاد من المصادر الفرنسية المعاصرة ، أنهم حوكموا بعد ذلك بأيام بطريقة سرية ، وحكم عليهم بالإعدام فى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم أعدموا فى اليوم التالى ، وتقول هذه المصادر إن عدد المحكوم عليهم كان ستة لا خمسة ، وإن سادسهم كان يسمى السيد عبد الكريم ، وإنهم أعدموا فى ميدان القلعة ، وقطعت رؤوسهم[١] .

وفى أثناء ذلك كان المشايخ يكررون سعيهم فى سبيل العفو عن أولئك الشيوخ ، ظناً منهم أنهم ما زالوا على قيد الحياة .

وقد أشار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، ورئيس الديوان يومئذ إلى تلك الحوادث المحزنة فى كتابه « تحفة الناظرين » فى الفقرة الآتية :

« إن الفرنسيس قتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً ، ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ، ومكثوا فيه يوماً ، وبعض الليلة الثانية ، وقتلوا فيه بعض العلماء ، ونهبوا منه أموالا

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٠ . وراجع تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر ، للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٣٠٦ .

كثيرة ، وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم ، فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ، ونشروا الكتب التى فى الخزائن ، يعتقدون أن بها أموالا ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم ، كتباً ومصاحف نفيسه »[١] .

ومما هو جـدير بالذكر ، أن الفرنسيين على أثر قمع الثورة ، والجلاء عن الجامع الأزهر ، أوحوا إلى العلماء ، بإصدار منشور إلى أهل القاهرة ، يناشدونهم فيه الهدوء والإخلاد إلى السكينة ، وألا يحركوا الفتنة ولا يطيعوا أمر المفسدين ، وأن يشتغلوا بأسباب معايشهم وأمور دينهم . وفيه مديح وإطراء « لأمير الجيوش بونابارت » وقد صدر هذا المنشور فى يوم ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٣هـ الموافق ٢٤ اكتوبر سنة١٧٩٨م .

وأصدر العلماء منشوراً ثانياً إلى أهل الأقاليم من العربان والفلاحين ، يحذرونهم فيه من مساعى الزعماء المماليك لتحريك الفتنة ، ويكذبون مزاعمهم بأنهم يعملون من قبل السلطان ، وينصحونهم بعدم معارضة العساكر الفرنسية ، ويمتـدحون الفرنسيين ويصفونهم بأنهم يحبون المسلمين ، ويمتدحون « أمير الجيوش بونابارت » وأنه تعهد بألا ينازع أحداً فى الإسلام ،

---

(١) « تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » ص ٧٦ .

وأن يرفع سائر المظالم عن الرعية(١) .

وظاهر من لهجة هذين المنشورين وما يحتويانه من عبارات التغرير والملق ، أنهما صدرا تحت تأثير الظروف ، وضغط الفرنسيين ، أو بعبارة أخرى أنهما أمليا على العلماء إملاء ، ولم يجد أولئك مندوحة من النزول على حكم القوة القاهرة .

بيد أن المغزى الذى يهمنا هنا ، هو أن المحتلين ، إدراكا منهم لزعامة علماء الأزهر الروحية والشعبية يومئذ ، قد لجأوا الى هذه الزعامة يحاولون استغلالها فى تهدئة الشعب ، وحمله على التزام السكينة والخضوع .

وكان من أثر الثورة ، وما اقترن بها من الاضطرابات ، أن عُطل الديوان . فلما هدأت الأحوال ، أصدر نابليون فى ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، قراراً بإنشاء ديوان جديد ، على مثل أوسع نطاقاً من الديوان القديم ، وجعل أعضاءه ستين بدلا من عشرة ، وأدخل فيه إلى جانب العلماء ممثلين للطوائف الأخرى ، من الجند والتجار ومشايخ الأخطاط والأقباط والأجانب ، وبلغ عدد العلماء فيه عشرة ، معظمهم من شيوخ الجامع الأزهر وهم :

الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع . الشيخ محمد المهدى .

---

(١) أورد لنا الجبرتى نص هذين المنشورين الأول ج ٣ ص ٣١ ، والثانى فى ص ٣٢ .

الشيخ مصطفى الصاوى . الشيخ موسى السرسى . الشيخ محمد الأمير . الشيخ سليمان الفيومى . الشيخ أحمد العريشى . الشيخ ابراهيم المفتى . الشيخ صالح الحنبلى . الشيخ محمد الدواخلى . الشيخ مصطفى الدمنهورى . الشيخ خليل البكرى . السيد حسين الرفاعى . الشيخ الدمرداشى .

وقد كان هذا الديوان الكبير الممثل لجميع الطوائف هو الديوان العام ، وهو يجتمع بحسب الاقتضاء فقط ، وقد اختير من بين أعضائه ، أربعـة عشر عضواً يتألف منهم الديوان الخصوصى ، وهو الديوان العامل فعلا ، وقد قضى منشور التأسيس بأن يجتمع كل يوم « للنظر فى مصالح الناس ، وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم » . وكان من بين أعضاء الديوان الخصوصى من العلماء خمسة ، وهم ، الشيخ عبد الله الشرقاوى . الشيخ محمد المهدى . الشيخ مصطفى الصاوى . الشيخ سليمان الفيومى . الشيخ خليل البكرى . وأسندت رياسة الديوان الى الشيخ عبد الله الشرقاوى[١] .

وما نود أن ننوه به من الإشارة إلى تأليف الديوان الجديد ، هو أن علماء الأزهر كان لهم نصيب بارز فى عضويته فضلا عن رياسته ، وأنه كان يحسب دائماً لمكانتهم ونفوذهم حساب

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٨ و ٣٩ .

خاص ، وأن حوادث الثورة ، والدور الذى لعبه الأزهر فيها ، جاءت لتؤكد هذه المكانة ، وذلك بالرغم مما تسرب إلى أذهان المحتلين من الريب والشكوك فى موقف العلماء وفى ولائهم .

وقد اضطلع الديوان الخصوصى بمهمته من تدبير شئون القاهرة ، وحفظ الأمن فيها ، وإقامة العدل وتقرير الضرائب وغيرها ، وكان المحتلون يأخذون برأيه فى معظم الشئون .

* * *

وفى العاشر من فبراير سنة ١٧٩٩ ، غادر نابليون القاهرة ، ليقود الحملة التى أعدها لغزو سوريا . ونحن نعرف الفشل الذى منيت به هذه الحملة ، وكيف تحطمت جهود الغزاة تحت أسوار ثغر عكا ، وكيف اضطر نابليون بعد هزيمته أن يعود أدراجه إلى القاهرة ، فوصلها فى منتصف شهر يونيه . وكانت أعراض الانتقاض قد بدت أثناء ذلك فى بعض الأقاليم البحرية ، وشغل الفرنسيون بقمعها ، ثم قدمت إلى مياه الإسكندرية حملة عثمانية ونزلت فى أبى قير ، فهرع نابليون فى قواته إلى لقائها واستطاع أن يهزم الترك (أواخر يوليه) . ثم عاد بعد ذلك ثانية إلى القاهرة .

وهنا وصلته أنباء مقلقة عن سير الحوادث فى أوربا وفرنسا ، فاعتزم مغادرة مصر ، وغادرها فعلا فى أواخر

أغسطس سنة ١٧٩٩ ، وعين الجنرال كليبر قائد حامية دمياط ، مكانه فى القيادة العامة[١] .

وجاء كليبر إلى القاهرة ، واستقر فى منزل الألفى الذى كان ينزل به نابليون من قبل . وكان من أول أعماله ، أن استدعى أعضاء الديوان المخصوص لمقابلته ، وتكلم الشيخ محمد المهدى بالنيابة عن هيئة الديوان ، فأبدى أسفه لسفر الجنرال بونابارت ، وأعرب عن أمله فى عدالة خلفه واستقامته ، ورد الجنرال كليبر ، فأكد أنه سوف يعنى بالعمل على سعادة الشعب المصرى[٢] .

— ٢ —

ولقد حرصنا على أن نتتبع حوادث الحملة الفرنسية بإيجاز ، إلى هذا المدى الذى انتهت فيه القيادة العامة إلى الجنرال كليبر ، كما حرصنا على أن نتتبع الدور الذى اضطلع به العلماء ، خلال هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة المصرية .

---

(١) هو جان باتست كليبر أحد مشاهير قواد الثورة الفرنسية ، ولد فى اشتراسبورج فى سنة ١٧٥٣ . وخدم بعد الثورة فى جيش الجمهورية ، وقدم مع بونابارت الى مصر ، قائداً لإحدى الفرق ، وصحبه إلى سوريا ، وأبلى بلاء حسنا فى موقعة غزة ، ثم عين قائدا لحامية دمياط .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٨٣ و ٨٤ ، وتاريخ الحركة القوميـة للأستاذ الرافعى ج ٢ ص ١١١ — ١١٣ .

ذلك لأن القدر قد ربط بين مصاير الجامع الأزهر ، ومصير الجنرال كليبر برباط من تدابيره الخفية القاهرة .

لبث الأزهر من بعد الثورة الوطنية التى اضطلع فيها بأعظم دور ، والتى احتمل فيها أعظم التضحيات ، فى حالة اضطراب شديد ، وتفرق كثير من أساتذته وطلابه ، وركدت حلقاته ودروسه ، ولبث الفرنسيون يرقبون حركاته وسكناته بأعين ساهرة .

وعاش الأزهر وأهله من ذلك الوقت ، فى حالة نفسية متوترة ، حتى أنه ما تكاد تبدو الدوريات الفرنسية على مقربة منه ، حتى يقع الهرج والاضطراب فى المنطقة كلها ، وتغلق أبواب الجامع ، وسائر الحوانيت والدور المجاورة[1] .

وكان الفرنسيون أحياناً يحاولون إظهار توقيرهم وتكريمهم للجامع الأزهر على طريقتهم . ومن ذلك ما رواه الجبرتى فى حوادث يوم الأربعاء آخر رمضان سنة ١٢١٣ هـ ، لمناسبة احتفال الفرنسيين فى القاهرة ، باستيلاء حملتهم على غزة وخان يونس من الترك ، حيث يقول :

« وفى ذلك اليوم ، بعد العصر بنحو عشرين درجة ، حضر عدة من الفرنسيس ، ومعهم كبير منهم ، وهم راكبون

(١) مثال ذلك ما رواه الجبرتى فى حوادث يوم الثلاثاء ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ (ج ٣ ص ٣٠) .

الخيول ، وعدة من المشاة ، وفيهم جماعة لابسون عمائم بيض ، وجماعة أيضاً ببرانيط ومعهم نفير ينفخ فيه ، وبيدهم بيارق ، وهى التى كانت عند المسلمين على قلعة العريش ، إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر ، فاصطفوا رجالا وركبانا ً بباب الجامع ، وطلبوا الشيخ الشرقاوى ، فسلموه تلك البيارق وأمروه برفعها ونصبها على منارات الجامع الأزهر ، فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين ، عند كل هلال بيرقا ، وعلى منارة أخرى بيرقا ثالثا . وعند رفعهم ذلك ، ضربوا عدة مدافع من القلعة بهجة وسروراً ، وكان ذلك ليلة عيد الفطر »[1] .

على أن هذه المظاهر وأمثالها ، مما كان يحرص الفرنسيون على إقامته فى المناسبات الدينية والقومية ، مثل الاحتفال بالمولد النبوى ، أو مولد الحسين ، أو الإحتفال بوفاء النيل ، وغير ذلك ، لم تكن هذه المظاهر تخفى الحقيقة الواضحة ، وهى أن الأزهر ، علماؤه وطلابه ، كان يرى فى أولئك المحتلين ألد أعدائه ، وأخطرهم على كيانه ونظمه ، وقد ترك انتهاك الفرنسيين لحرمة الأزهر واحتلاله ، فى نفوس الأزهريين ضغناً لا يمحى ، وأمنية تضطرم فى انهيار سلطان أولئك المعتدين ، وتحرير البلاد من نيرهم وعسفهم .

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٤٨ .

وقد كانت الأحداث فى الواقع تسير إلى تحقيق هذه الأمنية بخطوات سريعة متعاقبة ،

ذلك أن كليبر تولى القيادة العامة ، وقد تحرجت الأحوال وأخذت الصعاب تتفاقم ؛ وكانت الجيوش العثمانية ما زالت ماضية فى استعدادها لغزو مصر ، والأسطول الإنجليزى الذى يقوده السير سدنى سميث ، يجوب المياه المصرية ، من يافا إلى الإسكندرية ويقطع على الفرنسيين كل صلة خارجية . وبالرغم من أن الفرنسيين هزموا الترك فى موقعة دمياط (نوفمبر سنة ١٧٩٩) فإن الترك استمروا فى زحفهم على مصر من طريق سيناء ، ومن ثم فقد رأى كليبر بعد التشاور مع قواده ، أن يقبل ما عرضه الترك والإنجليز من عقد الصلح على أساس جلاء الفرنسيين عن مصر ، وانتهت المفاوضات فى ذلك إلى عقد معاهدة العريش (يناير سنة ١٨٠٠) ، وقد نصت على أن يجلو الفرنسيون عن مصر بأسلحتهم ومعداتهم ، وأن يكون جلاؤهم عن القاهرة فى ظرف ٤٥ يوماً على الأكثر ، من التصديق على المعاهدة . وتُلى هذا النبأ على أعضاء الديوان ، وأذيع مضمونه فى منشور ألصقت منه نسخ فى الأسواق والشوارع ، ففرح الناس واستبشروا خيراً .

ولكن الإنجليز نقضوا شروط المعاهدة ، وأصروا على أن

يعتبر الفرنسيون أسرى ، وأن يسلموا أسلحتهم ومعداتهم . وفى خلال ذلك كانت الجيوش العثمانية قد وصلت إلى داخل البلاد ، فعاد كليبر إلى الاستعداد للدفاع ، وهزم العثمانيين فى موقعة جديدة بالقرب من المرج فى مارس سنة ١٨٠٠ .

واضطرمت القاهرة فى نفس الوقت بثورة جديدة ، وظهرت أعراض الانتقاض من جديد فى كثير من الأقاليم ، وبدأت ثورة القاهرة فى بولاق ، ثم امتدت بسرعة إلى سائر الأحياء ، وهجم الثوار على معسكرات الفرنسيين ، وفتكوا بهم ، وأقاموا المتاريس فى الشوارع ، ونجحوا فى صنع البارود ، واشتدت الوطأة على المحتلين ، وبذل الفرنسيون جهوداً عنيفة لقمع الهياج ، ولجأوا إلى أشد الوسائل ، وارتكبوا خلال ذلك كثيراً من أعمال التخريب والسفك ، وأحرقت أحياء كثيرة وقصور عديدة ، بحى الأزبكية وغيره ، وانتهى الأمر بقمع الثورة (أبريل سنة ١٨٠٠) واسترد الفرنسيون سلطانهم كاملا ، ونقضوا عهد الأمان الذين أعطوه لأهل القاهرة ، وفرضوا عليها غرامات فادحة ، ونكلوا بكثير من العلماء والأعيان ، وساد المدينة حكم إرهاب مروع ، واشتد الجفاء بين المحتلين وأهل البلاد .

* * *

وفى هذا الأفق المتوتر القاتم ، وقع حادث اهتزت له البلاد ،



الجنرال كليبر

واهتزت له أركان الاحتلال الفرنسى . ذلك هو مصرع الجنرال كليبر .

وكان الجنرال كليبر قد خلف نابليون فى سكنى قصر الألفى ، المشرف على بركة الأزبكية ، واتخذه فى نفس الوقت مركزاً للقيادة العامة ، ولكنه أقام حيناً فى الجيزة ، بجوار المركز العام لأركان الحرب ، حتى يتم إصلاح القصر . ففى يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ الموافق ٢١ محرم سنة ١٢١٥ هـ ، جاء كليبر من الجيزة ومعه المسيو بروتان كبير المهندسين ، وأحد أعضاء البعثة العلمية ، إلى حى الأزبكية ، ليتفقد أعمال الإصلاح فى منزله ، وليجيب دعوة الجنرال داماس إلى تناول الغذاء ، وكان يقيم فى دار قريبة ، تفصلها عن دار القائد العام حديقة مستطيلة ؛ فلما غادر كليبر دار الجنرال داماس ، سار مع المهندس بروتان ، مخترقاً الحديقة صوب داره ، فبرز من أحد مماشى الحديقة فتى نحيف القامة ، متوسط الجسم ، وتقدم من القائد العام — كليبر — ولوح إليه بيده كأنما يسأله صدقة أو يلتمس أمراً ، فأشار إليه كليبر بالانصراف قائلا (مافيش) ، ولكن الفتى وثب نحوه ، وقبض بيسراه على يده بشدة ، وجرد بيده اليمنى خنجراً كان يخفيه تحت ثيابه ، وطعن به الجنرال عدة طعنات سريعة ، أصابته فى صدره وبطنه وذراعه ، فسقط إلى

الأرض صريعاً وهو يصيح مستغيثاً ، وبادر المهندس بروتان الى نجدته ، ولكن الفتى انقض عليه كذلك وطعنه بخنجره عدة طعنات ، سقط على أثرها مغميا عليه ، ثم وثب مهرولا إلى مماشى الحديقة فغاب فيها واختفى عن الأعين[١] .

وتواثب الحراس من كل ناحية إلى مكان الاستغاثة ، فألفوا قائدهم صريعا غارقا فى دمائه ، وقد أسلم الروح بعد ذلك بقليل ، وزميله بروتان ملقى على قيد أمتار منه ، ولم يروا للقاتل أثرا ، فاشتد الضجيج والاضطراب ، وهرول الضباط والرؤساء من كل صوب ، وانطلق عشرات الجند إلى الجهات المجاورة يفتشون عن القاتل ، واعتقد الرؤساء أن تلك الجريمة إنما هى نتيجة لمؤامرة كبيرة ، دبرها أهل القاهرة ، فصدرت الأوامر إلى القلاع والحصون بالتأهب ، وانطلق الجند إلى شوارع المدينة ، وسرى الرعب إلى الناس ، فأسرعوا الى الفرار والاختفاء ، وأغلق التجار حوانيتهم ، فأقفرت الطرق ، وساد على المدينة سكون رهيب .

غير أن ذلك الرعب العام ، ما لبث أن تبددت سحبه بعد

---

(١) أوضحنا تفاصيل الحادث كما يصوره التحقيق الرسمى وأقوال الشهود فى القضية . وقد أورده الجبرتى بما يقرب من هذه التفاصيل (راجع الجبرتى ج ٣ ص ١٢١) .

أمد قصير ، إذ لم تمض ساعة حتى ظفر الجند بشاب ، كان مختفياً فى البستان المجاور لمنزل القائد العام ، ووراء جدار متهدم ، فقبضوا عليه ، وقدم للاستجواب فى الحال أمام مجلس عسكرى ، انعقد فى منزل الجنرال داماس ، واستجوبه الجنرال منو أقدم الضباط ، وخلف كليبر فى القيادة العامة .

وقد ظهر من الاستجواب الأول أن الشاب المقبوض عليه يسمى سليمان الحلبى ، وأنه ولد فى مدينة حلب بولاية الشام ، وعمره أربعة وعشرون سنة ، وأنه قدم إلى القاهرة مع إحدى القوافل ، ونزل بالجامع الأزهر .

وحاول المتهم أن ينكر ما نسب إليه من جريمة قتل القائد العام ، والشروع فى قتل المهندس بروتان ، ولكنه ووجه بعدة قرائن ، منها وجود خنجره على مقربة من مسرح الحادث ، ووجود قطعة قماش خضراء قطعت من جلبابه ، ووجود خدوش ورضوض بوجهه ورأسه نتيجة لمقاومة المهندس بروتان ، وتعرف بعض الجند عليه ، إذ رأوه فى صبيحة ذلك اليوم فى الجيزة حيث كان القائد العام ، ولوحظ أنه يتبعه أينما سار ؛ وإزاء إصرار المتهم على إنكاره ، قرر المجلس إحالته على العذاب ، فشد وثاقه وما زال يجلد حتى التمس الصفح ، ووعد بقول الحقيقة :

وعندئذ اعترف سليمان بفعلته ، وقرر أنه جاء من غزة إلى

القاهرة ليقتل القائد العـام ، وقد حرضه على ذلك أغوات الينكجرية ، نزولا على رغبة زعماء الجيش العثمانى ، وأن أحداً لم يحرضه بمصر على ارتكاب جريمته ، ولكنه يعرف مصر من قبل ، إذ كان طالباً بالجامع الأزهر ، ومكث به ثلاث سنوات ، وقد تعرف مذ قدم فى هذه المرة إلى القاهرة ، وسكن بالجامع الأزهر ، بأربعة مشايخ من طلابه هم : محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى ، وأنه أطلع هؤلاء الزملاء على مشروعه ، فنصحوه بالرجوع عنه لاستحالة تنفيذه .

فأصدر القائد العام منو فى الحال أمره ، بالقبض على المشايخ الأربعة المذكورين ، ولم تمض ساعة حتى قبض على ثلاثة منهم ، وأحضروا إلى المجلس ، واستجوبوا فى مساء ذلك اليوم ، وتتلخص أقوالهم فيما يأتى :

١ ــ الشيخ عبد الله الغزى ، شاب فى الثلاثين من عمره ، مولود فى غزة ، وساكن بالجامع الأزهر ، وصناعته قراءة القرآن ، قرر أنه يعرف سليمان ، وأنه رآه لآخر مرة قبل الحادث بثلاثة أيام ، غير أنه أصر على تأكيده بأن سليمان لم يكاشفه بنيته :

٢ ــ الشيخ محمد الغزى ، شاب فى الخامسة والعشرين ، مولود فى غزة ، وسكنه بالجامع الأزهر ، وصناعته قراءة القرآن ، قرر أنه يعرف سليمان مذ كان بمصر منذ ثلاثة أعوام ، وأنه

رآه قبل الحادث بيومين وتحادث معه ، وأن سليمان قال له ، إنه سيرحل رحلة قد لا يعود منها ؛ ولكنه لم يصارحه قط بنيته فى اغتيال القائد العام .

٣ — الشيخ أحمد الوالى قارئ بالجامع الأزهر ، متوسط العمر ، ومولود فى غزة ، قرر أنه يعرف سليمان ، وأنه رآه منذ عشرين يوماً ، ولم يره بعد ذلك ، وأنه أفضى إليه بأنه يقصد أن يغازى فى سبيل الله ، بقتل أحد النصارى ، وأنه شرح له فساد رأيه ، وحاول أن يمنعه عن إتمام قصده ، فلم يفلح .

٤ — أما الشيخ عبد القادر الغزى ، فقد قبض عليه بعد ذلك ، وتبين من استجوابه أنه قارئ بالجامع الأزهر ومولده بغزة ، وقد قرر أنه يعرف سليمان ، وأنه أخبره بعزمه على المغازاة فى سبيل الله .

وقد أدى استجواب المشايخ الأربعة إلى القبض على شخص آخر ، هو مصطفى أفندى البورصلى ، إذ ذكره الشيخ أحمد الوالى ، وقال إن سليمان كان يذهب للقراءة فى منزله . وقد قرر مصطفى أفندى ، وهو معلم تركى فى الحادية والثمانين من عمره ، أن سليمان هو تلميذه منذ أعوام ، وأنه زاره فى منزله منذ عشرين يوماً للسلام عليه ، فأضافه ليلة واحدة لفقره ولسابق علاقته به ، وأنه لم يخبره بشىء مطلقاً .

سليمان الحلبي

ولسنا نود أن نتتبع تفاصيل هذه القضية الشهيرة بأكثر من ذلك ؛ ولكن الذى نود أن ننوه به هنا هو أن التحقيق ، كان يتجه فى أحيان كثيرة إلى ذكر الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وإلى اصطياد القرائن أو الأقوال التى تثبت علمه أو علم غيره من كبار العلماء ، بمشروع الجريمة ، بيد أن التحقيق لم يسفر فى النهاية عن شىء من ذلك .

وعلى أثر التحقيق أنشئت محكمة عسكرية لمحاكمة المتهمين من تسعة أعضاء ، وعقدت فى اليوم التالى ١٥ يونيه . واستغرق هذا اليوم استجواب المتهمين ، وفى اليوم التالى ١٦ يونيه ، ألقى المدعى العـــام مرافعته ، وكانت عنيفة ملتهبة ، وطالب برؤوس المتهمين ، ما عدا مصطفى أفندى البورصلى ، وبعد اختتام المرافعات ، أصدرت المحكمة حكمها الآتى :

١ ـ أن تحرق لسليمان الحلبى يده اليمنى ، ثم يعدم فوق الخازوق ، وتترك جثته حتى تفترسها الجوارح .

٢ ـ أن يعدم عبد القادر الغزى ، على الخازوق أيضاً ، وأن تصادر أمواله .

٣ ـ أن يعدم كل من محمد الغزى ، وعبد الله الغزى ، وأحمد الوالى ، بقطع الرأس ، ثم توضع رؤوسهم فوق الرماح ، وتحرق جثثهم .

وقضى ببراءة مصطفى أفندى البورصلى ، وإطلاق سراحه .

وفى اليوم التالى — الأربعاء ٢٦ محرم سنة ١٢١٥ (١٩ يونيه سنة ١٨٠٠) — قام الفرنسيون بتشييع جنازة الجنرال كليبر فى موكب عسكرى حافل ، يصفه لنا الجبرتى تفصيلا[١] . وعلى أثر دفنه فى بقعة تقع أمام باب القصر العينى ، أُخذ الخمسة المحكوم عليهم ، إلى التل التمريب المعروف بتل العقارب ، ونفذت فيهم الأحكام الصادرة عليهم[٢] .

* * *

وهكذا فجع الأزهر مرة أخرى ، فى ظل الاحتلال الفرنسى ، فى عدد من طلابه ، بعد أن فجع فى ثورة القاهرة الأولى ، فى عدد من علمائه . بيد أن الفجيعة كانت فى كل مرة عنوان زعامته الروحية والوطنية ، وكان مصرع كليبر بيد سليمان الحلبى — أحد أبنائه القدماء — وإن كانت له علاقة مباشرة بالأحداث الجارية ، وقد وقع نتيجة لتحريض القادة الترك ، يمثل من الناحية الأخرى ، انتقام الأزهر لما أصابه من اعتداء المحتلين بانتهاك حُرمه ، وتدنيس قدسيته ، ولم تكن

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) راجع تفاصيل قضية مقتل الجنرال كليبر ، ومحاكمة سليمان الحلبى ، فى كتابى « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » ص ٤٠٦ — ٤٢٧ .

« مغازاة » سليمان فى سبيل الله ، بعيدة عن هذا المعنى .

وعلى أثر دفن الجنرال كليبر ، وتنفيذ الحكم فى قاتله ، رأى الفرنسيون أن يتخذوا نحو الجامع الأزهر بعض الإجراءات التحفظية ، بعد أن اقتنعوا مما أثبته التحقيق أن الأزهر كان مهد المؤامرة ، وقد أوى إليه القاتل ودبر فيه جريمته ، وبعد ما زادت شكوكهم فى موقف علمائه ؛ ففى يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ١٢١٥ (٢١ يونيه سنة ١٨٠٠) ذهب الجنرال منو إلى الأزهر ، ومعه حاكم المدينة الجنرال بليار ، والأغا (أى المحافظ) ، وطافوا به ، وأمروا بحفر بعض الأماكن للتفتيش عن السلاح ، وكتبوا أسماء المجاورين (الطلاب) ، فى قوائم ، وأمروا بأن لا يبيت بالجامع أحد من الغرباء ، وأن لا يسمح بإيواء أى شخص آفاقى ، وأخرجوا منه سائر الطلبة الترك (ومنهم الشوام) . وتوجس المجاورون من هذه الإجراءات ، فشرعوا فى نقل متاعهم وكتبهم ، وإخلاء الأروقة ، ونقلوا الكتب الموقوفة بها إلى أماكن أخرى خارج الجامع ، وساد الجامع وأروقته جو من الوحشة والركود .

وعندئذ رأى شيخ الجامع الشيخ الشرقاوى وزملاؤه ، أن استمرار الدراسة فى مثل هذا الجو أمر متعذر ، وأنه من الأفضل أن يغلق الجامع نهائياً ، حتى تتحسن الأحوال وتزول الشكوك ؛ ففى عصر ذلك اليوم نفسه ذهب المشايخ ، الشرقاوى ، والمهدى

والصاوى ، وقابلوا الجنرال منو ، واستأذنوه فى قفل الجامع وتسميره . وهنا يقول لنا الجبرتى موضحا وجهة نظر العلماء : « وقصد المشايخ من ذلك منع الريبة بالكلية ، فإن للأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به ، واحتج بذلك على إنجاز غرضه ، ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك . فأذن كبير الفرنسيس بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطناً »(١) .

وفى صباح اليوم التالى ، أخرج سائر المجاورين ، وأغلقت أبواب الجامع الشهير ، وسمرت فى سائر الجهات . وكانت هذه أول مرة فى تاريخه يغلق فيها ، بعد أن لبث منذ إنشائه نحو ثمانية قرون ونصف ، مفتوح الأبواب لكل طالب وقاصد .

وكذلك أغلقت مدرسة (جامع) محمد بك أبى الذهب المواجهة للجامع الأزهر وسمرت أبوابها ، وأخرج منها الطلبة الأتراك(٢) .

— ٣ —

عمد الفرنسيون على أثر هذه الحوادث ، إلى اتباع سياسة القمع والعسف ، وفرض الإتاوات الثقيلة ، ونهب الدور

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٤١ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٦ .

والمتاع . وحاول الجنرال منو فى نفس الوقت أن يتقرب إلى المصريين ، فأعلن اعتناقه للإسلام ، وتزوج سيدة مصرية من رشيد ، وتسمى بعبد الله چاك منو . وأعاد تأليف الديوان ، فى اكتوبر سنة ١٨٠٠ ، بعد أن لبث معطلا بضعة أشهر ، وكان أعضاؤه فى هذه المرة تسعة فقط ، معظمهم أيضاً من كبار علماء الأزهر وهم :

الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، ورئيس الديوان . والشيخ محمد المهدى . والشيخ سليمان الفيومى . والشيخ محمد الأمير . والشيخ مصطفى الصاوى . والشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ . والسيد على الرشيدى (صهر الجنرال) . والسيد خليل البكرى . والشيخ موسى السرسى . وعُين الشيخ إسماعيل الزرقانى قاضياً ، والشاعر السيد إسماعيل الخشاب ، أميناً لمحفوظات الديوان وكاتباً لسلسلة التواريخ ، وهى عبارة عن محاضر جلسات الديوان ، وسجل الحوادث اليومية الهامة[1]. ومما هو جدير بالذكر ، أنه كان بين مشاريع الجنرال منو أن يصدر جريدة يومية بالعربية عنوانها « التنبيه » وصدر القرار بذلك بالفعل ، وعين السيد إسماعيل الخشاب رئيساً لتحريرها ،

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٤٤ . ويشير الجبرتى فى ذكر أسماء أعضاء هذا الديوان إلى نفسه بكلمة (وكاتبه) تواضعا .

ولكن القرار لم ينفذ ، ولم تصدر الجريدة .

هذا وبينما كان الجنرال منو منهمكاً فى مشاريعه ، كان الإنجليز والترك ، يعدون معداتهم الأخيرة لافتتاح مصر . وفى مارس سنة ١٨٠١ نزل الإنجليز إلى الإسكندرية ، وهرع منو فى قواته للقائهم ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الفرنسيون ، وتابع الإنجليز بعد ذلك زحفهم حتى القاهرة . وتحرك الجيش العثمانى فى نفس الوقت من العريش ، وسار حتى وصل إلى مقربة من القاهرة ، وهزمت كذلك القوات الفرنسية التى تصدت لوقفه . وعندئذ تحرج مركز الفرنسيين ، وأدركوا أنه لا مفر من النزول على ضغط الحوادث ، وقرروا المفاوضة فى عقد الصلح ، وانتهت المفاوضات بين الفريقين على أن يتم جلاء الجنود الفرنسية عن مصر ، ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم . ووقعت المعاهدة فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ، وتم جلاء جميع الفرنسيين عن البلاد فى منتصف شهر أكتوبر ، وبذلك اختتمت من تاريخ مصر صفحة مشجية ، فياضة بالحوادث والمحن ، ولكن فياضة فى نفس الوقت بعوامل اليقظة ، والنهوض القومى .

* * *

وكان قد مضى على إغلاق الجامع الأزهر زهاء عام ، فما كادت ، تذاع أنباء الصلح ، وتأهب الفرنسيين للجلاء ،

حتى بادر أولو الأمر بفتح أبوابه ، وكنسه وتنظيفه ، وإعداده لاستقبال الطلاب والأساتذة . ويضع الجبرتى تاريخ افتتاح الجامع فى يوم الاثنين ٢٤ صفر سنة ١٢١٦ هـ[١] . ويضعه على مبارك فى غاية المحرم سنة ١٢١٦ هـ[٢] . وفى يوم الجمعة التالى حضر الوزير حسن باشا ومعه الشيخ السادات ، وأديا صلاة الجمعة بالجامع بمناسبة افتتاحه . وكان يوماً حافلا . وكان لافتتاح الأزهر ، بعد ما توالى عليه خلال الإحتلال الفرنسى من الحوادث المؤسفة ، أطيب وقع فى النفوس .

والآن نحاول أن نستعرض ذكر بعض علماء الأزهر الذين ظهروا فى تلك الفترة المليئة بالحوادث الجسام ، قبيل الاحتلال الفرنسى ، وفى أثنائه ، وهم جمهرة كبيرة . وقد كان فى مقدمتهم بالطبع أعضاء الديوان ، وهم الذين اتشحوا إلى جانب مكانتهم العلمية ، بثوب الزعامة الشعبية .

وكان كبير هذه الجمهرة من العلماء الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، واسمه الأصلى عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشافعى الأزهرى ، ولد بمديرية الشرقية سنة ١١٥٠ هـ ، ومن ثم كانت شهرته بالشرقاوى ، ودرس بالأزهر ، وبرع

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٩٧ و ٢٠١ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٦ .

فى الفقة والأصول والنحو ، وتولى التدريس بالأزهر ، وبعض المدارس الأخرى ، وذاع صيته . ولما توفى الشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع فى سنة ١٢٠٨ هـ تولى المشيخة مكانه ، فعلت مكانته ، وزاد نفوذه ، واشتهر يومئذ حسبما يلاحظ الجبرتى ، بعمامته الكبيرة التى « كان يضرب بعظمها المثل » . ولما جاء الفرنسيون ، وأنشأوا الديوان لحكم القاهرة ، اختاروا لرياسته الشيخ الشرقاوى ، ثم تولى بعد ذلك رياسة الديوانين ، الثانى والثالث حسبما ذكرنا فيما تقدم . وبالرغم مما وقع بينه وبين الفرنسيين غير مرة من سوء التفاهم ، وبالرغم من أنهم اعتقلوه آخر الأمر ، قبيل جلائهم مع من اعتقلوا من العلماء بالقلعة ، فإنه كان على العموم ميالا إلى مجاملتهم ومحاسنتهم . ويقول الجبرتى « إنه انتفع فى أيامهم ، واتسعت عليه الدنيا »[1] . ولما جلا الفرنسيون عن مصر ، وتعاقبت الحوادث التى أدت إلى ولاية محمد على ، كان الشيخ الشرقاوى فى مقدمة الزعماء الذين برزوا فى هذه الفترة ، إلى جانب السيد عمر مكرم زعيم الشعب يومئذ ، وقد اشترك معه فى إلباس محمد على خلعة الولاية (يوم ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ - ١٣ مايو سنة ١٨٠٥) .

وتوفى الشيخ الشرقاوى فى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) .

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٢ .

وله مؤلفات كثيرة فى العقائد والأصول والنحو ، وكتاب فى طبقات الشافعية ، وموجز فى تاريخ مصر حتى عصره عنوانه « تحفة الناظرين » .

والشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بالصاوى ، كان من أكابر العلماء والمدرسين بالجامع الأزهر ، وقد اشتهر بنوع خاص ببراعته فى النثر والنظم ، ويصفه الجبرتى « بالناظم الناثر الفصيح الباهر » ، ويورد لنا مختارات من شعره ، وقد توفى فى سنة ١٢١٦ هـ .

والشيخ مصطفى الدمنهورى الشافعى ، تلميذ الشيخ الشرقاوى وصديقه الحميم . وكان أديباً بارعاً فى النثر ، وقد توفى عقب تعيينه بالديوان الأول بقليل فى سنة ١٢١٦ هـ .

والشيخ محمد المهدى الحفنى ، كان والده قبطياً ، واعتنق الإسلام صغيراً ، فتبناه الشيخ الحفنى ورباه ، ودرس بالأزهر دراسة مستفيضة ، وتصدر للتدريس به منذ سنة ١١٩٠ هـ ، وكان يدرس بالأخص شروح الألفية ، واشتهر بفصاحته وحسن بيانه ، فذاع صيته ؛ ولما جاء الفرنسيون وعين عضواً فى الديوان تقرب إليهم ، ونال ثقتهم وصداقتهم ، واستمر طوال عهد الإحتلال متمتعاً بنفوذه لديهم . ثم اشترك بعد ذلك فى الحوادث التى أدت إلى ولاية محمد على ، وتوفى سنة ١٢٣٠ هـ . ومما هو جدير بالذكر أنه رشح للمشيخة بعد وفاة الشيخ الشرقاوى وتولاها



الشيخ عبد الله الشرقاوى
شيخ الجامع الأزهر
ورئيس ديوان الأحكام



الشيخ محمد المهدى الحفنى
عضو ديوان الأحكام



الشيخ سليمان الفيومى
عضو ديوان الأحكام

بالفعل ، ولكنه أبعد عنها بعد يومين ، وتولاها الشيخ الشنوانى ،

والشيخ محمد بن محمد بن أحمد السنباوى المالكى الشهير بمحمد الأمير ، وقد كان من أكابر علماء الأزهر ومدرسيه ، وكان يمتاز بتضلعه فى علوم الهيئة الهندسية ، هذا إلى براعته فى العلوم الشرعية واللغوية . وقد وصفه الجبرتى « بشيخ شيوخ أهل العلم ، وصدر صدور أهل الفهم ، المتفننين فى العلوم كلها ، نقليها وعقليها وأدبيها ، إليه انتهت الرياسة فى العلوم بالديار المصرية » . وللشيخ الأمير مؤلفات كثيرة منها شروح فى الفرائض وحواشى ، وكان بارعاً فى النظم . وقد اشتهر بجرأته وشجاعته الأدبية ، واستقلاله فى الرأى . وتوفى سنة ١٢٣٢ هـ .

والشيخ سليمان الفيومى المالكى ، كان شيخاً لرواق الفيمة ، وكان من أكابر العلماء المتصدرين ، وقد اشتهر بمروءته وشهامته وعطفه على ذوى الحاجات ، وهى خلة ينوه بها الجبرتى ، ويورد بعض الحوادث التى تؤيدها ؛ ولما عمل فى الديوان ، قدره الفرنسيون قدره وأحبوه ، وقبلوا شفاعاته . بيد أنهم غضبوا عليه فى النهاية ، واعتقلوه بالقلعة مع باقى العلماء قبيل جلائهم ، وكانت وفاته فى سنة ١٢٢٤ هـ .

والشيخ موسى السرسى الشافعى ، وكان بارعاً فى الفقه والأصول والنحو والمنطق ، واشتهرت حلقاته بالأزهر ، وكان

جزلا حسن الإلقاء ؛ ولازم الشيخ العروسى أيام مشيخته ، وكان يكتب الفتاوى عن لسانه ، ويعتمده الشيخ فى المسائل الغامضة ، والمعضلات الفقهية ، وتوفى سنة ١٢١٩ هـ .

والشيخ محمد بن أحمد الدواخلى الشافعى ، تلميذ الشيخ عبد الله الشرقاوى وملازمه ، وكان يلقى دروسه بالأزهر فى الفقه والمعقولات ، واشتهرت حلقاته ، وازدحم عليه الطلاب من كل صوب ؛ ولما عين فى الديوان ، اشتهر بين الفرنسيين ، وتقرب إليهم ، وذاع صيته ، وقوى نفوذه . وكانت وفاته فى سنة ١٢٣٣ هـ .

والشيخ أحمد اللحام اليونسى المعروف بالعريشى ، برع فى الفقه والمعقولات ، واشتهر ببراعته فى الإفتاء ، فقصده الناس من كل صوب ، وتولى مشيخة رواق الشوام . وعين عضواً فى الديوان الثانى . ثم سخط عليه الفرنسيون عقب مقتل كليبر ، وعزلوه عن مشيخة الرواق لانتماء القاتل إليه ، ثم أعيد إلى حاله بعد أن تبينت براءته ، وعين أيام الجنرال منو قاضياً لمحكمة القاهرة . ولما حضر الترك بعد جلاء الفرنسيين ، عزل عن القضاء ولزم داره . وتوفى سنة ١٢١٨ هـ[١] .

---

(١) تراجع تراجم هؤلاء العلماء مفصلة كل فى وفيات أعلام السنة التى توفى فيها .

ولا بد لنا قبل أن نختتم الكلام على العلماء من أعضاء الديوان، أن نذكر مؤرخ هذا العصر، وواضع أسس الرواية عن مصر الحديثة، العلامة عبد الرحمن الجبرتى. فقد كان من أكابر العلماء يومئذ. وقد ولد الجبرتى بالقاهرة فى سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٦ م)، وكان أبوه الشيخ حسن برهان الدين الجبرتى من علماء العصر، واشتهر بالأخص بتضلعه فى المعقولات والعلوم الرياضية. ودرس عبد الرحمن على أشهر شيوخ الأزهر فى هذا العصر، وفى مقدمتهم أبوه، وتفوق فى علوم الدين واللغة، وكذلك فى الهندسة والحساب والفلك، وقد تلقاها بالأخص عن أبيه، وهو يذكر لنا كثيراً من شيوخه خلال استعراض تراجمهم فى تاريخه؛ ثم تولى التدريس بالأزهر، وكان يلقى دروسه فى الفقه والرياضة والفلك. ولما جاء الفرنسيون إلى مصر، غادر عبد الرحمن القاهرة إلى بلدة إبيار حيث توجد أملاكه، ولكنه عاد إلى القاهرة بعد قليل؛ وعكف على تدوين حوادث الإحتلال، إلى جانب ما كان قد دونه قبل ذلك، من حوادث تاريخ مصر، فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى). وبالرغم من أنه لم يظهر يومئذ فى ميدان الزعامة الشعبية، إلى جانب زملائه العلماء الآخرين، فإنه لبث يرقب الحوادث عن كثب، ويستجمع عنها الأخبار والوثائق، ويدونها يوماً فيوم. ولما ألف الجنرال

منو الديوان الثالث فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠ ﻫ ، عين الجبرتى عضواً فيه ، وألفى فى هذا التعيين ، وما يهيئه له من وسائل الاتصال والاطلاع ، ميداناً جديداً لخدمة بحوثه ، وتدعيم روايته . وهو يصف لنا طريقة عمل الديوان وإجراءاته[١] . ولما انتهى الاحتلال الفرنسى ، عكف الجبرتى على متابعة تدوينه للحوادث ، وقد كان شاهد عيان لأكثرها . واستمر فى رواية الحوادث حتى نهاية سـنة ١٢٣٦ ﻫ (١٨٢١ م) ثم مرض بعد ذلك ، وكف بصره ، وتوفى سنة ١٢٤٠ ﻫ (١٨٢٥ م) .

ويسمى الجبرتى تاريخه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار». وليس هنا مقام التحدث عن هذا الأثر العظيم ، وتحليل محتوياته الزاخرة ، ولكنا نكتفى بالقول بأنه من أجل الوثائق وأنفسها ، فى تاريخ مصر الحديث ؛ وتتسم رواية الجبرتى بالدقة ، وتحرى الحقيقة ، ونزاهة العرض ، يبدو ذلك فى كثير من تعليقاته على الحوادث والأشخاص .

وللجبرتى أثر تاريخى آخر عنوانه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » يخصصه لحوادث الإحتلال الفرنسى ، وقد استخرجه من مذكراته ، ووضعه عقب جلاء الفرنسيين عن مصر ، بإشارة الوزير يوسف باشا ، ورُفع إلى السلطان سليم

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٤٥ .

الثالث فنال استحسانه ، وترجم إلى التركية ونشر فى سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ، فى حياة مؤلفه . وقد عاد الجبرتى فأدمجه فى تاريخه ، مع زيادات وتعليقات كثيرة .

* * *

وكان ثمة إلى جانب هذه الجمهرة من علماء الأزهر الذين انتظموا فى ديوان الأحكام ، أيام الإحتلال الفرنسى ، طائفة كبيرة أخرى من العلماء ، الذين اشتهروا فى أواخر القرن الثانى عشر ، وأوائل القرن الثالث عشر ؛ وقد أورد لنا الجبرتى من أسمائهم العشرات بل المئات ؛ ونحن نكتفى بأن نذكر بعضاً من أعلامهم :

فمنهم العلامة الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف الدمنهورى ، برع فى الفقة ، وأفتى على المذاهب الأربعة ، وولى مشيخة الجامع الأزهر فى سنة ١١٨٢ هـ بعد وفاة الشيخ السجينى ، وكان عظيم الصيت والهيبة ، وله مؤلفات عديدة فى الحديث والقراءات والتوحيد ، وتوفى سنة ١١٩٢ هـ .

والشيخ أحمد بن محمد بن أحمد العدوى المالكى الشهير بالدردير ، وقد برع فى التوحيد والحديث ، وله مؤلفات كثيرة فى الفقه والتصوف ، وكان يقول الشعر ، وتوفى سنة ١٢٠١ هـ .

والعلامة الفقيه المحدث النحوى البارع الشيخ حسن الكفراوى

الشافعي الأزهري ، وسمي بالكفراوي نسبة إلى بلدة كفر الشيخ حجازي بالمحلة . وكان من أعلام مشايخ التدريس في عصره ، وتولى فضلا عن التدريس بالأزهر ، الإفتاء ومشيخة الشافعية بمدرسة أبي الذهب . وألف شرح الأجرومية الشهير ، الذي كان يدرس إلى عهد قريب بالأزهر ، وتوفي سنة ١٢٠٢ هـ .

والشيخ أحمد بن موسى العدوي المالكي المتوفى سنة ١٢١٣ هـ ، وكان من أعلام الأساتذة ، وشراح الحواشي .

والشيخ الفقيه المحدث سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي ، وكان من أعلام عصره ، وقد لبثت حلقته بالأزهر دهراً ، وألف بعض شروح وحواشي ، وتوفي بعد أن عمر أكثر من مائة عام ، في سنة ١٢٢١ هـ .

والشيخ محمد الحشني الشافعي المتوفى سنة ١٢٢١ هـ ، وكان من أبرع أساتذة الفقه ، ويصفه الجبرتي « بصدر المدرسين ، وعمدة المحققين » .

والشيخ أحمد بن علي بن محمد البرماوي الذهبي الشافعي الضرير ، المتوفى سنة ١٢٢٢ هـ ، وهو غير البرماوي شيخ الجامع الأزهر .

والشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ ، وقد برع في الفقه والمعقولات ، ودرس علوم

الحكمة والهيئة والهندسة ، وكانت يومئذ من العلوم النادرة بالأزهر ، وكان من أعلام الأساتذة الذين تزدحم الطلاب على حلقاتهم ، وكان يلقى دروسه برواق الجبرت ، واشتهر بالأخص بقوة بيانه وحسن محاضرته ، وله عدة مؤلفات وحواشي .

والشيخ مصطفى بن محمد بن يوسف الشهير بالصفوى القلعاوى الشافعى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ ، اشتهرت دروسه بالأزهر ، وألف كثيراً من الحواشي والشروح ، وكان شاعراً ، وله منظومة فى آداب البحث ، وأخرى فى متن التهذيب فى المنطق .

والشيخ إبراهيم البسيونى البجيرمى الشافعى ، الفقيه النحوى الأصولى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ ، ويضعه الجبرتى فى عداد الطبقة الأولى من العلماء .

والعلامة الشيخ محمد الشنوانى الشافعى الأزهرى ، وقد برع فى الفقه والنحو والمعقولات ، وتولى مشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ عبد الله الشرقاوى فى سنة ١٢٢٧ هـ ، وكان آية فى التواضع والانكسار ، وله تآليف كثيرة ، كانت متداولة بأيدى الطلبة إلى عهد قريب ، وقد توفى سنة ١٢٣٣ هـ .

* * *

هذا ، ونود قبل أن نختتم هذا الثبت ، من علماء الجامع الأزهر ومدرسيه ، فى أوائل القرن الثالث عشر ، أن نتحدث

عن علمين من أعلام الأزهر ، أخذا فى حوادث عصرهما بقسط بارز ، وتبوآ فى ميدان الشعر والأدب فى ذلك العصر أرفع مكانة ، وهما السيد إسماعيل الخشاب ، والشيخ حسن العطار ؛ وقد كان كلاهما صديقاً حميماً للجبرتى مؤرخ العصر ، وتوفى أولهما قبل وفاة صديقه المؤرخ ، فدون لنا عنه ترجمة بديعة ، تفيض وفاء وتقديراً ، وعاش الثانى بعد وفاة المؤرخ ، عدة أعوام أخرى ، فلم يتح له أن يترك لنا ترجمته .

فأما الأول فهو إسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب ، كان أبوه نجاراً ، واشتغل فى حداثته ببيع الخشب فى دكان أبيه ، ومن ثم كانت تسميته بالخشاب ؛ وحفظ إسماعيل القرآن ودرس الفقه بالأزهر على مشايخ العصر ، ودرس شيئاً من المعقول ، وتخصص فى الفقه الشافعى ، ثم اشتغل بحرفة الشهادة بالمحكمة ، وانكب على مطالعة كتب الأدب والتاريخ والتصوف ، وحفظ كثيراً من الشعر والنثر ، ثم نظم الشعر وبرع فيه ، وبرع فى النثر أيضاً ، واشتهر بغزير أدبه وجميل محاضرته ، وخفة روحه ، وغشى مجالس الأكابر ، وأقبلوا على صحبته ، والتمتع بمنادمته ومحادثته . ولما أنشأ الجنرال منو الديوان الثالث ، عين الخشاب أميناً لمحفوظاته ، وكاتباً لسلسلة التواريخ ؛ وقد شرح لنا الجبرتى ، وهو يومئذ عضو فى هذا الديوان ، ماهية هذا العمل فى قوله :

« ولما رتب الفرنساوية ، ديواناً لقضايا المسلمين ، تعين المترجم (الخشاب) فى كتابة التاريخ لحوادث الديوان ، وما يقع فيه من ذلك اليوم ، لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم ، وأماكن أحكامهم ، ثم يجمعون المتفرق ، فى ملخص يرفع فى سجلهم ، بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها فى جميع الجيش ، فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم . فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكر ، كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس من أمر أو نهى أو خطاب أو جواب أو خطأ أو صواب » . واستمر الخشاب مضطلعاً بهذا العمل حتى رحل الفرنسيون عن مصر . وكان الجنرال منو قد قرر أيضاً (نوفمبر سنة ١٨٠٠) ، أن يصدر جريدة يومية باللغة العربية ، اسمها «التنبيه» وعين لرآسة تحريرها الخشاب ، ولكنها لم تصدر ؛ وتعتبر هذه الجريدة بالرغم من عدم صدورها ، أول جريدة عربية أنشئت بمصر .

وكانت تجمع بين إسماعيل الخشاب ، وزميله الشيخ حسن العطار ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، صداقة متينة العرى ، وكثيراً ما كانا يجتمعان بدار المؤرخ ، وتجرى بينهما المطارحات الأدبية الرائعة « وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا مصرهما » . ولما توفى الخشاب فى سنة ١٢٣٠ ﻫ (١٨١٥ م)

تركت وفاته فراغاً كبيراً فى تلك الحلقة الأدبية ، وانطوى العطار على نفسه ولزم العزلة حيناً . وجمع العطار لزميله الراحل ديوان شعره[١] .

وأما الشيخ حسن العطار ، فهو حسن بن محمد العطار ، سمى بذلك لأن والده كان بالفعل عطاراً . وقد ولد بالقاهرة حوالى سنة ١١٨٠ هـ ، ونشأ بها ، ودرس منذ حداثته بالجامع الأزهر ، وتلقى العلم على مشايخ العصر ، وبرع فى الأصول والتفسير ، وكان يميل فى نفس الوقت إلى العلوم العقلية ويجد فى تحصيلها ، كالرياضة والهندسة والطب ، وقد وصل فى تعلمها إلى حدود لم تكن تتح للكثيرين فى هذا العصر . ولما جاء الفرنسيون إلى مصر ، فر إلى الصعيد شأن كثير من العلماء يومئذ ، ولكنه عاد إلى القاهرة ، واتصل ببعض العلماء الفرنسيين ، وأعجب بما لمسه فيهم من تفوق فى العلوم والفنون . ثم سافر إلى دمشق وأقام بها زمناً ، ثم سافر بعد ذلك إلى تركيا ، وأقام ردحاً من الزمن بمدينة إشقودرة ، وهو خلال ذلك دائب على التحصيل والتدريس ؛ وأخيراً عاد إلى مصر ، واشتغل بالتدريس بالجامع الأزهر ، وكان يلقى دروسه فى التفسير ، وتغص حلقته

---

(١) راجع ترجمة إسماعيل الخشاب فى الجبرتى ج ٤ ص ٢٥٤ وما بعدها . وتوجد من ديوان الخشاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

بالطلاب والمستمعين . وكان وافر الهيبة ، محترماً لدى الكبراء وأهل السلطان . ولما توفى الشيخ أحمد الدمهوجى شيخ الجامع الأزهر فى أواخر سنة ١٢٤٦ ﻫ ، عين الشيخ العطار مكانه شيخاً للجامع . وكان العطار من ذوى الآراء التقدمية ، الذين ينعون على الأزهر جموده وتخلفه يومئذ ، ويبغون إصلاح طرائقه وأساليبه ، حسبما يبدو ذلك فى تعليقاته فى بعض مؤلفاته ، ولكنه لم يجد يومئذ مجالا لبث آرائه والدعوة لها . وللعطار مؤلفات كثيرة فى أغراض شتى منها بعض الحواشى ، ورسائل فى الزيرجة والطب والتشريح وغيرها . وكانت وفاته فى سنة ١٢٥٠ ﻫ (١٨٣٤ م)[١] .

---

(١) وردت ترجمة الشيخ حسن العطار فى الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٨ — ٤٠ ، وقد استقاها على مبارك من ولده الشيخ أسعد العطار .

الفصل الخامس

إدارة الجامع الأزهر ومشيخته

إدارة الأزهر فى العصر الفاطمى . الخطيب والأئمة . الإشراف الأعلى فى عهد الخلفاء والسلاطين . شئون العبادات وإشراف الخطيب والإمام عليها . مشيخة الأزهر والرواية الذائعة عنها . متى أنشئ نظام المشيخة . نصوص ووقائع تتعلق بها . الرأى المرجح فى شأنها

لم يكن الجامع الأزهر حين إنشائه أكثر من مسجد رسمى للدولة ، فكان الإشراف على شئونه يجرى على نفس النمط الذى اتبع من قبل فى الإشراف على شئون المساجد الجامعة الأخرى ؛ وكان هذا الإشراف يرجع غالباً إلى ولى الأمر ، سواء مباشرة أو بطريق غير مباشر ؛ وقد أنشئ الجامع الأزهر كما رأينا على يد جوهر نائب الدولة الجديدة ، وتعهده الخلفاء الفاطميون أنفسهم بالإشراف والنفقة ، وأبدى العزيز بالله ووزيره ابن كلّس بالأخص نحوه عناية خاصة ، واكتسب فى عهدهما ، وعلى يدهما لأول مرة صفته العلمية الجامعية ؛ ولم يكن الحاكم بأمر الله أقل عناية بالأزهر من أبيه العزيز ، فقد عنى بتجديده وخصه بجانب من ريع أملاكه التى أوقفها على مساجد القاهرة . ثم جدده

الخليفة المستنصر بالله ، وجدده من بعده الخليفة الحافظ لدين الله ؛ وهكذا لبث الأزهر طوال أيام الدولة الفاطمية مشمولا برعاية الخلفاء الفاطميين واهتمامهم ، وعنايتهم بسائر شئونه .

وقد انتهت إلينا عن إدارة الأزهر الداخلية فى العصر الفاطمى إشارات عديدة تلقى ضوءاً على حقيقة النظام الذى كان متبعاً فى إدارته فى ذلك العصر . ففى سجل الوقف الذى رتبه الحاكم بأمر الله لمساجد القاهرة فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ، والذى نقل إلينا المقريزى نصه الكامل ، نجد الإشارات الآتية[١] :

١ — فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الإشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع يصرف فيما فيه عمارة له ومصلحة ، وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً . نصف دينار وثمن دينار ، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون دينارا . . .

٢ — ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة ، وخمسة عشر مؤذناً ، خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها للمصلين لكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار وثمن دينار فى كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر . ومن ذلك للمشرف على

---

(١) نشرنا هذا السجل فى نهاية الكتاب فى باب الوثائق والإحصاءات .

هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون ديناراً :

٣ – وفى سجل الوقف المذكور إشارات أخرى إلى قيمة ما رصد لكسوة الجامع الأزهر من الحصر ، ولتبخيره فى رمضان وفى أيام الجمع من العود الهندى والكافور والمسك ، وما يلزم لكنسه وإنارته من موئن القناديل والتنانير من الملح والزيت والسلاسل والحبال وغيرها ، ولوضع أزيار الماء فيه ، وما يدفع للعمال والخدم الذين يقومون بفرشه وتنظيفه ، وأداء جميع مايطلب لتجميله وإعداده للمصلين والطلاب .

ونقل إلينا المقريزى فى مواضـع أخرى إشارات لبعض مؤرخى الدولة الفاطمية عن « خطيب الجامع الأزهر » . من ذلك ما نقله عن ابن الطوير فى تقديم خطيب الجامع الأزهر فى إلقاء الخطبة بين يدى الخليفة فى أيام المواليد الستة التى كانت تحتفل بها الخلافة الفاطمية ، وهى المولد النبوى ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة القائم[1] .

كذلك نرى « خطيب الجامع الأزهر » يذكر فى وصف الاحتفال بليالى الوقود ، حيث يخطب أيضاً بين يدى الخليفة فى هذه الليالى الأربع متقدماً زملاءه من خطباء المساجد الأخرى[2].

---

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٧٦ .

(٢) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٢ .

نستطيع أن نستخلص مما تقدم أن الإشراف على الجامع الأزهر كان يجرى فى ظل الدولة الفاطمية على النحو الآتى :

فما تعلق بإصلاحه وعمارته والإنفاق عليه ، يرجع أمره إلى الخلفاء أو من يختارونه لذلك من الأمراء والوزراء .

وما تعلق بشئون الصلاة يرجع إلى الخطيب وإلى عدد من الأئمة والقومة والمؤذنين . والخطيب فى الواقع هو رئيس الجامع الدينى ، وهو الذى يتولى الخطابة فى الصلوات الجامعة ، والحفلات الدينية الرسمية بين يدى الخليفة أو نائبه ، ويدير شئون المسجد الدينيه بوجه عام .

والظاهر أن وظيفة « خطيب » الجامع الأزهر ، لبثت تنمو فى الأهمية على ممر الزمن تبعاً لنمو أهمية الأزهر نفسه ، فنراها فى أواخر الدولة الفاطمية تسند الى رجال من أصحاب المناصب الدينية الرفيعة مثل داعى الدعاة ، فقد ذكر لنا ابن ميسر فى أخبار سنة ٥١٧ هـ أنه أسند الى داعى الدعاة أبى الفخر صالح « منصب الخطابة بالجامع الأزهر » مع خزانة الكتب[١] .

أما إدارة المسجد الداخلية من فرش وتنظيف وتجميل فترجع إلى المشرف ومعاونيه من العمال والخدم .

أما ما يتعلق بشئون الدراسة والأساتذة والطلاب والنفقة

---

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٤٦ .

عليهم ، فقد رأينا أنه يرجع إلى الخلفاء وإلى ذوى البر من أكابر رجال الدولة ، وقد كان العزيز بالله ووزيره ابن كلّس أول من رتب النفقة الدائمة للقراء والأساتذة بالأزهر ، وحذا حذوهما فى ذلك الخلفاء والأمراء والكبراء ، فى مختلف الدول والعصور[١].

والظاهر أن هذا النظام فى الإشراف على الجامع الأزهر لبث متبعاً فى جوهره بعد الدولة الفاطمية ؛ فمثلا نرى فى أواخر القرن الثامن ، فى عهد الملك الظاهر برقوق ، ولاية النظر على الجامع الأزهر ، تسند فى سنة ٧٨٤ هـ إلى الطواشى بهادر مقدم المماليك السلطانية ؛ وفى أثناء ولايته صدر مرسوم ملكى يقضى بأن من توفى من مجاورى الجامع دون وارث شرعى ، وخلف تركة ، فإنها تؤول إلى زملائه المجاورين ؛ وفى سنة ٨١٨ هـ فى عهد السلطان المؤيد ، ولى نظر الجامع الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب ، فكان مما قرره منع المبيت بالجامع الأزهر ، وأخرج المجاورين الذين اعتادوا السكنى فى أروقته من المصريين والغرباء . وينعى المقريزى هذا التصرف على الأمير سودوب ، ويقول لنا إنه ترتب عليه تشريد كثير من المجاورين ، وحل بهم بلاء كبير . ولكن الظاهر أن كان لهذا التصرف حكمة ، فقد كان يغشى الجامع الأزهر تحت ستار الدرس أو المأوى كثير من السفلة

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

والرعاع ، وترتكب فيه آثام وأمور مخلة بحرمته ، من سرقات وشغب وفجور ، ولا سيما فى ليالى الموالد والحفلات الليلية ، فلجأ الأمير سودوب إلى هذا الإجراء لتطهير الجامع والمحافظة على حرمته[١] . وبعد ذلك بقيل فى زمن السلطان المؤيد أيضاً ولى نظر الجامع الخواجا شمس الدين محمد الماحورى ، أحد تجار الكارم والجوهر ، وكان من أصدقاء المؤيد ، وذلك بطريق النيابة عمن له النظر على الجامع (ولعله الأمير سودوب أيضاً) فاستعمل القسوة فى تنظيم شئونه الداخلية ، وكان يطوف ومعه عصى لردع المخالفين ، وقاسى الطلاب منه شدة[٢] . ومن الواضح أن ولاية هؤلاء الكبراء النظر على الجامع كانت تقتصر على الناحية الإدارية مما يتعلق بإصـــلاحه وتعميره والإنفاق عليه ، وتعيين الموظفين اللازمين لإدارته .

أما شئون العبادات فقد كانت دائماً من اختصاص خطيب الجامع وإمامه . وقد كان يلى خطابة الجامع الأزهر فى العصور المتأخرة ، كما فى العصور المتقدمة أكابر القضاة والعلماء ، فنرى بين خطباء الجامع الأزهر فى أواخر القرن السابع الهجرى قاضى القضاة تقى الدين أبا القاسم ابن قاضى القضاة تاج الدين ابن

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٥٤ و ٥٥ .

(٢) التبر المسبوك ص ١٩٨ .

بنت الأعز[١] ، ونرى بينهم فى أوائل القرن التاسع قاضى القضاة الحافظ ابن حجر العسقلانى[٢] ؛ وكان يوجد دائماً إلى جانب منصب الخطيب ، منصب الإمام يشـغله أيضاً بعض العلماء الأعلام ، وصاحبه يلى الخطيب فى الأهمية ، ويعاونه فى القيام بشئون العبادات . وثمة منصب هام آخر هو منصب « الواعظ » يليه أيضاً جماعة من أكابر العلماء ؛ وقد لبثت هذه المناصب الثلاثة قائمة خلال العصر التركى ، وكان من مشاهير العلماء الذين تولوا إمامة الجامع الأزهر فى العصور المتأخرة ، الفخر البلبيسى الضرير أستاذ القراءات ، تولاها فى أواخر القرن التاسع الهجرى[٣] ، والشيخ رضوان المتوفى سنة ١١١٥ هـ[٤] . ومن الذين تولوا منصب الوعظ الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطى المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، والشيخ شمس الدين الصفدى المقدسى المتوفى فى حدود التسعين وتسعمائة[٥] .

وأما شئون الدراسة فكان المرجع فيها على الأغلب إلى

---

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٨٢ .

(٢) التبر المسبوك ص ٢٣١ .

(٣) التبر السبوك ص ٣٢ ، ٧٧ ، ٢٣٩ .

(٤) الجبرتى فى عجائب الآثار ج ١ ص ٧٢ .

(٥) راجع الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة (مخطوط دار الكتب المشار إليه) .

السلطان ووزرائه . وقد كانت مناصب التدريس فى الأزهر وما إليه من المدارس الكبيرة يومئذ من المناصب الدينية الهامة ، فلا يعين فيها سـوى أكابر الأساتذة والعلماء ، بيد أنه كان للواقفين والواهبين بلا ريب رأى فى تعيين أنواع العلوم التى يخصونها بهباتهم ، وفى اختيار الأساتذة الذين يتولون تدريسها .

ويلخص الدكتور فولرز مسألة الإشراف على الأزهر فى الفقرة الآتية : « فى العصور الوسطى ، كان المشرف على الأزهر هو « الناظر » ، ويعتبر من أكابر موظفى الدولة ، وكان لكل رواق رئيسه أو شيخه أو النقيب . ومنذ العصر العثمانى فقط كان للأزهر رئيس علمى ، هو « شيخ العموم » وهو يقابل مدير الجامعة فى الجامعات الألمانية . ويكون تحت إشرافه شيوخ الأقسام المختلفة ، وهو يتعامل مع الحكومة مباشرة »(١) .

* * *

وإذا كان من المستطاع أن نتتبع بعض النصوص والإشارات التى تلقى ضوءاً على نظم الإشراف على الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى وفى عصور السلاطين ، فإنا لا نكاد نظفر بعد ذلك برواية أو نصوص شافية توضح لنا كيف تطورت هذه النظم إلى نظام المشيخة الحالى . ومن المعروف الذائع أن نظام المشيخة

---

(١) الدكتور فولرز فى مقاله الذى سبقت الإشارة إليه .

الحالى إنما هو نظام حديث يرجع على الأكثر إلى نحو قرنين ونصف ، وأنه طبق لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، حينما أسندت مشيخة الجامع الأزهر إلى الشيخ محمد بن عبد الله الخرشى المالكى المتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ١١٠١ هـ ، (١٦٩٠ م) ، وخلفه فى المشيخة الشيخ محمد النشرتى المالكى[١] ؛ ولما توفى هذا الشيخ سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٨ م) ، وقعت بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس فتنة شـديدة ، وانقسم المجاورون (الطلاب) إلى فرقتين ، ترشح إحداهما الشيخ أحمد النفراوى وترشح الأخرى الشيخ عبد الباقى القلينى وكلاهما من المالكية ؛ ووقعت بين الفريقين معارك قتل وجرح فيها كثيرون ، وانتهى الأمر باستقرار الشيخ القلينى فى المشيخة والتدريس ؛ ثم خلفه بعد وفاته الشيخ محمد شنن ، ثم الشيخ إبراهيم الفيومى المالكى ؛ ولما توفى انتقلت المشيخة إلى الشافعية لأول مرة ، وتولاها الشيخ عبد الله الشبراوى فى سنة ١١٣٧ هـ (١٧٢٥ م) ولبثت المشيخة فى الشافعية مدى حين[٢] . وما زال هذا النظام — نظام

---

(١) الواقع أن الذى خلف الشيخ الخرشى فى المشيخة ، هو العلامة إبراهيم ابن محمد بن شهاب الدين بن خالد البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ هـ ، حسبما ذكر الجبرتى نفسه فى ترجمة هذا العلامة فى موضع آخر (عجائب الآثار ج ١ ص ٧٠) .

(٢) راجع كتاب عجائب الآثار للجبرتى ج ١ ص ٢١٤ .

المشيخة ، قائماً بالجامع الأزهر الى يومنا ، حيث يقوم « شيخ الجامع الأزهر » على رياسته الدينية والإدارية .

تلك هى الرواية الذائعة عن أصل مشيخة الأزهر ما زالت تتردد منذ عصر الجبرتى وهو أول من دونها فيما يظهر ، حتى يومنا . وقد نقلها المرحوم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية دون تعليق[١] ، ثم نقلها مؤلفا الرسالتين الوحيدتين اللتين كتبتا فى عصرنا عن تاريخ الأزهر ، فأشار إليها السيد مصطفى بيرم مندوب الحكومة المصرية لدى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى ثغر همبرج فى سبتمبر سنة ١٩٠٢ (١٣٢١ هـ) فى رسالته التى تلاها على المؤتمر المذكور عن تاريخ الأزهر وشئونه[٢] ، ثم أشار ليها مؤلف كتاب « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر »[٣] .

على أنه يلوح لنا أن هذه الرواية الذائعة عن أصل مشيخة الأزهر ، هى فى الواقع رواية ينقصها التحقيق والدقة ؛ أجل إن نظام المشيخة أمر مستحدث فى رياسة الجامع الأزهر ، ولكنه يرجع فيما يظهر إلى ما قبل القرن الحادى عشر الهجرى ،

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣١ .

(٢) راجع رسالة السيد مصطفى بيرم المذكورة ص ٦٧ .

(٣) راجع كتاب « كنز الجوهر » لمؤلفه الشيخ سليمان رصد الحنفى ، (المطبوع سنة ١٣٢٢ هـ) ص ١٢٣ .

ولعله يرجع إلى أوائل العصر التركى ؛ ومن المحقق أن هذا النظام لم يكن معروفاً قبل الفتح التركى ، فلم يكن للجامع الأزهر « شيخ » من العلماء يتولى رياسته الدينية والإدارية ، ولم تكن رياسة الأزهر من الوظائف الدينية الكبرى فى الدولة المصرية ، بل كانت هذه الوظائف تنحصر حتى أوائل القرن العاشر أعنى إلى الفتح التركى فى القضاة الأربعة ، وهم القاضى الشافعى ، والقاضى الحنفى ، والقاضى المالكى ، والقاضى الحنبلى ، والمحتسب ؛ وكانت الحسبة كالقضاء وظيفة دينية يشغلها عالم دينى كبير ؛ وكان لقب شيخ الإسلام الذى أطلق فيما بعد على شيوخ الجامع الأزهر ، يطلق فى هذه العصور على كبير القضاة الأربعة وهو دائماً القاضى الشافعى . ونظام القضاة الأربعة قديم يرجع إلى عصر الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ) حيث عين فى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) قاضياً لكل مذهب من المذاهب الأربعة ؛ وكان يتولى رياسة القضاة فى مصر منذ الفتح الإسلامى قاض واحد أو قاض للقضاة ، وكان قاضى القضاة أيام الدولة الفاطمية شيعيا على مذهب الدولة القائمة ؛ فلما تبوأ صلاح الدين ملك مصر عقب انتهاء الدولة الفاطمية قطع الدعوة الشيعية ، وأعاد الدعوة العباسية وعين لمصر قاضياً من الشافعية ، واستمر الأمر على ذلك زهاء قرن حتى أنشأ الملك الظاهر نظام القضاة الأربعة :

ولما افتتح الترك العثمانيون مصر فى سنة ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧ م) تركت الأنظمة الداخلية على حالها مدى حين ؛ وفى سنة ٩٢٩ ﻫ (١٥٢٣ م) أصدر السلطان سليمان أمره بإلغاء نظام القضاة الأربعة ، وعين لرياسة القضاء فى مصر قاضيا تركيا من الحنفية ، وجعل له نواباً من المذاهب الثلاثة الأخرى .

والظاهر أن نظام مشيخة الجامع الأزهر يمت بصلة إلى هذا التغيير فى نظام الوظائف الدينية الرئيسية ؛ وقد يرجع التفكير فيه أو قيامه إلى منتصف القرن العاشر الهجرى . ذلك أن ولاة الأمر العثمانيين كانوا يعلقون على الوظائف الدينية أهمية خاصة ، وكان الجامع الأزهر يحتل يومئذ بين المساجد والمعاهد المصرية مركز الصدارة ، ويزخر دائماً بجمهرة كبيرة من العلماء المصريين وإخوانهم من سائر أنحاء العالم الإسلامى ، هم صفوة الأئمة والأساتذة فى ذلك العصر . ومن المعقول أن تكون رياسة الجامع الأزهر ذات أهمية خاصة فى نظر ولاة الأمور ؛ وإذا كان الجبرتى لم يذكر لنا شيخا للأزهر قبل الشيخ الخرشى المتوفى سنة ١١٠١ ﻫ ، فإنه من جهة أخرى لم يقل لنا بصفة قاطعة إنه كان أول من ولى المشيخة ؛ ومع أننا لم نعثر كذلك فيما أتيح لنا من المراجع على نصوص قاطعة تلقى ضوءاً واضحاً على أصل مشيخة الأزهر والوقت الذى بدأ فيه تطبيق هذا النظام ، فإنه

توجد مع ذلك ثمة قرائن عديدة تدل على أنه يرجع إلى ما قبل أواخر القرن الحادى عشر بكثير .

من ذلك ما رواه صاحب كتاب « ذخيرة الأعلام »[١] فى حديثه عن واقعة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى مع داود باشا الذى تولى ولاية مصر سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨ م) ، فقد ذكر لنا أنه حدث فى شهر شعبان سنة ٩٥٠ هـ أن الشيخ ابن عبد الحق ، قال يوماً لداود باشا وهو فى موكبه إنه رقيق لا يجوز له أن يتولى الأحكام ، وإن أحكامه باطلة ما لم يحصل على عتقه ، ثم يقول فى قصيدته التى يروى فيها تفاصيل هذه الواقعة :

لما صغى الباشا للكلام   هم بضرب الشيخ بالحسام
قال له الجند فدع جذب الحسام   فإن هذا شيخ الإسلام الإمام

وأن الجند انحازوا للشيخ ، فأرسل الباشا نبأ هذه الواقعة إلى السلطان فأنعم عليه بعتقه مع تبليغ الشكر إلى الشيخ ، وأن الباشا سعى بعد ذلك إلى الشيخ واسترضاه وقبل رجله ، ولم يقبل الشيخ

---

(١) هو كتاب « ذخيرة الأعلام ، بتواريخ الخلفاء الأعلام ، وأمراء مصر الحكام ، وقضاة قضاتها فى الأحكام » لمؤلفه الشيخ أحمد بن سعد الدين العثمانى العمرى من علماء أوائل القرن الحادى عشر الهجرى وهو مكتوب كله بالنظم (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٠٤ تاريخ) .

منه مالا ولا هدية ، ولكنه أصبح من ذلك الحين لا يرد للشيخ رأياً ولا شفاعة[١] .

والمهم فى هذه الرواية هو نعت الشيخ ابن عبد الحق « بشيخ الإسلام الإمام » فإنا نعرف أن لقب شيخ الإسلام كان يطلق قبل الفتح العثمانى على « قاضى القضاة » الشافعى ؛ وقد كان آخر من لقب بهذا اللقب من المصريين قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن على المتوفى سنة ٩٤٩ ه[٢] . فلما ألغى الترك نظام القضاة المصرى ، وأقاموا فى رياسة القضاء قاضياً تركياً حسبما قدمنا ، كان هـذا اللقب يطلق فيما بعد على أكابر العلماء الذين يصلون إلى مرتبة الزعامة العلمية أو على شيوخ الجامع الأزهر ، والأغلب أن يطلق على هؤلاء الشيوخ .

فهل كان ابن عبد الحق شيخاً للجامع الأزهر ؟ لقد قرأنا فى ترجمته أنه كان واعظاً بالجامع الأزهر ، وقال معاصره الإمام الشعرانى عنه ما يأتى : « لم نر أحداً من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله ، كان إذا نزل من فوق الكرسى ، يقتتل الناس

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المخطوط المشار إليه ورقة ١٥٠ و ١٥١ تحت عنوان (واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا) .

(٢) راجع الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة (المخطوط) ج ٢ ص ١٨٢ .

عليه ، وكان متفنناً فى العلوم الشرعية وله الباع الطويل فى معرفة مذاهب المجتهدين ، وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة ، وكان قد اشتهر فى أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم ، وصاروا يضربون به المثل ، وأذعن له علماء مصر الخاص منهم والعام » ثم قال : «ولما مات أظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين » ، وكانت وفاة ابن عبد الحق ، حسبما ذكر صاحب الكواكب السائرة فى أواخر صفر سنة ٩٥٠ ھ (١٥٤٣ م)[١] .

ولسنا نميل إلى القطع بأن ابن عبد الحق كان شيخاً للجامع الأزهر ، ولكننا نستطيع القول بأنه يوجد ثمة فى ترجمته وفيما نعته به صاحب الذخيرة ما يحمل على الظن بأنه كانت له صفة الرياسة بالأزهر من مشيخة أو غيرها[٢] .

ومن ذلك ما رواه فون همَّار مؤرخ الدولة العثمانية فى تاريخه عما حدث بمصر من الاضطرابات فى سنة ١٠٦٧ ھ (١٦٥٨ م)

---

(١) راجع الكواكب السائرة (المخطوط المشار إليه) ج ٢ ص ١٧٩ . ويلاحظ أنه توجد مفارقة بين تاريخ الوفاة فى هذه الترجمة وبين واقعة ابن عبد الحق مع داود باشا إذ قال صاحب الذخيرة إنها وقعت فى شعبان سنة ٩٥٠ ھ أى بعد تاريخ الوفاة ، فلا بد أنها وقعت قبل ذلك أو تكون الوفاة وقعت بعدها .

(٢) ذهب المغفور له أمين باشا سامى فيما أورده عن واقعة ابن عبد الحق وداود باشا نقلا عن صاحب الذخيرة إلى أبعد من ذلك حيث وصف ابن عبد الحق بأنه « شيخ الجامع » أى الجامع الأزهر (راجع كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ١٩) .

فى عهد الوالى محمد باشا المعروف بشاه سور زاده (ونقله سامى باشا فى كتابه) إذ يقول : « جرد هذا الوالى حملة ضد كاشف البهنسا محمد بك فقتل هذا الأمير وجىء برأسه إلى القاهرة . وقد قتل غيره من الأمراء ، وأدت زيادة الاضطرابات إلى أن عقد مجلس كان فيه القاضى وشيخ الجامع الأزهر وغيرهما ، فتقرر فيه الفتوى بضرورة محاربتهم لاستمرار مخالفتهم الأوامر السلطانية ، فجرد عليهم وحاربهم »[1] .

وهنا نجد أنفسنا أمام ذكر صريح « لشيخ الجامع الأزهر » وإن كنا لا نعرف من هو هذا الشيخ ، وذكره يجىء فى مناسبة تتقدم التاريخ الذى اصطلح على رد المشيخة إليه بنحو أربعين عاماً .

وإنه ليسوغ لنا بعد ما تقدم أن نرتاب فى رواية القائلين بأن مشيخة الأزهر ترجع إلى أواخر القرن الحادى عشر فقط ، وأن الشيخ الخرشى كان أول من تولاها .

والمرجح لدينا أن هذا النظام يرجع إلى أواسط القرن العاشر وأنه يمت كما قدمنا بصلة إلى التغييرات التى أحدثها الترك العثمانيون فى الوظائف الدينية الكبرى ؛ وقد كان لشيخ الجامع الأزهر وعلمائه نفوذ خاص ، يستمده ولاة الأمر كلما اقتضت

---

(١) راجع كتاب تقويم النيل ج ٢ ص ٩٥ ، وكتاب فون همار المشار إليه هو كتاب تاريخ الدولة العثمانية : Geschichte des Osmanischen Reiches .

الظروف والحوادث . وقد بلغ هذا النفوذ فيما بعد مبلغ الرياسة والزعامة فى أواخر القرن الثانى عشر ، ولاسيما وقت مقدم الحملة الفرنسية حيث كان لأكابر الشيوخ رأى بارز فى معظم الحوادث والشئون الداخلية ، وكانوا يعتبرون ممثلى الأمة فى معنى من المعانى ؛ وقد رأينا فيما تقدم كيف انتخب منهم أعضاء الديوان الذى ألفه الفرنسيون لحكم مدينة القاهرة ، وكان لهم نفوذ يذكر فى سير الحوادث فى ذلك الحين .

وإذا كنا لم نوفق إلى العثور على أسماء العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر قبل أواخر القرن الحادى عشر فذلك لأن الوقائع والمراجع تنقصنا ؛ ومن المعروف أن العصر التركى هو أكثر العصور فى تاريخ مصر الإسلامية غموضاً واضطراباً وأقلها وثائق ومراجع ، لما حدث فيه من اضمحلال الحركة الأدبية ، وفتور الهمم عن التأليف والتدوين ، وانصراف المؤرخين عن تناول الشئون العامة والأمور النافعة : إلى ملق الحكام والأكابر وتدوين سيرهم الشخصية .

هذه فروض نعتقد أنها جديرة بالتأمل ، وقد نوفق أو يوفق غيرنا يوماً إلى نصوص أو وثائق جديدة ، تلقى ضوءاً على هذه الفروض . وعندئذ يمكن أن تقال كلمة التاريخ واضحة فى أصل مشيخة الجامع الأزهر[1] .

---

(١) وقد رأينا أن نقدم فى نهاية الكتاب ثبتاً لشيوخ الجامع الأزهر مذ تولى المشيخة الشيخ الخرشى أول شيخ ذكره لنا الجبرتى حتى نهاية القرن التاسع عشر .

الفصل السادس

الجامع الأزهر والحياة العامة

مركز الأزهر فى العصر الفاطمى . مركزه أيام الأيوبيين . استعادته لنفوذه أيام السلاطين . الأزهر يتمتع بنوع من القداسة . اعتباره ملجأ وملاذا . موقفه فى ظل الحكم العثمانى . دوره فى جمع كلمة أبناء الأمم العربية . نفوذه ومكانته الشعبية منذ القرن الثامن عشر . بعض حوادث تؤيد هذا النفوذ . زعامته الشعبية والوطنية . موقفه أيام الاحتلال الفرنسى . انكماشه فى عهد محمد على . بدء اليقظة . السيد جمال الدين الأفغانى وحلقاته . أثره فى بعث الوعى الإصلاحى . بعض أعلام الأزهر فى العصر الأخير . موقفه أيام الثورة الوطنية الكبرى

كان الجامع الأزهر مدى عصور دعامة الحياة الفكرية فى مصر الإسلامية وفى العالم العربى ، ولم يكن يقتصر فى تلك العصور على القيام بمهمته كجامعة دينية وثقافية كبرى ، ولكنه كان فى نفس الوقت يشغل مكانة خطيرة فى حياة مصر العامة ؛ وكان له فضلا عن زعامته الدينية والعلمية الراسخة طوال العصور الوسطى ، نفوذه السياسى والاجتماعى العتيد .

بيد أنه يجب أن نلاحظ أن هذا النفوذ لم يبلغ فى ظل الدولة

الفاطمية ، منشئة الأزهر ، وأمه الرؤوم ، مبلغاً عظيما ، وأنه لم يكن للأزهر فى تلك المرحلة الأولى من حياته ، أثر ملحوظ فى توجيه الحياة السياسية . ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تحرص على سلطانها السياسى أشد الحرص ، وتغرق فى التمسك بعصبيتها المذهبية ،ولا تفسح كبير مجال لنفوذ العلماء وجال الدين خصوصاً إذا لم يكونوا من أوليائها وحملة دعوتها ؛ ولم تكن عنايتها بنشر دعوتها المذهبية ، إلا توطيداً لدعوتها السياسية ، ولم يكن للدعاة من العلماء ورجال الدين من النفوذ المستقل إلا ما يتجه نحو هذه الغاية ، ويخضع لسياسة الدولة العامة . كذلك لم يكن للفقهاء والمشترعين المستقلين كبير أثر فى سير التشريع فى ذلك العصر ، لأن الدولة الفاطمية كانت تهتدى فى صوغ قوانينها بمبادئها المذهبية الخالصة ، ومن ثم فإنا لا نستطيع أن نلمس أثراً يذكر لرجال العلم والدين فى الحياة العامة ، أو فى توجيه السياسة والتشريع ، فى العصر الفاطمى ، وهو أثر ظهر قوياً بارزاً ، فيما بعد ، فى دول السلاطين .

ومضى على الأزهر فى ظل الدولة الأيوبية التى خلفت الدولة الفاطمية واستولت على تراثها زهاء قرن ، وهو مسلوب المكانة والنفوذ . ذلك أن صلاح الدين ، منشئ الدولة الجديدة ، رأى فى الأزهر رمزاً رسمياً لامعاً من رموز الدولة القديمة ، فقضى

بإطفائه ، ورسم بتعطيل صلاة الجمعة الرسمية بالأزهر : بيد أن هـذه الضربة التى وجهت إلى نفوذ الأزهر الدينى ، والتى استطالت زهاء مائة عام ، لم تذهب بنفوذه العلمى . فلما أتيح له فى عصر الملك الظاهر ، أن يتحرر من هذه العثرة ، وأن يسترد نفوذه الدينى بعود الخطبة الرسمية إليه ، وأن يوطد نفوذه العلمى فى نفس الوقت ، استطاع أن يحتل فى ظل دول السلاطين مكانته الحقة فى حياة مصر العامة . ومنذ القرن السابع الهجرى ، يغدو الأزهر بنفوذه الدينى والعلمى ، عنصراً بارزاً فى توجيه الشئون العامة . وكان علماء الأزهر فى تلك العصور يستأثرون بكثير من المناصب الهامة ، ويشغل كثير منهم مناصب سياسية ذات شأن فى البلاط وفى الحكومة . وحسبك أن تعلم أن مناصب القضاة الأربعة ، ومنها منصب قاضى القضاة ، ومناصب نواب القضاء ، ومنصب المحتسب ، كانت بطبيعتها وقفاً على العلماء ؛ هذا فضلا عن مناصب الوزارة ، ولاسيما ديوان الإنشاء ، وديوان الأحباس ، وغيرها من وظائف الدولة الكبرى ، فقد كان يشغلها فى معظم الأحيان رجال من العلماء (رجال القلم) ، وكان كثير منهم يجمع بين منصبه العام ، ومنصب التدريس بالجامع الأزهر ، أو بإحدى المدارس الكبرى ؛ وكان لهؤلاء العلماء الذين يتبوؤون الصدارة فى وظائف الدولة ، نفوذ كبير ؛ وكان هذا النفوذ يصل

فى بعض الأحيان إلى حد التأثير فى تعيين الولاة والسلاطين ؛ وربما كان لفتوى قاضى القضاة ، أثرها فى تغيير مصاير العرش ؛ أو فى تعضيد مركز والٍ أو سلطان .

ولم يكن الأمر قاصراً على ذلك ؛ فقد كان الأزهر يتمتع بنوع من القدسية ، وتتجه إليه الأبصار أيام المحن والأزمات العامة ، من وباء أو غلاء أو شرق أو غيرها . وقد نقل إلينا المؤرخون كثيراً من الحوادث المؤيدة لذلك . ففى سنة ٧٩٨ هـ (١٣٩٦ م) حينما وقع الغلاء العظيم بمصر ، فى عهد الملك الظاهر برقوق ، توجه قاضى القضاة ، شيخ الإسلام ، سراج الدين البلقينى إلى الجامع الأزهر ، واجتمعت حوله حشود عظيمة من الناس وصلوا صلاة الإبتهال والدعاء بكشف الغمة[١] ؛ وكان القرآن يقرأ فى رمضان ، وأحياناً يقرأ البخارى كذلك مقروناً بالدعاء للسلطان بالسلامة والنصر على أعدائه (سنة ٨٨٢ هـ) ، ومن ذلك قراءة الختمة بالجامع الأزهر حينما توجه السلطان سليم العثمانى لمحاربة إسماعيل شاه الصوفى عاهل الفرس (٩٢٤هـ)[٢] . وقد كان السلطان سليم نفسه حينما دخل القاهرة ، يزور الجامع الأزهر من آن لآخر ، ويصلى فيه صلاة الجمعة ، متبركاً بقدسيته[٣] .

---

(١) راجع تاريخ ابن إياس ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) تاريخ ابن إياس ج ٢ ص ١٧٧ ، و ج ٣ ص ١٦٧ .

(٣) تاريخ ابن إياس ج ٣ ص ١١٦ و ١٣٢ .

ولما اشتد الوباء فى القاهرة فى سنة ١١٧٢ هـ (١٧٥٨ م) ، طلب الطلاب أن تقرأ بالجامع دروس البخارى ابتهالا إلى الله بوقف الوباء . وكان الأزهر فوق ذلك كله يعتبر ملاذاً وملجأ حراماً يتمتع بحصانة خارقة ، فكان يلجأ إليه أحياناً المضطهدون ، والفارون من المطاردة السياسية أو غيرها ، وقد أورد لنا ابن إياس أمثلة من ذلك . ففى سنة ٨٩٥ هـ ، التجأ إليه مماليك الدوادار أقبردى ، وأقاموا به أياماً خوفاً على حياتهم من المطاردة ، ثم آل الأمر إلى أن نفى بعضهم إلى قوص ، والبعض الآخر إلى الشأم ، وهدأت الفتنة[1] . ولما دخل العثمانيون مصر ، التجأ إلى الجامع الأزهر عدة من الأمراء والوزراء خوفاً على حياتهم ، ولم يخرجوا منه إلا بالأمان[2] .

* * *

ولبث الأزهر على هيبته ، ورفيع مكانته ، ولبث علماؤه يتمتعون بنفوذهم القوى فى حياة مصر العامة زهاء ثلاثة قرون ، حتى كان الفتح العثمانى . وكان من الطبيعى أن يفقد الأزهر فى ظل هذا الحكم الأجنبى كثيراً من نفوذه القديم : على أنه بقى كما أسلفنا محتفظاً ، بزعامته العلمية والفكرية ، ونفوذه الروحى القديم ؛ وقد كان بفضل هذه الزعامة ، يستطيع أحياناً أن يزاول

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) ابن إياس ج ٣ ص ١٢٦ .

بعض نفوذه السياسى القديم ؛ وكان تدخل شيوخ الأزهر يعاون أحياناً فى تغيير الولاة الطغاة ، خصوصاً متى كان الشعب من ورائهم ، وقد كان الشعب دائماً ، فى تلك الحقبة الطويلة ، يعتبر شيوخ الأزهر وعلماءه ، زعماءه الحقيقيين ، ومن ثم فقد كان الولاة يحيطون الأزهر وشيوخه برقابتهم الساهرة . وكان ثمة باعث آخر لتوجس الولاة الترك من الأزهر ورجاله ، ذلك أنه لبث فى تلك العصور موئل العلماء والطلاب من سائر الأمم العربية ، وهى الأمم التى سيطر عليها الغزاة العثمانيون ، وقضوا على استقلالها وحرياتها ، ولبثوا يعملون على تمكين نيرهم من أعناقها ؛ وكان الأزهر لهذه الأمم ، بمثابة جامعة قومية وثقافية مشتركة ، تعمل على توحيد أمانيهم وآمالهم ، وتوحيد جهودهم فى حماية التراث الحضارى والفكرى المشترك ، وبالأخص فى حماية اللغة العربية عماد هذا التراث العظيم . وكان الولاة الترك يخشون دائماً أن ينمو هذا الشعور المشترك بين أبناء مصر والأمم العربية الشقيقة ، وينظرون إلى اجتماعهم فى حلقات الدرس بين أسوار الأزهر ، بعين التوجس والريب ، خشية أن يمهد هذا الشعور إلى حركة تحريرية ، فكرية وسياسية ، تغدو خطراً على نفوذهم وسيادتهم .

ولما أخذ الحكم التركى فى الاضمحلال والضعف ، وأخذت

الأمة المصرية تستيقظ من سباتها الطويل ، منذ أواخر القرن الثانى عشر ، وبدأت البوادر الأولى لاستقلال مصر الذاتى تبدو فى الأفق ، عاد الأزهر يتمتع بنفوذه القديم فى الشئون العامة ، ويقف علماؤه وراء الولاة والحكام، يهدونهم بالتوجيه والنصح ، ويحاولون من آن لآخر بنفوذهم ومساعيهم ، أن يرفعوا بعض أنواع المظالم عن كاهل الشعب . والواقع أن الأزهر ، كان فى تلك الفترة التى اضطربت فيها الأحكام ، وكثرت صنوف التعسف والمظالم ، يعتبر كعبة للمظلومين وذوى الحاجات ، يؤمونه كلما اشتد بهم الكرب ، أو وقع عليهم الحيف ، ويتولى العلماء بما لهم من الهيبة والنفوذ رفع ظلاماتهم إلى أولياء الأمر ، وقد يفلحون فى أحيان كثيرة فى رفع هذه المظالم أو شىء منها .

وقد أورد لنا الجبرتى طائفة من الحوادث من هذا النوع تؤيد صفة الأزهر ، كراع لمصالح الشعب ، ومدافع عن حقوقه .

قال فى حوادث سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٤ م) : اشتكى أرباب الأوقاف ، والعلماء والمجاورون بالأزهر ، إلى على باشا ، امتناع الملتزمين عن دفع خراج الأوقاف ، وخراج الرزق المرصدة على المساجد ، فأمر الملتزمين بدفع ما عليهم من غير توقف . فامتثلوا[١] .

وفى حوادث سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٨ م) ، حينما اشتد

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٦ .

إسماعيل بك الكبير فى طلب الأموال من التجار ، أنه قد ذهبت طوائف كبيرة منهم إلى الجامع الأزهر ، وضجوا واستغاثوا ؛ وكتب العلماء عريضة إلى إسماعيل بك حملها إليه الشيخ سليمان الفيومى ، ثم عاد الشيخ ومعه تذكرة من إسماعيل بك ، مضمونها الأمان والعفو عن الطوائف المذكورة(١) ؛

وفى حوادث سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ، أنه كثر اعتداء أحمد أغا الوالى على أهل الحسينية من حبس وضرب ، ونهب وغيرها . فثاروا لذلك ، وأغلقوا الدكاكين والأسواق ، وذهبت منهم طائفة كبيرة إلى الجامع الأزهر ، وصعدوا على المنارات وهم يصرخون ، وأبطلوا الدروس ، فطمأنهم الشيخ العروسى ، شيخ الجامع . وبعد مباحثات ومراسلات مختلفة ، ركب المشايخ إلى بيت البكرى ، وحضر هناك إسماعيل بك ، والتزم بعزل الوالى ، وانتهى الأمر بعزله فعلا ، ونزل الوالى الجديد من الديوان إلى الأزهر ، وقابل المشايخ واسترضاهم(٢) ؛

وفى حوادث سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، أنه قد حضر أهالى مصر القديمة إلى الجامع الأزهر يشكون ويستغيثون من أفعال الجند الدالاتية واعتداءاتهم ، حيث احتلوا دورهم ونهبوها ، وسبوا

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ٢٠١ .

نساءهم ؛ فركب مشايخ الأزهر إلى الباشا (الوالى التركى) وخاطبوه فى الأمر ، فكتب فرمانا بخطه للدالاتية بالخروج من الدور ، والكف عن الإعتداء ، فلم يمتثلوا ؛ فغضب المشايخ ، وتركوا الجامع ، وأوقفوا الدراسة ، ولزموا بيوتهم ، وأقفل غالب الأسواق . ولمـا تفاقم عدوان الدالاتية فى القاهرة ، والأقاليم القريبة ، واشتدت الأزمة ، طلب الباشا القضاة والعلماء ، فأبوا الذهاب إليه ، ثم ساروا بصحبة السيد عمر مكرم إلى محمد على وطلبوا منه أن يقبل الولاية[1] .

وفى حوادث سنة ١٢٢٩هـ (١٨١٤ م) ، أنه حضرت طائفة من النساء الملتزمات إلى الجامع الأزهر ، وصرخوا فى وجوه الفقهاء وأبطلوا الدروس ، واستمروا فى هرج حتى العصر ، وهن يطالبن بالإفراج عن حصصهن من الرزق والمعاشات .

وهنا يقول الجبرتى معلقاً على مسعاهن ، ومشيراً إلى ما عمد إليه محمد على من وضع يد على سائر الرزق والإلتزامات « وفى ظن الناس وغفلتهم أن فى الإناء بقية وأنهم يدفعون الرزية ، وما علموا أن البساط قد انطوى ، وكل قد ضل وغوى ، ومال عن الصراط واتبع الهوى ، وكلب الجور قد كشر أنيابه وعوى ، ولم يجد له طارداً ولا معارضاً ولا معاندا »[2] .

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ٢١٧ و ٢١٨ .

ونستطيع على ضوء هذه الوقائع ، أن نقدر أهمية الدور الذى كان يضطلع به علماء الأزهر ، فى ذلك العصر ، فى تولى التعبير عن آلام الشعب ومظالمه ، وفى طلب الانتصاف له ، وتحقيق رغباته ؛

ومن جهة أخرى ، فقد كان ولاة الأمر أنفسهم ، يلجأون أحياناً إلى شيوخ الأزهر ، لإصدار الفتاوى المناسبة فى الأزمات السياسية ، ومحاولة الاستناد إليها فى تدعيم وجهات نظرهم ؛ مثال ذلك ما حدث فى سنة ١٢٠٢ هـ أيام مشيخة الشيخ أحمد العروسى ، وهو أن الباشا (الوالى) طلب فتوى بشرعية قتال المماليك ، الذين كانوا قد نفوا إلى الوجه القبلى ، ثم نقضوا العهد ، وعادوا فتحركوا إلى الشمال ، فكتبت الفتوى بجواز قتالهم [١] ؛

* * *

على أن أهم ما تميزت به مكانة الأزهر فى أواخر القرن الثانى عشر ، هو زعامته الشعبية والوطنية ؛ وقد تجلت هذه الزعامة بأورع مظاهرها ، أيام الإحتلال الفرنسى ، حيث تولى الجامع الأزهر ، شيوخه وطلابه ، قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها ، وكان على رأس كل ثورة وطنية ، اضطرمت بها القاهرة ضد المحتلين ؛ وقد احتمل الأزهر خلال تلك الحوادث العصيبة أعظم التضحيات ، فضرب بالقنابل ، وانتهكت حرمته واحتلت ساحاته

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٦٦ .

وأروقته ، وأعدم عدة من شيوخه وطلابه ، ثم انتهى الأمر بغلقه ، وتشريد علمائه وطلابه ؛ كل ذلك حسبما فصلناه من قبل عند الكلام على تاريخ الأزهر وقت الإحتلال الفرنسى .

وكان للأزهر وعلمائه بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، شأن يذكر فى تعضيد محمد على ، وتأييده فى المطالبة بولاية مصر ، وفى المعارضة فى عزله واستبداله بغيره ، وقد تدخل علماؤه بعرائضهم إلى السلطان لتأييده غير مرة ، وكان لموقفهم أثره فى حشد الشعب من حوله ، والتمهيد لظفره ، وتوطيد مركزه ، وذلك بالتعاون مع الزعيم الوطنى الكبير ، السيد عمر مكرم ؛ وقد كللت مساعيهم يومئذ بالنجاح ، واشترك شيخ الجامع الأزهر ، وهو يومئذ الشيخ عبد الله الشرقاوى ، مع السيد عمر مكرم ، فى إلباس خلعه الولاية لمحمد على ، وذلك فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥ م) .

والخلاصة أن الأزهر ، لبث خلال مختلف العصور والدول ، محتفظاً بمكانته ونفوذه . وقد يتضاءل هذا النفوذ أحياناً تحت ضغط سلطان الطغيان السياسى ، ولكنه يبقى كامناً يبدو عند أول فرصة . وقد كان العصر التركى أشد العصور وطأة على الأزهر ، كما كان أشد العصور وطأة ، على الأمة المصرية كلها ، ولكنه استطاع خلال المحنة ، أن يحتفظ بكثير من قوته

ونفوذه ، حسبما دلت على ذلك حوادث الإحتلال الفرنسى ؛ ولما انتهت المحنة ، واضطر الغزاة ، وأضرابهم من الإنجليز والترك ، إلى الجلاء عن البلاد ، وهدأت الأحوال نوعاً ، واستقر العهد الجديد — عهد محمد على — ، لاح للأزهر أن العهد الجديد يأبى أن يفسح لنفوذة القديم مجالا ، وأنه يراد به أن يلزم السكينة ، والابتعاد عن الشئون العامة ، وأنه لن يحظى حتى بالمحافظة ، على حقوقه وأرزاقه القديمة ، وهو ما كان متمتعاً به فى سائر العصور .

ذلك أنه كان فى مقدمة أعمال محمد على ، أن أحصيت جميع الرزق والأحباس (الأوقاف) المرصدة على المساجد والخيرات ، الكائنة بمصر والصعيد ، وأوقاف سلاطين مصر المتقدمين وخيراتهم ومساجدهم ومكاتبهم ، وفرضت عليها الأموال الباهظة (سنة ١٢٢٧ هـ — ١٨١٢ م) ، فاحتج المشايخ على ذلك ، وحاولوا عبثاً مخاطبة الباشا فى إلغاء قراره(١) . وكان لذلك أثره فى اقتطاع موارد الأزهر ، وفى التضييق على الأساتذة والطلاب . يقول الدكتور فولرز : « لم يتردد محمد على فى أن يصادر الأراضى الموقوفة على الأزهر ، وهى واسعة الرقعة ، بالرغم من أنها موقوفة عليه ، وبذلك أوقع أضراراً بليغة

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٥١ و ١٦٤ .

بالأساتذة والطلاب »[١] . ويلاحظ العلامة المستشرق إدوارد لاين ، وقد وفد على القاهرة ، بعد ذلك الحادث بقليل ، « أنه مذ نزعت ملكية الأراضى التى كانت مملوكة للأزهر ، قل عدد الطلبة الذين ينتمون إلى الأروقة قلة ظاهرة »[٢] .

ومن الأسف أن هذه الواقعة التاريخية ، وهى استيلاء محمد على على أوقاف المساجد ومواردها ، وفى مقدمتها الجامع الأزهر ، وهى التى يذكرها الجبرتى فى غير موضع ، وينوه بها العالمان الأجنبيان ، لم تلق صدى فى كل ما كتب عن تاريخ مصر فى هذا العصر ، ولم يذكرها أو يشير إليها بالأخص ، أحد من أولئك الذين كثيراً ما تحدثوا فى كتبهم ونشراتهم عن « مآثر الأسرة العلوية » على الجامع الأزهر .

وهكذا شعر الأزهر أنه بعيد عن حظوة العهد الجديد ورعايته . ومن جهة أخرى فقد كان للتطورات الفكرية والاجتماعية التى ترتبت على حوادث الغزو الفرنسى ، ويقظة الأمة من سباتها الطويل ، وتطلعها إلى آفاق أوسع ، وما تميز به العهد الجديد ، من تحول سير التعليم والثقافة إلى وجهات جديدة ،

---

(١) فى مقاله الذى سبقت الإشارة إليه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) E. Lane : Manners and Customs of Modern Egyptians (Everyman) P. 216

أقرب إلى روح العصر ومقتضياته ؛ كان لذلك كله أثره فى الرغبة عن العلوم الأزهرية ، وفى ركود الدراسة بالأزهر ، وفى ضعف نفوذه وهيبته القديمة ، وبعده عن المشاركة فى الحياة العامة .

ولبث الأزهر زهاء نصف قرن فى حالة عزلة وركود ، بعيداً عن مجاراة التيارات الثقافية الجديدة التى اتجهت إليها مصر ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وانكمش نفوذه القديم انكماشاً ظاهراً . ولكنه أخذ منذ عصر إسماعيل يتأثر بتيار الحركة الإصلاحية الجديدة (وسنتحدث فيما يتعلق منها بالأزهر فى موضع آخر) ، وينفض عنه غبار الركود والانكماش . وحدث فى ذلك الوقت بالذات ، حادث كان له أثر عميق فى مضاعفة وعى الأزهر وطموحه إلى مثل التحرر والتجديد . ذلك هو مقدم العلامة والمصلح الكبير السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، واتصاله بالأزهر وطلابه .

جاء السيد جمال الدين[١] إلى مصر لأول مرة فى أوائل سنة ١٨٧٠ م ، يسبقه صيته ، فاتجهت إليه الأنظار ، وأخذ يتردد على الجامع الأزهر ، ويهرع الأساتذة والطلاب إلى لقائه والاستماع إليه ، وقد آنسوا سعة أفقه ، وحدة ذهنه ، وسمو

---

(١) كان مولد السيد جمال الدين الأفغانى فى بلدة سعد آباد من أعمال كابول عاصمة أفغانستان فى سنة ١٨٣٨ م .

روحه : وكان السيد يحاضرهم فى العلوم الرياضية ، والكلام والفلسفة ، بأسلوب جزل مؤثر ، وكان يعقد حلقاته فى داره الخاصة بخان الخليلى . ولم تطل إقامة السيد بمصر هذه المرة ، فغادرها بعد بضعة أسابيع إلى الإستانة ، ثم عاد منها ثانية إلى مصر .

وجاء السيد جمال الدين إلى مصر للمرة الثانية فى مارس سنة ١٨٧١ ؛ فأبدت له الحكومة (عن طريق رياض باشا ناظر النظار يومئذ) ترحيبها ورعايتها ، وعينت له راتباً شهرياً قدره ألف قرش ، وهرع إليه طلبة العلم يلتمسون الإفادة ، فكان يعقد لهم الدروس بداره ، ويحاضرهم فى علوم الكلام ، والفقه ، والفلك ، والتصوف ، والفلسفة ، بأسلوبه الأخاذ ؛ وكان طلاب الأزهر فى مقدمة مستمعيه ، ولكن كان يحضر إلى جانبهم كثير من الموظفين والأعيان وغيرهم ، وكان يذهب إلى الجامع الأزهر فى كل جمعة . ويقول لنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وكان من أخص تلاميذ السيد جمال الدين وأصدقائه ، إنه كان يتجه فى محاضراته دائماً « إلى الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة ، مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ؛ وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ،

فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد ، خصوصاً فى القاهرة » . ويشيد الأستاذ الإمام أيضاً بتأثير محاضرات السيد جمال الدين ، وأسلوبه الجزل القوى الواضح ، فى أساليب الكتابة يومئذ ، وتحررها من السجع الأجوف والتكرار المملول .

ونفى السيد من مصر فى أغسطس سنة ١٨٧٩ بوحى عمال الإستعمار ووشاياتهم إلى الخديو ، وأخذ قسرا إلى الهند ، فلبث هنالك بضعة أعوام ؛ ولما انتهت الثورة العرابية ، واحتل الإنجليز مصر ، سمح له بالسفر ، فسافر إلى لندن ، ثم إلى باريس ، واستقر بها حيناً ، وهنالك وافاه تلميذه وصديقه الوفى الشيخ محمد عبده ، وعكفا معاً على إصدار مجلة « العروة الوثقى » ، التى اشتهرت بحملاتها الملتهبة على الاستعمار ، وجهادها المضطرم فى سبيل تحرير الأمم الشرقية المستعبدة ، ولبث السيد يتنقل بعد ذلك حيناً بين باريس ولندن . ثم ذهب إلى فارس بدعوة من الشاه ، وأقام بها حينا يعمل على إصلاح شؤونها ، ولكن الشاه انقلب عليه بعد ذلك ، ونفاه . فذهب السيد إلى لندن ، وهنالك تلقى دعوة من الحكومة التركية بالذهاب إلى الإستانة ، فذهب إليها فى سنة ١٨٩٢ ، وأغدق السلطان عبد الحميد عليه عطفه فى البداية ، ولكنه سخط عليه بعد ذلك ، وأساء الظن به من أثر وشايات

خصومه ، ووضع تحت الرقابة وضيق عليه ؛ ثم مرض السيد بعد ذلك ، وظهرت أعراض السرطان فى فمه ، وعملت له عملية جراحية بمعرفة جراح السلطان الخاص ، فلم تنجح ، وساءت حالته بعد ذلك وتوفى فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ . وقيل إنه توفى غيلة بتحريض السلطان ، وكان ضحية معالجة أثيمة ، رتبت للقضاء عليه[١] .

وما نود أن ننوه به هنا ، هو النزعة الإصلاحية العميقة ، التى بثتها تعاليم السيد جمال الدين فى البيئة الأزهرية ، والتى كان لها أثرها — إلى جانب العوامل الأخرى التى اجتمعت يومئذ — فى إيقاظ الأزهر ، ودفعه إلى محاولة التمشى مع التطورات الجديدة ، والمشاركة فى الأحداث القومية العامة . وقد كانت حلقات السيد جمال الدين تضم نخبة من الطلاب الأزهريين الذين ظهروا فى ميدان الحوادث فيما بعد ، وفى طليعتهم الشيخ محمد عبده . ولما قامت الثورة العرابية كان كثير من زعمائها المفكرين ، من علماء الأزهر وطلابه ، بل كان زعيمها الأول أحمد عرابى نفسه ، ممن تلقوا العلم فى الأزهر .

---

(١) انتفعت فى هذه النبذة الموجزة التى أوردتها عن السيد جمال الدين ، بالفصل المستفيض الممتع الذى كتبه عنه صديقى العلامة المؤرخ الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « عصر إسماعيل » (الجزء الثانى ص ١٤٨ — ١٧٦) .

وامتازت الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين ، بظهور طائفة من نوابغ المفكرين والصحفيين والأدباء ، الذين درسوا فى الجامع الأزهر ، وكان لهم أثر يذكر فى توجيه الرأى العام ، وإيقاظ الشعور الوطنى ، كما كان لهم أثر فى تطور الحركة الأدبية والنهوض بها ، وفى صقل الأساليب الأدبية والصحفية . ونستطيع أن نذكر من هؤلاء بعض أسماء قليلة للتمثيل فقط ؛ فمن الرعيل الأول الشيخ حسين المرصفى ، والشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد عبده ، وعلى يوسف ، والسيد توفيق البكرى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ؛ ومن الرعيل الأحدث عهداً ، الدكتور طه حسين ، وأحمد أمين ، وأحمد حسن الزيات ، وعبد العزيز البشرى ، ومصطفى عبد الرازق ، وشقيقه على عبد الرازق ، وهو الرعيل الذى يلوح لنا أن الأزهر قد وقف عنده ، ولم تبد حتى اليوم لنا طلائع خلفائه ، من المفكرين والكتاب اللامعين ، الذين تمتزج لديهم الثقافة العربية المؤثلة ، وقد صقلتها الثقافة الغربية ، ومناهجها المحدثة .

وشغل الأزهر خلال هذه الفترة بالذات بشئونه الإصلاحية الخاصة ، حسبما نفصل بعد ، فى الفصل الخاص بذلك ؛ بيد أنه كان خلال انشغاله بهذه الشئون ، يجيش بنزعة كامنة من نزعاته القديمة ، التى كانت تدفعه ، إذا ما جد الخطب ، إلى ميدان

الجهاد الوطنى . وقد شاء القدر أن يتيح للأزهر غير بعيد ، فرصة الجهاد مرة أخرى ، كما أتيحت له أيام الاحتلال الفرنسى :

لم ينس بعد أبناء الجيل الحاضر ، ذلك الدور العظيم الذى قام به الأزهر فى الثورة الوطنية الكبرى ، التى اضطرمت ضد الإنجليز ، فى ربيع سنة ١٩١٩ ، فقد كان الجامع الأزهر ، صحنه وأروقته ساحة من أهم ساحاتها . وقد اضطلع رجال الأزهر ، أساتذته وطلابه . بدور بارز فى إذكاء روح الثورة ، وتعهد غرسها . وكان الأزهر خلال هذه الفترة العصيبة ، مركزاً من أهم المراكز لتنظيم المظاهرات الوطنية الكبرى ، وكان الألوف من طلابه قوام هذه المظاهرات التى لبثت حيناً تزعج المحتلين ، وتلهب الشعور الوطنى . وأهم من ذلك أن الأزهر كان يومئذ موئلا لطائفة كبيرة ، من قادة الثورة وخطبائها ، يتصدرون الجموع الغفيرة فى ساحاته ، ويلقون فيها الخطب الملتهبة . وكان أبرز ما فى هذه المظاهر الوطنية التاريخية ، اجتماع العلماء والقساوسة — المسلمين والأقباط — فى صعيد واحد ، وتناوبهم الخطابة فى الجماهير ، فكان الأزهر ، فوق ذلك كله ، منبراً للوحدة القومية المقدسة ، التى تجلت فى هذه الأيام فى أروع مظاهرها .

وقد أثار موقف الأزهر يومئذ ثائرة المحتلين ، فحاولوا القضاء على تلك الحركة بالقوة الغاشمة ، وأمروا بمنع الاجتماعات

بالأزهر ، واحتلت الجنود الإنجليز مشارفه ورابطت أمام أبوابه ؛ بل ذهبت فى ذلك إلى محاولة غلق الأزهر ، وطلبت إلى شيخه يومئذ (وهو الشيخ أبو الفضل الجيزاوى) أن يقوم بغلقه فرفض ، واحتج بأنه مسجد تقام فيه الشعائر الدينية . ولبث الجامع الشهير مفتوحاً كعهده ، ولبثت المظاهرات تنظم من حوله وفى داخله ، بشتى الوسائل والمحاولات ، التى لم تجد فيها حراب الإنجليز ورصاصهم .

وفى هـذا الإستعراض الموجز لموقف الأزهر من الحياة العامة ، وصلته بالأحداث القومية ، خلال العصور المختلفة ، ما يكفى لإبراز ماضيه الحافل ، فى ميدان الشئون العامة والجهاد الوطنى ، إلى جانب ماضيه التالد فى ميدان الجهاد العلمى .

الفصل السابع

عهد التطور والإصلاح

نهوض الحركة الفكرية . عوامل التطور الجديد . تأثر شيوخ الأزهر بمشاهد العلم الحديث . وصف لأحوال الأزهر فى أوائل القرن التاسع عشر . النهضة الثقافية فى عهد محمد على وطابعها الجديد . عزلة الأزهر وقصوره عن مجاراة النهضة . بوادر اليقظة والإصلاح . أول قانون نظامى للأزهر . قانون كساوى العلماء . قانون سنة ١٩١٢ . إنشاء الجامعة الأزهرية وفقاً لقانونى سنة ١٩٣٠ و ١٩٣٦ . تعليقات وتأملات

كانت حوادث الحملة الفرنسية وما ترتب عليها من تطورات داخلية وخارجية ، إيذاناً بتحرير مصر من نير الحكم التركى ، فأخذت مصر تستقبل عصراً جديداً ، وأخذت الحركة الفكرية تستيقظ شيئاً فشيئاً من سباتها العميق . بيد أنها اتجهت عندئذ وجهة جديدة . وقد كانت عوامل هذا التطور الفكرى تعمل عملها منذ حين فى ظل الثورة السياسية والاجتماعية ، التى شملت أوضاع الحياة القديمة كلها . وفى هذه الفترة القصيرة التى قضتها الحملة الفرنسية بمصر ، استطاع بعض العلماء والمفكرين المصريين أن يشهدوا عن قرب مظاهر حضارة جديدة متقدمة ، وأن

يقفوا على طرف من خواص العقلية الغربية ومناهجها فى التفكير والعمل . وكان نشاط البعثة العلمية التى قدمت فى ركب الغزاة ، وجهود العلماء الذين تتألف منهم ، فى مختلف ميادين الدرس والبحث ، من أعظم المظاهر المادية التى أحدثت أثرها فى هذا التطور ، الذى لم تنضج عوامله وتتضح وجهته ، إلا بعد ذلك بمدة طويلة . ويعرب لنا الجبرتى مؤرخ العصر — وهو من علماء الأزهر — فى أكثر من موضع من تاريخه ، عن شديد إعجابه بما حمله الفرنسيون إلى مصر من ضروب الثقافة الجديدة ، وغريب الفنون والمخترعات ، ويصف دار كتبهم التى أنشأوها فى الناصرية ، وما رأى فيها من الكتب النادرة والصور الممتعة ، والتصانيف الإسلامية المترجمة . ثم يصف لنا دار الكيمياء ، وما شاهد فيها من غريب التجارب والاختراعات ، ومصانع الهندسة وما يصنع بها من الآلات ، ودار التصوير وما فيها من صور متقنة لكبار العلماء ورجالات مصر يومئذ ، وصور الطبيعة والحيوان والنبات ، وغير ذلك من المناظر الجذابة التى لم يشهدها العلماء المصريون من قبل[1] .

وقد شاطر الجبرتى مشاهداته لمعاهد الفرنسيين ومنتجاتهم

---

(١) راجع وصف الجبرتى لمشاهداته فى مكتبة الفرنسيين ، ومعاملهم الكيمائية ، ومصانعهم الهندسية (ج ٣ ص ٣٥ — ٣٧) .

العلمية والفنية ، وجهودهم الثقافية ، كثير من أكابر الشيوخ الذين كانت لهم يومئذ صلة بالمحتلين ، وفى مقدمتهم أعضاء الديوان ، ولفتت أنظارهم بلا ريب . وقد تأثر بهذه المظاهر بالأخص أحدهم وهو الشيخ حسن العطار ، الذى تولى مشيخة الجامع الأزهر فيما بعد . وكان قد اتصـل أثناء الإحتلال ، ببعض الفرنسيين ، يعلمهم اللغة العربية ، ويقف منهم على كثير من الفوائد العلمية الحديثة ، وكان يعجب بما وصل إليه القوم من التقدم فى العلوم والمعارف الدقيقة ، وبما شاهده فى مكتبتهم من الكتب العديدة ، التى تمتاز بحسن التبويب ، وتقريب طرق الإستفادة ، ويقول « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها »[١] . وقد ظهر صدى تأثر العطار بمظاهر العلم الحديث فيما كتبه فى بعض حواشيه إذ يقول : « وقد عربت كتب فى زماننا من كتب الفرنجة ، وفيها أعمال كثيرة ، وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها ، وقد استخرجت تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية ، والعلوم الطبيعية . وفى تلك الكتب ، تكلم القوم فى الصناعات الحربية ، والآلات النارية ، ومهدوا فيها قواعد وأصولا ، حتى صار ذلك علماً مستقلا ذا فروع كثيرة . ومن سمت به همته إلى الاطلاع على

---

(١) الخطط التوفيقية فى ترجمة الشيخ حسن العطار (ج ٤ ص ٣٨) .

غرائب المؤلفات ، ظهرت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم » .

ولم يكن إعجاب مؤرخ العصر وشيوخه بما شهدوا من مظاهر العلوم والثقافة الحديثة ، إلا صدى لنوع من التقدير العام ، لهذه الناحية من النشاط الفكرى . وربما كان هذا التقدير أول ظاهرة نفسية تدل على الإتجاه الجديد الذى كان يتطلع إليه التفكير المصرى يومئذ . وكان من أثر ذلك الركود الطويل الذى أصاب الحركة العقلية خلال العصر التركى وما ترتب عليه من ركود الدراسة بالأزهر ، وتصدع هيبته وضعف موارده ، أن خبت جذوة ذلك الشغف القديم بالثقافة الأزهرية ، خصوصاً بعد أن فقدت كثيراً من مزاياها الأدبية والمادية القديمة . ومع أن شبيبة العصر كانت تلجأ إلى الأزهر باعتباره مورد الثقافة الوحيد يومئذ ، فإنها كانت تتطلع إلى نوع آخر من الثقافة يكون أكثر ملاءمة للروح الجديد الذى سرى يومئذ إلى المجتمع المصرى .

هذا وقد وصف لنا العلامة المستشرق إدوارد لاين الذى زار مصر ، فى سنة ١٨٣٣[1] ، للبحث والدرس ، وقت مشيخة

---

(١) ادوارد وليم لاين E.W. Lane (١٨٠١ - ١٨٧٦) من أعظم المستشرقين الإنجليز . زار مصر لأول مرة سنة ١٨٢٥ ، ومكث بها ثلاث سنين ، ثم زارها للمرة الثانية فى سنة ١٨٣٣ وأقام بها أيضاً ثلاث سنين . وفى خلال ذلك تظاهر باعتناق الإسلام ، وتسمى باسم منصور افندى ، وعاش بحى السيدة زينب ، ودرس بالجامع الأزهر على طائفة من أساتذته ، وكان يعرف =

الشيخ حسن العطار ، واتصل بكثير من شيوخ الأزهر يومئذ ، حالة الجامع الأزهر ، وحالة علمائه وطلابه ، فى ذلك العصر ، وصفاً دقيقاً شائقاً ننقل منه ما يأتى :

« وفى مصر ، ولاسيما فى عاصمتها ، يقصد الشباب أو الرجال الذين يزمعون تخصيص أنفسهم لوظيفة دينية أو أية وظيفة علمية أخرى ، جامع الأزهر الكبير للدرس فيه ، وهم لا يعرفون قبل ذلك سوى القراءة ، وربما الكتابة وتلاوة القرآن . ويعتبر الأزهر جامعة الشرق الكبرى . وهو بناء شاسع يحيط بساحة عظيمة مربعة . وفى جانب هـــذه الساحة (الصحن) ، المواجه لمكة (الشرقى) ، يوجد مكان الصلاة الرئيسى ، وهو عبارة عن بهو واسع ذى عمد ؛ وفى كل من الجوانب الثلاثة الأخرى ، توجد أبهاء صغيرة مقسمة إلى عدد من المساكن تسمى « بالأروقة » يخصص كل منهـا لسكنى أبناء أمة معينة ، أو إقليم من أقاليم مصر . ويقع هذا الجامع داخل العاصمة ؛ وهو ليس برائع من

= الشيخ حسن العطار ، ويحضر مجالسه . ثم زار مصر للمرة الثالثة فى سنة ١٨٤٢ ، ومكث بها سبع سنين . وبرع لاين فى العربية وترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية . ثم أصدر بعد ذلك قاموسه الشهير للعربية والإنجليزية ، واعتمد فيه بالأخص على « تاج العروس » ، ووضع أيضاً كتاباً عن مصر فى عصره بعنوان « أحوال وعوائد المصريين المحدثين » ، وهو الذى نقتبس منه هذه النبذة .

الناحية الفنية ، وتحيط به المساكن ، بحيث لا يرى منه سوى القليل من الخارج . ويسمى الطلبة « بالمجاورين » . ولكل رواق مكتبة لاستعمال أبنائه ، ويعتمد الطلبة على ما تحتويه من الكتب ، وعلى دروس الأساتذة . ويدرس من العلوم النظامية : النحو ، والصرف ، والمعانى ، والبيان ، والعروض ، والمنطق ، والتوحيد ، والتفسير ، والحديث ، والفقه بسائر فروعه ، من العبادات والحدود والمعاملات ، وهى مستمدة بالأخص من القرآن ، والحديث ، وكذلك الحساب بالقدر اللازم لاستخدامه فى مسائل الفقه . وتعطى أيضاً دروس فى الجبر ، وتقديرات النتيجة الهجرية وأوقات الصلاة (علم الميقات) . ويجلس الأستاذ على الأرض ، إلى جانب أحد الأعمدة ، ويجلس الطلاب أمامه على الأرض أيضاً ، فى شكل حلقة . ويقرأ طلاب المذاهب المختلفة ، كتباً مختلفة . ومعظم الطلاب من القاهرة ، وأغلبهم شافعى المذهب ، وينتمى شيخ الأزهر أيضاً إلى الشافعية . ولا يدفع الطلبة أجوراً ما ، إذ أن معظمهم من الفقراء ، ومعظم الطلبة الغرباء الذين يسكنون الأروقة ، توزع عليهم جراية يومية من الطعام ، تعد من اعتمادات مستمدة بالأخص من أجور المنازل الموقوفة للإنفاق عليهم . وقد كان طلبة القاهرة وضواحيها يتقاضون مثل هذه الجراية ، ولكنهم لا يحصلون عليها الآن

إلا فى شهر رمضان ، لأن محمد على وضع يده على جميع الأراضى الزراعية التى كانت موقوفة على المساجد ، وبذلك فقد الأزهر معظم أملاكه . ولا تقدم الحكومة سوى نفقات الترميم الضرورية ، ومرتبات كبار موظفيه . ولا يتقاضى الأساتذة كذلك مرتبات ما ، وليس لأولئك الذين لا مال لهم ، ولا أقارب يعولونهم ، وسائل للعيش سوى التعليم فى المنازل ، ونسخ الكتب ؛ بيد أنهم يتلقون أحياناً هبات من الأغنياء . وكل من صلح للتدريس ، يمكن أن يغدو أستاذاً ، بالحصول على الإجازة من شيخ الجامع . ويحصل الطلاب على نفقاتهم بنفس الوسائل المتقدمة ، أو بقراءة القرآن فى المنازل الخاصة ، وعند القبور ، وغيرها من الأماكن . وفى وسعهم متى نضج تحصيلهم ، أن يغدوا قضاة ومفتين ، وأئمة للمساجد ، أو معلمين فى قراهم أو فى المدن ، أو فى القاهرة . ومعظمهم يزاول التجارة ، والبعض الآخر يبقون بالأزهر مدى الحياة ، ويطمحون إلى الانتظام فى سلك كبار العلماء . ومذ نزعت ملكية الأراضى التى كانت موقوفة على الأزهر ، قل عدد الطلبة الذين لا ينتمون إلى الأروقة قلة ظاهرة . ويبلغ عدد الطلبة من سائر الطبقات ما عدا العميان (كما أخبرنى أحد الأساتذة) نحو ألف وخمسمائة طالب .

ويوجد بجوار ناصية الأزهر من الناحية الشرقية ، مصلى يسمى

« زاوية العميان » ، وهى تابعة للأزهر ، وبها اليوم نحو ثلاثمائة من العميان معظمهم من الطلبة ، وينفق عليهم من أموال رصدت لهذه الغاية . وكثيراً ما يسلك أولئك العميان سلوكا عنيفاً جداً ، وقد اشتهروا بمثل هذا السلوك ، كما اشتهروا بتعصبهم . وقد حدث منذ وقت قصير أن دخل الأزهر سائح أوربى ، وتهامس الناس حول دخوله ، فتساءل العميان « أين الكافر ؟ » « سوف نقتله » ، وتجمعوا للبحث عنه ، والقبض عليه ، ولم يبد سواهم مثل هذه الرغبة فى الاعتداء عليه . وكثيراً ما كانوا قبل عهد محمد على يثورون كلما اعتقدوا أنهم ظلموا أو قتر عليهم فى العطاء ، وعندئذ يتخذون بعض الأدلاء ، ويطوفون وفى أيديهم الأطواق ، وينتزعون عمائم المارة ، وينهبون الحوانيت . وقد عين أشهر أساتذة الأزهر الشيخ القويسنى ، وهو ضرير ، منذ بضعة أعوام ، شيخاً لزاوية العميان ، فما كاد يلى وظيفته ، حتى أمر بجلد سائر الطلبة العميان ؛ ولكنهم ثاروا ضده ، وقيدوه ، وجلدوه بأقسى مما فعل بهم ، وأرغموه على ترك وظيفته . وقد غدا الشيخ القويسنى فيما بعد شيخاً للأزهر ، وقد توفى .

وقد كانت الدراسة أكثر ازدهاراً بالقاهرة قبل مقدم الجيش الفرنسى ، مما صارت إليه فى الأعوام الأخيرة . وكان لهذه الغزوة أسوأ الأثر فى ذلك ، لا بسبب الضغط المباشر ، ولكن من جراء

الذعر الذى ترتب عليها ، والاضطرابات التى أعقبتها .

ومن المحقق أن العلماء المسلمين ، يعوقهم الدين كثيراً عن المضى فى بعض مناهج الدرس ، وقد تتحكم الخرافة أحياناً فى البت فى نقطة كانت موضع الجدل منذ عصور . (وهنا يدلل الكاتب على قوله بسرد قصة وقعت بين الشيخ الأمير الكبير شيخ المالكية ، والشيخ محمد البهائى ، حول رأس الحسين ، وكون الشيخ الأمير أنكر فى بعض دروسه وجودها بالمشهد الحسينى ، لأنه لم يقم على وجودها أى دليل تاريخى . وقد تأثر الشيخ البهائى لذلك وبكى . وفى نفس الليلة رأى حلماً خلاصته أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن حقيقة الأمر ؛ فنبأه بأن الرأس موجود فى المشهد حقيقة ، فذهب إلى الشيخ الأمير فى الصباح الباكر ، وقص عليه رؤيته ، فصدقه ، وذهب معه إلى المشهد . وأعلن أمام المزار إيمانه بوجود الرأس فيه) .

ويوجـد الآن بعاصمة الديار المصرية كثير من العلماء ، كما يوجد بعضهم فى مدن القطر الأخرى . ومن أشهر علماء القاهرة المحدثين الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر ، وهو ليس من التبحر فى علوم التوحيد والفقه كالشيخ القويسنى الذى سبق ذكره . ولكنه وافر البراعة فى الأدب الرفيع ، وله كتاب فى « الإنشاء » يضم مجموعة بديعة من الرسائل العربية فى موضوعات

مختلفة ، أريد بها أن تكون نماذج للنثر . وقد طبع هذا الكتاب فى بولاق . ومنهم الشيخ محمد شهاب ، وقد اشتهر بأنه عالم متمكن وشاعر مطبوع . وتجتذب رقته وفكاهته إلى منزله كل ليلة صفوة من الصحب . وقد أتيح لى أحياناً أن أشاطرهم هذه المسرة ، فنجتمع فى قاعة صغيرة ولكن مريحة ، ويدخن كل منا فى شُبُكه الخاص ، وتقدم إلينا القهوة . وحديث الشيخ هو أشهى مأدبة يستطيع تقديمها إلينا . ويوجد بالقاهرة عدد آخر من العلماء الذين اشتهروا فى علوم اللغة والشعر . ومن المؤلفين المحدثين أيضاً الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وهو من أهل القاهرة ، ويستحق الذكر بنوع خاص لأنه كتب تاريخاً بديعاً للحوادث التى وقعت فى مصر منذ أوائل القرن الثانى عشر الهجرى ، وقد توفى فى القاهرة سنة ١٨٢٥ أو ١٨٢٦ ، عقب مقدمى الأول إلى القاهرة . وأسرته من بلاد الجبرت الواقعة فى جنوب شرقى الحبشة مما يلى المحيط ، وأهل هذه البلاد مسلمون ، ولهم رواق فى الأزهر ، كما أن لهم مثل هذا الرواق فى مكة والمدينة »(١) .

وهذه الصورة التى يقدمها إلينا العلامة إدوارد لاين عن أحوال الأزهر فى أوائل القرن التاسع عشر ، لا تختلف كثيراً

---

(١) E.W. Lane : The Manners and Customs of Modern Egyptians (Everyman) p.215 — 222

عنها منذ قرون سابقة ، وهى الأحوال التى شعر رجال العهد الجديد ، وشعر بعض النابهين من شيوخ الأزهر أنفسهم ، أنها لم تعد تتفق مع روح العصر ، ومقتضياته ، وأن لا بد من إصلاحها وتغييرها ، والسير بالتعليم والثقافة إلى وجهة جديدة تكون أجدى وأنفع للمتعلمين وللبلاد .

ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن تتجه مصر هذه الوجهة الجديدة . وكان هذا رأى محمد على ، الذى قدر له أن يتولى مقاليد الحكم فى تلك الفترة الفاصلة من تاريخ مصر ؛ فقد كان يرى منذ البداية ، أن الأساليب الأزهرية فى التعليم والتثقيف ، قد أضحت قاصرة عن إعداد الشباب لحياة العمل المجدى ، وأضحت لا تتفق مع المثل التى تطمح إليها دولة فتية جديدة ، وأنه يجب أن ينتفع الجيل الجديد بالأساليب العصرية الأوربية ، وأن يأخذ بقسط من الفنون والعلوم العملية . يقول الدكتور فولرز : « كان اتجاه الأزهر إلى الماضى ، واتجاه محمد على إلى الحاضر والمستقبل ، وكانت الروح العربيـة تمقتها الروح التركية »(١) . وهذا ما يوضح لنا روح الخصومة الذى أبداه محمد على نحو الأزهر منذ البداية ، فقد وضع يده حسبما رأينا ، على أوقافه وموارده ، ولم يفكر فى إصلاحه وإنهاضه ، بل آثر

---

(١) فى مقاله الذى سبقت الإشارة إليه فى Encyc. de l'Islam .

أن يخصص كل اهتمامه لبرنامجه الجديد فى إنشاء المدارس ، وإرسال البعوث .

وهكذا أنشئت المدارس المختلفة ، الإبتدائية ، والتجهيزية ، وأنشئت المدارس الخصوصية كمدارس الطب ، والهندسة ، والألسن ، والفنون والصنائع (العمليات) ، وغيرها . وبذلت فى الوقت نفسه عناية خاصة بإرسال بعوث الطلبة المصريين إلى أوربا ليتلقوا ثقافتها وعلومها العصرية ، ولينشئوا الثقافة القومية فيما بعد على أسس محدثة . وأرسلت منذ سنة ١٨٢٦ ، إلى فرنسا وانجلترا والنمسا وغيرها ، عشر بعثات بلغ عدد طلبتها أكثر من ثلاثمائة ، وبلغ ما أنفق عليها زهاء نصف مليون جنيه . وتلقى هؤلاء الطلبة المبعوثون الدراسات العليا فى الإدارة والحقوق والعلوم السياسية ، واللغات والهندسة والطب والكيمياء والرياضيات ومختلف الفنون العسكرية والعملية ، ونبغ منهم عدد كبير فى مختلف العلوم التى تلقوها . وأثمرت هذه الحركة الإصلاحية الثقافية ثمرتها المنشودة ؛ وكانت جهود هذه الجمهرة من الطلاب والعلماء النوابغ ، أعظم دعامة قامت عليها ثقافتنا الحديثة .

وهكذا نشأت بمصر طبقة جديدة من المفكرين والعلماء والأدباء الذين أخذوا بقسط بارز من العلوم الحديثة . وأخذت الحياة الفكرية والاجتماعية المصرية ، بتأثير الاحتكاك المستمر

بأوربا ، تتطور نحو الاتجاه الجديد بسرعة . ولم يكن الأزهر بعيداً كل البعد عن هذه الحركة الثقافية العظيمة ، فقد كان بين طلاب هذه البعثات عدد من طلاب الأزهر ، وكان منهم نوابغ أفذاذ مثل رفاعة بك رافع الطهطاوى إمام البعثة الأولى وصاحب الفضل فى إنشاء مدرسة الألسن الشهيرة ، وإبراهيم بك النبراوى أحد نوابغ البعثة الطبية ، وأحمد حسن الرشيدى بك من أكابر خريجى مدرسة الطب والبعثات ، وغيرهم ، ممن تلقوا دراستهم الأولى بالأزهر ؛ وكذلك كان لأبناء الأزهر فى أعقاب تلك الفترة أعظم فضل فى إخراج الموسوعات والمصنفات العربية والإسلامية التى عكفت على إصدارها مطبعة بولاق منذ منتصف القرن الماضى ، والتى كان إخراجها من أعظم العوامل فى إحياء الأدب العربى القديم [1] .

ولكن الأزهر ذاته بقى مع ذلك بمعزل عن هذه المؤثرات والاتجاهات الفكرية الجديدة ، قانعاً بدراساته ومناهجه القديمة ، وكان هذا القصور عن فهم الحركة الثقافية الجديدة ومجاراتها ، عاملا فى انصراف الأذهان الطموح عن وروده . يقول الدكتور فولرز : « إن الاتجاه القوى الذى اتجهته مصر نحو العلوم الحديثة

---

(١) كان فى مقدمة الأساتذة الذين اضطلعوا بهذه المهمة الشيخ نصر الهورينى والشيخ إبراهيم الدسوقى كبير مصححى المطبعة الأميرية فى منتصف القرن الماضى .

فى القرن التاسع عشر ، تحت التأثير الأوربى ، لم يكن له سوى أثر ضعيف فى حياة الأزهر ، وأن البعثاب الجديدة ، وعلومها الحديثة من الرياضة والطبيعة والتاريخ والجغرافيا وغيرها ، أسبلت سحابة منفرة على ركود الأزهر »[١] . ومع ذلك قد لبث الأزهر موئل الثقافة الشعبية العامة ، واستطاع أن يحتفظ ببقية من تلك الجذوة القديمة التى طالما سطعت فى عصوره الماضية ، واستطاع بالأخص أن يحتفظ بامتيازه القديم كمركز لعلوم الدين واللغة .

وفى بداية عصر إسماعيل كانت العلوم الآتيـة تدرس بالأزهر ، وذلك حسبما ورد فى تقرير رسمى لمشيخة الأزهر ، وضعته بناء على طلب الحكومة لتبعث به إلى لجنة معرض باريس ؛ وذلك فى سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٤ م) :

الفقه . الأصـول . التفسير . الحديث . التوحيد . النحو والصرف . المعانى والبيان والبديع . متن اللغة . العروض والقافية . الحكمة الفلسفية . التصوف . المنطق . الحساب . الجبر والمقابلة . الفلك والهيئة .

وزادت المشيخة على ذلك ،أنه فضلا عن هذه العلوم المتداولة تقرأ بالأزهر بعض علوم أخرى كالهندسة والتاريخ والموسيقى وغيرها لمن لهم اقتدار على دراستها ، بيد أنه لا يشتغل بدراستها سوى القليل .

---

(١) فى مقاله السالف الذكر .

وفى عصر إسماعيل كانت ثمار النهضة الحديثة قد تفتحت وأينعت ، وقام بمصر جيل من العلماء النوابغ فى كل علم وفن ، وبدأت مصر تتخذ مكانتها بين جماعة الأمم الفتيـة المستنيرة . وكان الأزهر قد بدأ يفيق من سباته الطويل ، ويبرز شيئاً فشيئاً من غمر الماضى ، ويتطلع بدوره إلى تفهم الروح الجديد ؛ وكانت هذه اليقظة بطيئة ولكن محققة . ولما قدم المصلح الإسلامى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر فى سنة ١٨٧١ ، وأخذ يعقد حلقاته المشهورة ويشرح فيها علوم الكلام والفقه والفلسـفة والمنطق وغيرها بطريقة عصرية مبتكرة ، التف حوله كثير من نوابغ الطلاب والشيوخ الأزهريين وغيرهم ، حسبما فصلنا من قبل ، فكانت هذه الحلقات حادثاً فكرياً واجتماعياً عظيما ، وكانت عاملا فى تغذية الروح الجديد الذى سرى إلى الحركة الفكرية الإسلامية .

وفى هذه الفترة بالذات ظهرت الآثار الأولى لهذا التطور فى الأزهر ، وأصاب الأزهر أول قسط من الإصلاح .

ولنبادر إلى القول بأن إسماعيل لم يكن يقصد إصلاح الأزهر لذاته ، وإنما كانت تحدوه نحو هذا الإصلاح فكرة سياسية خاصة ، هى أن يجعل من الأزهر أداة نافعة لمقاومة الروح التركى(١) ، وكان شيخ الأزهر يومئذ هو الشيخ محمد المهدى

---

(١) الدكتور فولرز فى مقاله السالف الذكر .

العباسى ، وهو « رجل حازم مستنير واسع الاطلاع »[١] ، فأدرك أنه يستطيع أن يستغل هذا الاتجاه لدى الخديو ، وكانت حركة السيد جمال الدين ، ودعوته الملتهبة إلى الإصلاح ، من جهة أخرى ، قد ألفت صداها القوى فى سائر الأوساط .

وهكذا صدر أول قانون نظامى للأزهر فى سنة ١٢٨٨ ﻫ (١٨٧٢ م) . وقد نظم هذا القانون طريقة الحصول على الشهادة العالمية ، وبين موادها ورتبها على ثلاث درجات (أولى وثانية وثالثة) ، وأن تصدر بها براءة من ولى الأمر ، وقرر أن تكون المواد التى يمتحن فيها الطلاب هى الآتية :

الأصول . الفقه . التوحيد . الحديث . التفسير . النحو . الصرف . المعانى . البيان . البديع . المنطق .

ولم يكن للأزهر قبل صدور هذا القانون شهادات دراسية معينة تمنح للطلاب اللهم إلا « الإجازة » التقليدية التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى كان يمنحها أكابر العلماء للطلاب المتقدمين إليهم ، أو يمنحها الأستاذ لتلميذه فى مادة معينة أو كتاب معين ، متى أتم الطالب دراسة هذه المادة أو حفظ هذا الكتاب ، وأصبح قادراً على تدريس ما حفظ بدوره إلى الطلاب ، وتمنح أيضاً للإفتاء لطلاب الفقه متى أتموا الدراسة لأصول مذهب معين ؛

---

(١) الدكتور فولرز فى مقاله السالف الذكر .

وقد لبثت هذه الإجازة بالأزهر مدى قرون عنوان الإجادة والتفوق ، واستمر تداولها حتى العصر الأخير (١) .

وكان هذا القانون أول خطوة عملية فى تنظيم الحياة الدراسية بالجامع الأزهر . بيد أنه لم يحقق كثيراً من الإصلاح المنشود .

وفى أوائل عهد عباس الثانى ظهرت بالأزهر حركة إصلاحية قوامها وروحها المغفور له الشيخ محمد عبده . ولم تلبث أن أثمرت هذه الحركة ثمرتها ، وصدر أمر خديوى بتشكيل لجنة إدارية دائمة تعنى بالنظر فى شئون التدريس ونظام الأروقة والمرتبات ودرجات العلماء وغيرها من مسائل الأزهر وشئونه . وقامت اللجنة بمهمتها بإرشاد الشيخ محمد عبده ، ووضعت القواعد والنظم المطلوبة ؛ وصدر فى يناير سنة ١٨٩٦ قانون كساوى العلماء ودرجاتها ، وجعلت هذه الكساوى مائة ، منها خمس عشرة من الدرجة الأولى ، وخمس وثلاثون من الدرجة الثانية ، وخمسون من الدرجة الثالثة ؛ وصدرت لائحة المرتبات فى يونيه من نفس العام ، وكان مرتب الكساوى يتراوح بين ١٢ و ٣٠ جنيها فى الشهر ؛ ونظمت شئون الأساتذة والطلبة طبقاً لأصول وقواعد جديدة . وأضيفت إلى مواد الدراسة طائفة من المواد الجديدة هذا بيانها :

---

(١) راجع ص١٣٢ و ١٣٣ من هذا الكتاب .

الأخلاق . مصطلح الحديث . الحساب . الجبر . العروض والقافية . وجعل التاريخ الإسلامى ، والإنشاء ومتن اللغة ، ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان ، مواد يفضل المشتغل بها على غيره . وجعل لمجلس الإدارة الحق فى تعديل مواد الدراسة طبقاً لما يراه . وهذه جميعاً من محتويات قانون الأزهر الصادر فى سنة ١٨٩٦ .

وفى سنة ١٩١١ على أثر اضطرابات الأزهر المعروفة ، صدر قانون جديد للأزهر ينظم الدراسة على أسس جديدة ، وبمقتضاه قسمت الدراسة إلى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة ، وأنشئت هيئة للإشراف على شئون الأزهر تحت رياسة شيخ الجامع تسمى « مجلس الأزهر الأعلى » كما حدد اختصاص الشيخ ، وأنشئت هيئة كبار العلماء وفقاً لنظام خاص ، وأنشئت معاهد دينية جديدة فى بعض عواصم المديريات . وأضاف هذا القانون إلى مواد الدراسة ، مواد جديدة هى التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادئ الطبيعة والكيمياء .

وتوالت على هذا القانون تعديلات عديدة ، كان آخرها وأهمها التعديل الذى يتضمنه القانون الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهو يتناول فى الباب الأول ، الكلام على الجامع الأزهر والمعاهد الدينية الملحقة به ، وفى الرياسة الدينية ، وهيئة كبار العلماء ،

وفيه يعرف الجامع الأزهر بأنه يشمل كليات التعليم العالى ، وأقسام التخصص ، وأن هذه الكليات هى ثلاث ، كلية الشريعة ، وكلية أصــول الدين ، وكلية اللغة العربية ، وأن التخصص نوعان ، تخصص فى المهنة ، وتخصص فى المادة . ويتناول الباب الثانى مراحل التعليم ومدته . وهو يقسم التعليم إلى أربع مراحل ، ابتدائى ومدته أربع سنوات ، وثانوى ومدته خمس ، وعال ومدته أربع سنوات ، وهى مرحلة الدراسة فى إحدى الكليات . والتخصص تحدد مدته بقانون خاص . ثم بين العلوم التى تدرس فى كل مرحلة من المراحل الأربعة ، وفى كل كلية من الكليات الثلاثة . ويتناول الباب الثالث مسألة الامتحانات والشهادات . والبــاب الرابع يتعلق بالطلبة وشروط قبولهم . ويتناول الباب الخامس الميزانية ، وبعض الأحكام المؤقتة .

وقد كان هذا القانون فى الواقع خطوة حاسمة فى القضاء على نظم الدراسة القديمة بالأزهر ، وإنشاء ما يسمى اليوم « بالجامعة الأزهرية » . وأبرز ما فيه تصنيف العلوم الأزهرية ، وتقسيمها إلى مجموعات شبه متناسقة ، وإنشاء الكليات الثلاث : كلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية ، لتدرس فى كل منها مجموعة من هذه المجموعات . ثم إنشاء نظام التخصص ، وتصنيفه إلى نوعين ، تخصص فى المهنة ، وتخصص فى المادة .

وفى سنة ١٩٣٦ صدر قانون جديد للأزهر يعتبر متمماً للقانون السابق ، ومفصلا له ، وقد جعلت فيه مراحل التعليم بالأزهر أربع ، هى مرحلة التعليم الابتدائى ومدته أربع سنوات ، والثانوى ومدته خمس سنوات ، والعالى (وهو الدراسة فى إحدى الكليات) ومدته أربع سنوات ؛ وأما المرحلة الرابعة والنهائية فتنقسم إلى قسمين : الأول أقسام الإجازات لإعداد الطلبة للحصول على الشهادة العالمية ،وهى ثلاثة : إجازة القضاء الشرعى ؛ وإجازة الدعوة والإرشاد ، وإجازة التدريس ، ومدة كل منها سنتان . والثانى أقسام التخصص فى المادة لإعداد الطلبة للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ وهى ستة أقسام : الفقه ، والأصول والتوحيد ، والفلسفة ، وعلوم القرآن والحديث ، والتاريخ الإسلامى ، والنحو والبلاغة . ومدة كل قسم لا تقل عن خمس سنوات ولا تزيد عن سبع . وبين القانون المواد التى تدرس فى كل مرحلة وشروط الحصول على الشهادة العالمية ، وعلى درجة أستاذ . وأطلق اسم الجامع الأزهر فى هذا القانون على الكليات الأزهرية وأقسام الإجازات والتخصص التابعة لها ؛ وألحقت به معاهد التعليم الابتدائى والثانوى بالقاهرة والإسكندرية وطنطا والزقازيق وأسيوط ودسوق ودمياط وشبين الكوم وهى المسماة بالمعاهد الدينية ، وكذلك الأقسام العامة المنشأة فى الجهات المتقدمة وفى المنيا وسوهاج وقنا .

ويقوم دستور الأزهر ونظمه الحالية على هذين القانونين أعنى قانون سنة ١٩٣٠ وقانون ١٩٣٦ .

* * *

ولا ريب أنه انقلاب خطير حاسم ، ذلك الذى أصاب الجامع الأزهر فى عصرنا ، وحول مجرى حياته القديمة ، وأسبغ عليها طابعاً جديداً ، يحمل فى نظمه ومظاهره الخارجية ، سمة المعاهد الدراسية الحديثة .

وقد اختتمت حياة المعهد الألفى القديم ، ولم يبق من الجامع الأزهر القديم سوى ذلك الصرح الجليل الذى ما زال يحتل البقعة التى اختارها جوهر لإنشائه ، يبدو بعمده وأروقته المنيفة كحلم جميل انقضى ، بعد أن غمر الأجيال المتعاقبة بروعته عصوراً طويلة ، واختفت تلك الحلقات العلمية الجليلة التى لبثت زهاء ألف عام سراجاً منيراً ، ينثر أشعته فى مصر والعالم الإسلامى ، ولم تبق منها سوى ذكريات دارسة .

ولم يك ثمة شك فى أن الأزهر كان بحاجة شديدة إلى الإصلاح والتجديد ، ومجاراة نظم التعليم والتثقيف الحديثة ، على ألا يجنى ذلك الإصلاح والتجديد على رسالته الأساسية فى السهر على مصاير العلوم الإسلامية والآداب العربية . ولكن هل يمكن أن يقال إن هذه المحاولات التى بدأت فى عصر إسماعيل لإصلاح

الأزهر ، وانتهت فى عصرنا بالقضاء على المعهد القديم ، وكل مناهجه ورسومه وتقاليده ، قد حققت الغاية المنشودة فى تجديده وإحيائه ، وحفظت عليه رسالته التاريخية كاملة غير منقوصة ؟

لقد حمل تيار التطور الأزهر إلى مصير غامض . وقد اضطرم الأزهر بروح الإصلاح والتجديد ، ولكنه لم يظفر منه فيما نخشى إلا بالمظاهر العرضية ؛ وقد خلع الأزهر رداءه العلمى القديم ، وبدا لنا فى شكل جامعة وكليات محدثة ، ولكن هـذا التغيير لم يتناول سوى المظاهر الشكلية . ولم يظفر الأزهر بعد ببديل يعوضه عما كان يتمتع به من المزايا الدراسية القديمة ؛ ولم يعن زعماء الإصلاح الأزهرى بالأخص، بتحديد مهمة الأزهر الجديدة تحديداً واضحاً ، وقد أصبح الأزهر يجمع بين مزيج غير واضح من الأساليب القديمة ، وبعض مظاهر الثقافة الحديثة ، ولم يصل بعد إلى طريق الإستقرار والوضوح .

أجل ، نظمت الدراسة الأزهرية فى مراحل ومعاهد جديدة ، وأنشئت كليات وإجازات تخصص ، وأعدت للطلبة أبنية صحية حديثة للدراسة والسكنى ، وأقيمت مدينة البعوث الإسلامية أو مدينة الأزهر الجامعية[1] ، على أحدث طراز لإيواء الطلبة الوافدين على الأزهر من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وأدخلت فى مناهج التعليم

---

(١) Cité Universitaire

طائفة صالحة من المواد الحديثة ، مثل الطبيعة والكيميا والفلسفة والرسم ، وتاريخ التشريع والنظام الدستورى ومبادئ الاقتصاد ، ونظم التربية والأخلاق وعلم النفس ، واللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية(١) وبعض اللغات الشرقية ، وأرسل عدد من طلاب « الجامعة الأزهرية » فى بعثات دراسية متوالية إلى أوربا ، وتخرج بعضهم فى الجامعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وتولوا مناصب التدريس فى الكليات الأزهرية . ولكنا لا نستطيع بالرغم من هذه المظاهر الخلابة كلها ، أن نقول إن « الجامعة الأزهرية » قد حققت أمنية الأزهر كاملة ، وأنها أصلح منه لحمل رسالته التاريخية .

إن ما كسبه الأزهر من هذا الإنقلاب الحاسم فى مصايره ما يزال بالرغم من مرور ربع قرن عليه ، من الأمور الغامضة المشكوك فيها . ومن الصعب أن نتحدث عن مزايا نظام لم يتضح بعد شىء من مزاياه حتى اليوم ، ولكنا نستطيع بالعكس أن نقول إن الأزهر الحديث ، بالرغم من جميع الجهود التى بذلت

---

(١) وقد صدر أخيراً قرار بإدخال اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية فى مرحلتى التعليم بالمعاهد الدينية . وستدرس الإنجليزية بصفة إجبارية فى فصول السنة الأولى الثانوية ؛ وتدرس باقى اللغات بصفة اختيارية فى بعض الفصول فى معهدى القاهرة والإسكندرية ، وينفرد الطالب بدراسة لغة واحدة .

لإصلاحه منذ نصف قرن ، وبالرغم من تحويله الظاهر إلى جامعة أزهرية ، قد فقد كثيراً من المزايا العلمية والجامعية الحقيقية التى اقترنت بتاريخه القديم .

فقد اختفى جيل العلماء الأعلام المبرزين فى علوم الدين واللغة ممن حفلت بهم أواخر القرن الماضى ، وكانوا بقية أخيرة لذلك الجيل القديم من علماء الأزهر ، الذين وهبوا حياتهم للدرس ؛ وقد كان الأزهر حتى أواخر القرن الماضى يأخذ بنصيب بارز فى تكوين الزعامة الفكرية والقومية ؛ وكان ظهور رجال مثل محمد عبده وسعد زغلول من بين صفوف طلبته ، أسطع دليل على أن هذا المعهد التالد لم يفقد خلال عصور الإنحلال والتأخر كل حيويته الفكرية ؛ ولكن هذه الظاهرة تكاد تختفى اليوم .

وقد فقد الأزهر كثيراً من خاصته الروحية التى كانت تحمل شيوخه وطلابه على التفانى فى التحصيل والدرس ، والتعلق بشرف العلم ، والإعراض عن مغريات الدنيا ، وإيثار التقشف والزهد ، على الحياة الناعمة ؛ وتحول مجتمع الأزهر فى ظل النظم الجديدة ، شيئاً فشيئاً ، إلى جماعة كسائر الجماعات ، تسودها الروح الدنيوية ، وتتجه إلى ميدان الصراع المادى . ويجب أن نذكر أن القوانين التى حققت هذا الإنقلاب الخطير فى حياة الأزهر ، لم تكن سوى قوانين قصر ، أملتها كما هو معروف ،

ظروف ومؤثرات ، لم يكن يقصد بها خير الأزهر ، وتقدمه العلمى الحقيقى ، وإنما كانت ترمى قبل كل شىء إلى تحقيق مظاهر شكلية معينة ، ومغريات مادية ، لا تتصل بمهمة الأزهر ، ولا برسالته العلمية . وقد أحدث هذا التحول ، فى جو الأزهر العلمى أثراً لا يجمد ، وقضى على كثير من خواصه ومزاياه الروحية القديمة ، وهى خسارة لها خطرها فى الإضرار برسالة الأزهر العلمة التالدة .

ومن جهة أخرى فإن الأزهر الحديث بالرغم من اتسامة بسمة الجامعات العصرية ، لا يزال بعيداً عن أن يجارى روح العصر فعلا فى تنظيم مناهجه وأساليبه العلمية . فهو لا يزال يعيش على تراث الأزهر القديم ، ولا يزال مرجع الدراسة فى المعاهد والكليات الأزهرية الحديثة ، فى علوم الدين واللغة ، طائفة من الكتب القديمة التى يعرفها الأزهر منـــذ العصور الوسطى . فما زال النحو والصرف يدرسان فى ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل ، وفى مختصر ابن الحاجب ، وأوضح المسالك لابن هشام ، ونهج المسالك للأشمونى ، وشذور الذهب ، والأجرومية للكفراوى ؛ والبلاغة فى شرح السعد على متن التلخيص ؛ والفقه الحنفى فى شرح الميدانى على القدورى ، والاختيار شرح المختار ؛ والفقه الشافعى فى شرح الخطيب على

متن أبى شجاع ، والفقه المالكى فى رسالة ابن أبى زيد القيروانى ، والشرح الكبير للدردير ؛ والتوحيد فى شرح السنوسية ، وشرح الباجورى على متن الجوهرة ؛ والتفسير فى تفسير النسفى والجلالين للسيوطى ؛ والقراءات فى الشاطبية ، ومتن الدرة ؛ فهذه الكتب تدرس كلها حتى اليوم فى كليات الأزهر ومعاهده ، للطلبة النظاميين ؛ وما تزال كتب ابن حجر ، والبلقينى ، والسيوطى ، والزيلعى ، والبرماوى ، وغيرهم من الأساتذة القدامى ، هى المراجع المثلى للأساتذة والطلاب الأزهريين . وبعض هذه الكتب يرجع إلى القرن السادس الهجرى كالشاطبية ، والسابع مثل مختصر ابن الحاجب ، وألفية ابن مالك ، والثامن كشرح ابن عقيل ومختصر السعد ؛ وأحدثها يرجع إلى القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى) ، ومع أن هذه المصنفات الكلاسيكية لاتزال تحتفظ بقيمتها العلمية القديمة ، فهى لاتصلح سواء بمادتها أو طرائقها العتيقة لعقلية الطالب الحديث . ولم يزود طلبة الجامعة الأزهرية حتى اليوم من الكتب أو المذكرات الدراسية الحديثة إلا بقدر ضئيل جداً فى بعض المواد المستحدثة ، مثل التاريخ الإسلامى ، والسيرة النبوية ، وتاريخ التشريع ، وتفسير بعض آيات الأحكام ، وكذا بعض كتب النحو والصرف ؛ وسيمضى وقت طويل قبل أن يستطيع المشرفون على الدراسة بالجامعة

الأزهرية ، أن يضعوا من الشروح والتآليف المنظمة الحديثة ما يسد حاجة الطلاب .

وقد فقد الأزهر كثيراً من مزايا الدراسة الجامعية الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة ، التى لبثت قروناً تزين أروقته وساحاته ، فقضى عليها النظام الجديد ، ولم تبق منها إلا آثار ضئيلة ، تتمثل فى إلقاء بعض الدروس العادية فى علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر ، وبعض المساجد الأخرى التى توجد بها المعاهد الدينية ، وتقرأ فيها الكتب القديمة ، ويشهدها الطلاب غير النظاميين ولاسيما الغرباء وبعض أفراد الجمهور ، وتعرف فى ظل النظام الجديد بالأقسام العامة .

والواقع أن هذه الحلقات القديمة لم تكن سوى المُدَرَّج الجامعى الحديث ، وقد كانت تتفوق بلا ريب فى عناصرها الجامعية على فصول الكليات الأزهرية ، وكان خيراً لو أصلحت ونُظمت على غرار الدراسات الجامعية العليا ، التى يتولاها أعلام الأساتذة والإخصائيين ، وقد كان فى استبقائها على هذا النحو تخليداً لذكرى الحلقات الأزهرية التاريخية ، التى كانت أيام ازدهارها من محاسن الدهر ومحاسن الأزهر ، وكانت فى كثير من الأحيان مجمع الصفوة من الأساتذة والمستمعين .

لقد اضطرم الصراع مدى حين بين الثقافتين القديمة والحديثة ،

وقد أحرز الجديد نصره النهائى على تراث القديم وأساليبه ، وتبوأت الثقافة المحدثة فى مصر المكان الأول ، وهى تؤكد هذا الظفر كل يوم بما تخرجه من جندها المستنير الطموح إلى الحياة العصرية بكل ما أوتى من المزايا المعنوية والمادية . على أن ذلك لا يعنى أن مهمة الأزهر قد انتهت ، أو أنها يجب أن تنتهى ؛ ذلك أننا نعتقد بالعكس أن للأزهر مهمة جليلة ، وأنه يستطيع الاضطلاع بها إذا وفق إلى اتخاذ الوسائل والأساليب الصالحة لتأديتها . تلك المهمة هى العمل على تدعيم رسالة الإسلام ، ورسالة اللغة العربية والحضارة الإسلامية ، بأساليب مستنيرة ؛ وقد كان الأزهر معقلا من معاقل هذه الرسالة طوال العصور الوسطى ، والعصر التركى ؛ وفى وسعه أن يكون معقلها اليوم ؛ بيد أنه يجب أن ينزل إلى ميدان الحياة الجديدة بقوة فتية ، وروح جديدة تحررت نهائياً من غمر الماضى وأصفاده الفكرية ؛ وعليه قبل كل شىء أن يفهم حدود مهمته ، وأن يكرس جهوده لتأديتها فى هـذه الحدود . ومن الخطأ أن نتصور هذا الصراع بين القديم والجديد، نضالا يصطبغ بلون الخصومة ، وإنما هو تنافس ثقافى ومعنوى بين أساليب التفكير القديمة والمحدثة . وفى اعتقادنا أن الأزهر الذى ننشده ضرورى لصرح ثقافتنا الجديدة ضرورة الجامعة المدنية ذاتها ، وأنه برسالته ومهمته

الخاصة يتمم رسالة الثقافة القومية العامة .

ذلك أن الجامع الأزهر يقترن ذكره بالحياة العقلية فى مصر منذ ألف عام . وقد غـدا الأزهر بحياته المديدة ، وتاريخه العلمى الحافل ، جزءاً لا يتجزأ من تراث مصر العلمى والثقافى ؛ ومصر تخسر الكثير من مقومات هذا التراث بتأخر الأزهر ، وتخلفه عن القيام برسالته التاريخية العظيمة . ومن ثم فإنه يجب على مصر ، أن تتدارك هـذا الصرح الجليل التالد ، بسديد العون والتوجيه والإصلاح .

* * *

هذه خواطر أثارها فى النفس تاريخ الأزهر وذكرياته ، وهى خواطر تجول بنفس كل صديق للأزهر ، معجب بتاريخه الحافل ، عارف بخدماته الجلّى لعلوم الدين واللغة . وما زال الأزهر الألفى ، بالرغم من اختفاء مظاهره الدراسية القديمة ، فكرة خالدة ، تثير دائماً بروعتها ونبلها وطرافتها ، والدور العظيم الذى أدته فى تاريخ العلوم الإسلامية ، والآداب العربية ، أيما إكبار وإجلال .

وثائق وإحصاءات

ا – الوثائــــق

— ١ —

وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر ودار الحكمة

«وهو نص سجل الوقف الذى وقف بمقتضاه الحاكم بأمر الله ، بعض أملاكه بمصر والقاهرة ، على الجامع الأزهر ودار الحكمة وبعض المساجد الأخرى ، وهو منقول عن خطط المقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤٩ – ٥١

« هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه ، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله ، وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن ، وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم ، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة ، التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع

بالمقس ، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها ، والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ، منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعاً جميع ذلك غير مقسوم ، ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها . فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ، ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب ، وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف ، وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة الذى كله بفسطاط مصر ؛ ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها ، والمخزنين الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية ، فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ؛ ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضاً بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى ، بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه ، وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ، وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة

محبسة بتة ، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها ، جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ، لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ، ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسماوات ، على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى إليه ولايتها ، ويرجع إليه أمرها بعد مراقبة الله ، واجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها . فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة ، وبقاء العين ومرمته من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه ؛ وما فضل كان مقسوماً على ستين سهماً ، فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكورة فى هذا الإشهاد ، الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارته ومصلحته ، وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار ، ومن ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً ، ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك ، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن

ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر ديناراً ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة خمسة دنانير ، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلى نصف دينار ، ومن ذلك لثمن أردبين ملحاً للقناديل ربع دينار ، ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً ؛ ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقاً لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتى مكنسة لكنس هـــذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ؛ ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف ؛ ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة ،

وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون دينارا ونصف ، منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار فى كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة ولكل رجل منهم ديناران فى كل شهر ، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون ديناراً ؛ ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه فى هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون ديناراً ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر ديناراً . . . » .

وإلى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر وأخذ فى ذكر جامع راشدة ، ودار العلم وجامع المقس ، ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثين قنديلا من الفضة . فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا ؛ وشرط أن تعلق فى شهر رمضان وتعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ فيه . وشرط بعد ذلك فى الوقف شروطاً كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .

— ٢ —

الإجازات العلمية

أورد لنا القلقشندى فى صبح الأعشى صـور طائفة من الإجازات التى كان يصدرها أكابر العلماء لتلاميذهم أو لمن يتقدم إليهم من الطلاب ، كإجازة التدريس والفتيا والرواية وغيرها (ج ١٤ ص ٣٢٢ وما بعدها) ، وتصدر هـذه الإجازة بعد اختبار الطالب فيما طلب الإجازة فيه .

(١) وهذه صيغة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى ، أصدرها العلامة سراج الدين أبو حفص عمر الشهير بابن الملقن لأبى العباس القلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى سنة ٧٧٨ هـ ، وكتبها القاضى تاج الدين بن غنوم موقع الحكم بالإسكندرية ، وذلك بعد البسملة والديباجة :

« ولما كان فلان — أدام الله تسديده وتوفيقه ، ويسر إلى الخيرات طريقه — ممن شب ونشأ فى طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة ، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى ، وإلى نيل السعادة — إنشاء الله — يفضى ، استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا ، العبد الفقير إلى الله تعالى ،

الشيخ الإمام ، العلامة ، الحبر الفهامة ، فريد دهره ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوحد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ، سراج الدين مفتى الإسلام والمسلمين ، أبو حفص عمر بن أبى الحسن . . . . الخ » .

« وأذن وأجاز فيه لفلان المسمى فيه ، أدام الله معاليه ، أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق العالم الربانى ، أبى عبد الله محمد بن إدريس المطلبى الشافعى ، رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ؛ وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبيه ، حيث حل وأقام ، كيف شاء متى شاء وأين شاء ، وأن يفتى من قصد استفتاءه خطاً ولفظاً ، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه ، لعلمه بديانته وأمانته ، ومعرفته ودرايته ، وأهليته لذلك وكفايته . . . . وكتب فى تاريخ كذا » .

(٢) وهذه صيغة إجازة أصدرها الشيخ شمس الدين محمد ابن عبد الدايم إلى ولد أبى العباس المذكور المسمى نجم الدين أبى الفتح ، متضمنة إتقانه لحفظ كتاب « المنهاج » فى الفقه للنووى ، وذلك سنة ٨١٣ هـ جاء فيها بعد الديباجة : « وبعد فقد عرض على الفقيه الفاضل ، نجل الأفاضل ، وسليل الأماثل ، ذو الهمة العليا ، والفطنة الذكية ، والفطرة الزكية ، نجم الدين أبو عبد الله

محمد بن فلان ، نفع الله به كما نفع بوالده ، وجمع له بين طارف العلم وتالده ، مواضع متعددة من « المنهاج » ، فى فقه الإمام الشافعى المطلبى رضى الله عنه وعنا به ، تأليف ولى الله ابن زكريا بن شرف بن مرى النووى ، سقى الله تعالى ثراه ، وجعل الجنة مأواه ، دل حفظه لها على حفظ الكتاب ، كما فتح الله له مناهج الخير دقّه وجِلّه ، وكان العرض فى يوم كذا » .

(٣) وكتب العلامة الشيخ عز الدين بن جماعة فى بعض الإجازات ما صورته :

« كذلك عرض على المذكور باطنها عرضاً حسناً ، محرراً مهذباً مجاداً متقنا ، عرض من أتقن حفظه ، وزين بحسن الأداء لفظه ، وأجزل لى من عين العناية حظه ، مر فيه مرور الهملاج الوساع فى فسيح ذى السباع . وقد دلنى ذلك منه ، نفعه الله تعالى ونفع به ، ووصل أسباب الخير بسببه ، على علو همته ، ووفور أريحيته ، وتوقد فكرته ، واتقاد فطنته . . . وقد أذنت له أن يروى عنى الكتاب المذكور ، وبجميع ما يجوز لى وعنى روايته ، من مصنفاتى وغيرها من منظوم ومنثور ، ومنقول ومعقول ومأثور ، بشرطه المعتبر ، عند أهل الأثر . وكتب فلان فى تاريخ كذا . . . » .

ب — إحصاءات عامة عن الأزهر
فى مختلف العصور

— ١ —

الأساتذة والطلاب

لم نعثر فى مختلف المصادر التى لدينا على أية إحصاءات تتعلق بالأساتذة والطلاب بالجامع الأزهر فى عصوره الأولى . وليس لدينا من ذلك سوى نصين :

الأول ، عن الأساتذة ، وقد بلغ عددهم أيام العزيز بالله سبعة وثلاثين فقيهاً ، وهم أول فوج من الأساتذة عينوا للتدريس بالجامع الأزهر (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧ ؛ والمقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٤٩) ؛ ولا يوجد نص ما عن عدد الطلاب الذين كانوا يحضرون حلقاتهم .

والثانى ، عن الطلاب ، فقد بلغ عدد طلاب الأروقة المقيمين بالجامع فى سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) ٧٥٠ طالباً معظمهم من الغرباء (الخطط ج ٤ ص ٥٤) .

وبالرغم من أننا لا نظفر بعد ذلك بأية نصوص أخرى

عن عدد أساتذة الأزهر وطلابه خلال العصور الوسطى ، فإنا نعتقد على ضوء تاريخ الجامع وتطوراته ، أن عدد طلابه فى تلك العصور كان لا يقل عن بضعة آلاف ، وأن عدد الأساتذة كان يبلغ نحو مائتين أو ثلاثمائة تقل أو تزيد وفقاً للظروف والأحوال ؛

وفى العهد التركى انخفض عدد الطلاب والأساتذة إلى أدنى حد ، والمعتقد أن الطلبة لم يكن يزيد عددهم يومئذ عن الألف ، والأساتذة عن مائة أو نحو ذلك .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، كان عدد الطلبة نحو ألف وخمسمائة ، وفقاً لما نقله إلينا العلامة المستشرق إدوارد لاين (راجع ص ٢٤٤ من هذا الكتاب) .

* * *

وعنى ولاة الأمر ، منذ عهد الإصلاح الأول ، فى عصر إسماعيل ، بإحصاء الأساتذة والطلاب .

(١) ففى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٥ م) بلغ عدد الشيوخ (المدرسين) بالجامع الأزهر ٣٦١ شيخاً ، منهم ١٤٧ من الشافعية ، و ٩٩ من المالكية ، و ٩٦ من الحنفية ، و ٣ من الحنابلة ؛ وبلغ عدد الطلبة (المجاورين) ١٠٨٧٠ طالباً فى خمس عشرة حارة ،وثمانية وثلاثين رواقاً ، منهم ٥٦٥١ من الشافعية ، و٣٨٢٦ من المالكية ، و١٢٧٨ من الحنفية ، و ٢٥ من الحنابلة ؛

وفى أواخر هذا العام (١٨٧٥) زاد عدد الطلاب نحو ٥٦٤ طالباً .

وهذا الإحصاء تقريبى ، إذ كان يوجد يومئذ بالأزهر كثير من المجاورين غير المقيدين .

(الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١٤)

(٢) وقد انخفض عدد الأساتذة والطلاب فى سنة ١٨٧٧ ، وينسب هذا النقص إلى نتائج الحرب الروسية التركية .

(٣) فى سنة ١٨٩٢ ، ورد فى تقرير رسمى أنه يوجد بالأزهر ١٧٨ شيخاً و ٨٤٣٧ طالباً . وقد يرجع هذا الفرق الواضح بين هذا الإحصاء وسابقه ، إلى أن التقرير الرسمى عنى بإحصاء الأساتذة الرسميين والطلبة المقيدين دون غيرهم .

(٤) فى سنة ١٨٩٨ ، كان بالأزهر ١٩١ شيخاً ، و ٨٢٤٦ طالبا .

(٥) فى سنة ١٩٠٢ كان بالأزهر ٢٥١ شيخاً ، و ١٠٤٠٣ طالبا .

(٦) فى سنة ١٩٠٦ ، كان بالأزهر ٣١٢ شيخاً ، و٩٠٦٩ طالباً .

(راجع مقالى الدكتور فولرز عن الأزهر فى دائرة المعارف الإسلامية) .

بعد تنفيذ قانون سنة ١٩١١

(٧) فى سنة ١٩١٨ بلغ عدد طلبة الأزهر والمعاهد الدينية الملحقة به ١٥٨٣٦ طالباً .

(٨) فى سنة ١٩٢٠ بلغ عددهم ، ١٣٢٨٠ طالبا .

(٩) فى سنة ١٩٣٧ بلغ عددهم ، ١٠٨٧٦ طالبا .

(١٠) وفى سنة ١٩٣٨ بلغ عددهم ، ١١٧٩٠ طالبا ، منهم ٧٠٠ طالب من الغرباء من مختلف الأمم .

بعد قيام الجامعة الأزهرية

(١١) فى سنة ١٩٤٠ ، بلغ عددهم ، ١٣٨٢٥ طالبا .

(١٢) فى سنة ١٩٤٥ ، بلغ عددهم ، ١٣٠٤٩ طالبا .

سنة ١٩٤٨

وفى سنة ١٩٤٨ بلغ مجموع الطلاب بالأزهر والمعاهد الدينية (الجامعة الأزهرية) ١٥٦٨٠ طالبا ، موزعين كالآتى :

٦٦٣٢ بالأقسام الابتدائية .

٤٨٤٦ بالأقسام الثانوية .

١٣٦٤ بالأقسام العامة للمعاهد .

٢٨٣٨ بالأقسام العالية بالكليات والإجازات والتخصص .

وبلغ عدد الطلبة الغرباء (طلاب الأروقة يومئذ) من مختلف

الأمم ٩٩٩ طالبا ، منهم ٥٣٩ بالقسم العام ، و ٩٠ بمعهد القاهرة ، ٣٧٠ بمختلف الكليات .

سنة ١٩٥٨

وقد تضاعف عدد طلاب الجامع الأزهر خلال الأعوام العشرة الأخيرة ، فبلغ عددهم فى مختلف المراحل والأقسام فى السنة الدراسية ١٩٥٧ — ١٩٥٨ ، ٣١١٨٣ طالباً ، موزعين كالآتى :

١٥٠٠٥ بالقسم الإبتدائى وعدد فصوله ٣٠٢

١٠٨٧٥ بالقسم الثانوى « « ٢٤٨

٠٣٩٧٣ بالكليات الثلاث وعدد فصولها ٠٧١

٠٠٨٢٥ بأقسام الإجازة « « ٠١٣

٠٠٥٣٢ بمعهد القراءات

طلبة البعوث الإسلامية

وقد نما عدد الطلاب الوافدين على الأزهر من مختلف الأمم الإسلامية فى العهد الأخير نمواً عظيما ، نظراً لما يلقونه من الأزهر من مختلف ضروب العون والتشجيع ، فبلغ عددهم فى سنة ١٩٥٨ ، ٢٥٣٦ طالباً ، ينتمون إلى مختلف الأمم والأروقة على النحو الآتى :

الأروقة السودانية (وتضم شمال السودان وجنوبه وشرقه

ودارفور والسنارية) وينتمى إليها ٩٣٧ طالباً .

رواق المغاربة (ويضم ليبيا وتونس والجزائر ومراكش) وينتمى إليه ٢٦٦ طالباً .

الجبرت (ويضم الحبشة وإريتريا والصومال) وينتمى إليه ٣٠٠ طالباً .

البرنو (ويضم السنغال ونيجيريا وغنيا وساحل الذهب وغانة) وينتمى إليه ١٣٨ طالباً .

صليح (منطقة تشاد) ويضم ٦٠ طالباً .

وجنوب إفريقية (ويضم زنجبار وأوغندة وجنوب إفريقية) وينتمى إليه ١٨ طالباً .

والنوبة ، وينتمى إليه ٢٠٦ طالباً .

والواحات ، وينتمى إليه ١٢ طالباً(١)

واليمن ، وينتمى إليه ٢٠ طالباً

ورواق الشوام (ويضم فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) وينتمى إليه ٢٨٠ طالباً .

وأندونسيا (ويضم أندونسيا والفلبين والملايو وسيام) وينتمى إليه ١٥٠ طالباً .

---

(١) يلاحظ أن طلبة النوبة والواحات هم فى الواقع مصريون ، ولكن الظاهر أنهم ضموا إلى طلبة البعوث الإسلامية لبعد بلادهم ، وشظف ظروفهم .

والهنود (ويضم الهند وباكستان) وينتمى إليه ٢٢ طالباً ؛

والحرمين (المملكة السعودية) وينتمى إليه سبعة طلاب .

والأفغان ، وينتمى إليه خمسة طلاب .

ورواق الأتراك (ويضم تركيا واليونان وتركستان وألبانيا ويوجوسلافيا وروسيا) وينتمى إليه ٩٦ طالباً .

ورواق البغادة (ويضم كردستان والعراق والبحرين والكويت وإيران) وينتمى إليه ٤٦ طالباً .

والصين ، ويوجد منها طالب واحد .

ويوزع طلاب البعوث الإسلامية من حيث مراحل الدراسة على النحو الآتى :

١٦٤٩ طالباً بمعهد البعوث ، بمراحله الثلاث .

٠٣٦٠ « بمعهد القاهرة الدينى .

٠٢٣١ « بكلية الشريعة .

٠٢٠٤ « بكلية اللغة العربية .

٠٠٩٢ « بكلية أصول الدين

وقد بلغ عدد طلبة البعوث الإسلامية فى العام الدراسى الحاضر (سنة ١٩٥٩) نحو ثلاثة آلاف طالب ؛ ووفد على الجامع الأزهر لأول مرة طلاب من جمهورية « بورما » ، وازداد نشاط البعثات الوافدة من جزائر الفلبين وأواسط إفريقية .

ويلقى طلبة البعثوث الإسلامية من إدارة الأزهر ومشيخته كل عون ورعاية . وقد أنشئت لإقامتهم مدينة جامعية خاصة نتحدث عنها فى مكان آخر .

الأساتذة ومن إليهم

وتقوم على تثقيف هـذا الجيش من طلاب الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، جمهرة كبيرة من الأساتذة والمدرسين والمراقبين ، وقد بلغ عددهم فى سـنة ١٩٥٨ ، ١٦٥٦ ، ينقسمون على النحو الآتى :

١٤١ أستاذاً بكلية اللغة العربية .

٠٩٧ « بكلية الشريعة الإسلامية .

٠٦٠ « بكلية أصول الدين .

١٢٠٥ مدرساً بمختلف المعاهد الدينية .

٠٠٩٠ مراقباً بالكليات والمعاهد .

٠٠٤٧ مدرساً منتدباً .

٠٠١٦ بمعهد القراءات .

وهذا عدا الوعاظ ، وعددهم ٣٨٢ واعظاً ، وعدا الأطباء الذين يعنون بالشئون الصحية للطلاب ، بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية المختلفة .

— ٢ —

ميزانية الجامع الأزهر

لم يكن للجامع الأزهر عند إنشـائه ميزانية أو مخصصات معينة ، وكانت نفقاته كمسجد جامع ، تقوم بها الدولة (أو الأمير) شأن بقية المساجد الأخرى . ولما بدأ تحوله إلى معهد للدرس لم يكن لأساتذته أو طلابه ، مخصصات ونفقات معينة إلا ما كان من طريق الهبة ، كما حدث عند تعيين أول جماعة من أساتذته أيام العزيز ، حيث أجرى عليهم أرزاقاً خاصة ، وأجرى عليهم كذلك وزيره ابن كلّس .

وتدل وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر ، أنه حتى ذلك العصر ، لم يكن لصفة الأزهر الجامعية اعتبار خاص ؛ فكل ما فى هذه الوقفية منصب على نفقات الجامع ، وفرشه ، وإنارته ، وصيانته ، ونفقات المشرفين عليه ، ولم ترد فيها أية إشارة للأساتذة أو الطلاب .

على أنه مذ برزت صفة الأزهر الجامعية ، وكثرت حلقاته الدراسية ، بدأ الاهتمام بشئون الأساتذة والطلاب ، وبدأ الأمراء (من الخلفاء أو السلاطين) والكبراء ، يخصون الأزهر بأعطيتهم

وصلاتهم . وقد أشار المقريزى إلى هـذه الأعطية والصلات إشارة عامة ، ومنها يستخلص أنها كانت هى المورد الرئيسى للجامع الأزهر .

واتخذت هذه الأعطية والهبات على كر العصور صفة الموارد الثابتة بما كان ينص عليه من حبسها ووقفها ، ورصد الأعيان الثابتة المغلة لها . وكانت أحياناً تتخذ صفة التعميم ، فترصد على أساتذة الأزهر أو طلابه بصفة عامة : وأحياناً تتخذ صـفة التخصيص ، فترصد على طائفة معينة من الأساتذة والطلاب ، أو على المنتمين منهم لمذهب معين ، أو تخصص للنفقة فى مواسم أو مناسبات معينة .

وعاش الأزهر طوال العصور على تلك الموارد الخيرية الموقوفة . ولم تكن لأساتذته أو طلابه أية موارد عامة ، إلا ما كان للقلائل منهم من موارد خاصة . ومن ثم ، فقد كان معظمهم يعيش عيشة متواضعة ، يغلب عليها التقشف والحرمان .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر فقط ، نجد للأزهر ميزانية خاصة مرصودة عليه ، تزداد عاماً بعد عام ؛ ومرجعها إلى موردين أساسيين ،هما الأوقاف المرصودة عليه ،وإعانة الحكومة.

وفيما يلى بعض أرقام هذه الميزانية :

(١) فى سنة ١٨٩٢ ، ورد بالتقرير الرسمى الذى سبق ذكره

فى ملحق تعداد الطلاب ، أن ميزانية الأزهر بلغت ٤٣٧٨ جنيهاً إنجليزياً للإيرادات ؛ وكان يوزع كل يوم عشرة آلاف رغيف من الخبز .

(٢) فى سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ ، بلغت ميزانية الأزهر ١٤٠٠١ جنيهاً إنجليزياً للإيرادات ؛ من ذلك ٦٦١١ جنيهاً من نظارة المالية و ٥٧٥٧ جنيهاً من ديوان الأوقاف ، و ١٦٣٣ جنيهاً من أوقاف الأروقة ، وكان يوزع كل يوم ثلاثة عشر ألف رغيف من الخبز .

(عن مقال الدكتور فولرز عن الأزهر بدائرة المعارف الإسلامية)

(٣) فى سنة ١٩٠٧ بلغت ميزانيــة الأزهر والمعاهد الدينية ١٩٨٠٣ جنيهاً إنجليزياً .

(٤) فى سنة ١٩١٠ — ١٩١١ بلغت هـذه الميزانية ٤٩٧٢٠ جنيهاً إنجليزياً ، منها ٥٨٨٤ من ديوان الأوقاف ، والباقى من نظارة المالية وأوقاف الأروقة .

(٥) فى سنة ١٩٢٠ ، بلغت هذه الميزانية ٢٠٦٨٨١ جنيهاً .

(٦) فى سنة ١٩٢٦ بلغت ميزانية الأزهر والمعاهد الدينية ٢٠٩٨٨٨ جنيهاً مصرياً .

(عن الوقائع المصرية)

(٧) فى سنة ١٩٣٠ بلغت الميزانية ٣٣٥٩٦٤ جنيهاً مصرياً ،

(٨) وفى سـنة ١٩٣٥ بلغت ميزانية الأزهر والمعاهد الدينية ٢٨٢٦٢٨ جنيها مصرياً .

(٩) وبلغت هذه الميزانية فى سنة ١٩٤٠ — ٣٤٦٤٠٠ جنيهاً .

(١٠) وبلغت فى سنة ١٩٤٥ — ٦٩٥٧٨٠ جنيهاً .

(١١) وبلغت فى سنة ١٩٥٠ — ١,٢٣٠,٣٩٠ جنيهاً .

ميزانية الجامع الأزهر والمعاهد الدينية

عن سنة ١٩٥٨ — ١٩٥٩

بلغت ميزانية الجامع الأزهر والمعاهد الدينية لهذه السنة المالية كالآتى :

٢,١٢٥,١٠٠ جنيهاً للإيرادات

٢,١٢٥,١٠٠ للمصروفات

وتتألف مصادر الإيرادات من الأبواب الآتية :

ا — مبلغ ٥٩,٧٠٠ جنيها ريع أوقاف الأزهر والمعاهد الدينية

ب — والباقى من ميزانية الدولة موزعاً كالآتى :

(١) مبلغ ١,٧٧٤,٤٧٥ جنيهاً من ميزانية الدولة (قسم ٢٧) الجامع الأزهر والمعاهد الدينية .

(٢) مبلغ ٥١٢٥ جنيهاً من ميزانية الدولة (قسم ٢٧) مرتب بالروزنامة (للجامع الأزهر ورواق الأبتغاوية وفقراء

مجاورى زاوية العميان) .

(٣) مبلغ ٢٦٠,٠٠٠ جنيهاً من ميزانية الدولة (قسم ٢٣) إعانة غلاء المعيشة .

وجملة ما تقدم هو ٢,٠٣٩,٦٠٠ جنيهاً يضاف إليها إيراد ريع أوقاف الأزهر ، فتكون الجملة الكلية ٢,١٢٥,١٠٠ للإيرادات .

أما المصروفات فتشمل خمسة أبواب موزعة على النحو الآتى :

(١) ١,٠٠٩,٠٠٠ جنيهاً مرتبات وأجور ومكافآت .

(٢) ٤٩٨,٣٠٠ « مصروفات عامة .

(٣) ١٣,٥٠٠ « للأعمال الجديدة .

(٤) ٣٤٤,٣٠٠ « لنشر الثقافة الإسلامية والعناية بالبعثات الوافدة إلى الأزهر .

(٥) ٢٦٠,٠٠٠ جنيهاً إعانة غلاء المعيشة .

ومجموع ما تقدم هو مبلغ ٢,١٢٥,١٠٠ للمصروفات .

— ٣ —

جـــراية الخبز

قدمنا أن الجامع الأزهر لم تكن له ، أو لأساتذته وطلابه ، مخصصات رسمية ثابتة ، سوى ما كان يرصد عليه ، وعلى أساتذته وطلابه ، من الأحباس والهبات الخيرية الثابتة والموقتة .

وكان مما يخص به أساتذة الأزهر وطلابه فى مختلف العصور ، من تلك الأعطية والهبات ، مقادير كبيرة من الطعام والخبز ، وأحياناً من الكساء .

ولدينا فى ذلك نصوص عديدة ، تلقى ضوءاً على هذا النوع من البر بأهل العلم أساتذة وطلاباً ، ومن ذلك ما أورده المقريزى فى الخطط ، عند الكلام على ما قام به الأمير سعد الدين بشير الجامدار وزير الملك الناصر حسن فى سنة ٧٦١ هـ ، من عمارة الجامع الأزهر وتجديده ، إذ يقول :

« ورتب (أى الأمير المذكور) للفقراء المجاورين طعاماً يطبخ كل يوم ، وأنزل إليه قدوراً من نحاس جعلها فيه » .

وما ذكره بعد ذلك عند الكلام على طلاب الأروقة :

« وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع (أى الأزهر) بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لاسيما فى المواسم »[1] .

وينوه الجبرتى بما رتبه الأمير عبد الرحمن كتخدا مجدد الأزهر فى القرن الثامن عشر لإطعام الأساتذة والطلاب فى الفقرة الآتية :

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٥٤ و ٥٥ ، وراجع ص ٧٣ و ١٠٥ من هذا الكتاب حيث ترد نصوص أخرى عن أيام الدولة الفاطمية .

« وزاد فى مرتبات الأزهر والأخباز ، ورتب لمطبخه فى خصوص أيام رمضان فى كل يوم خمسة أرادب أرز أبيض وقنطار سمن ورأس جاموس ، وغير ذلك من التراتيب والزيت والوقود للمطبخ »(١) .

وكانت هذه الأحباس النوعية ترتب لأساتذة الجامع وطلابه ، أحياناً بصفة عامة ، وأحياناً يخص بها طائفة منهم ، أو رواق معين من الأروقة ؛ ومن ذلك وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا التى خص فيها رواق الصعايدة ، أكبر أروقة الجامع ، بالجراية المعروفة بالجراية الكبيرة ، وهى رغيفان كل يوم لعدد مخصوص من المدرسين والطلبة المقيدين به ، بشرط أن يكونوا من المشتغلين بالعلم حضوراً وتدريساً .

ووقفية محمد باشا أبى سلطان كبير أعيان المنيا ، التى خص فيها أيضاً رواق الصعايدة ، بأن يصرف له ثلاثمائة وعشرون رغيفاً فى كل يوم ، يصرف منها لمائة واثنين من الطلبة ، لكل طالب رغيفان ، ويصرف لستة وعشرين من المدرسين لكل واحد ثلاثة أرغفة ، وللناظر الحسبى ، وهو شيخ الجامع عشرون رغيفاً فى كل يوم ، ولشيخ الرواق سبعة أرغفة ، وللنقيب

---

(١) عجائب الآثار ج ٢ ص ٦ .

المتولى توزيعها كل يوم أربعة أرغفة(١) .

* * *

وقد استمرت جراية الخبز عصوراً ، من أخص وجوه البر الأزهرية ، ونمت أرقامها تباعا ، حتى بلغت فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحالى نيفا وعشرة آلاف رغيف ، توزع كل يوم على الأساتذة والطلاب ، بنسب ومقادير معينة .

ثم رؤى أخيراً ، أن هـذا النظام فى توزيع الخبز على الأساتذة والطلاب لم يعد يتفق مع روح العصر ، وأنه مع الإبقاء على الأوقاف المخصصة لذلك ، يحسن استبدال مقادير الخبز المرصودة ، بمقابلها من المال ، وأن توزع حصيلة ذلك ، على الأساتذة والطلاب بدلا من الخبز .

وصدر فى سنة ١٩٢٩ القانون الخاص بذلك ؛ وقد نص على عدم تنفيذ الشروط الواردة فى حجج الأوقاف بترتيب مقدار من الخبز لمصلحة الجامع الأزهر ، أو المعاهد الدينية الإسلامية الأخرى ، أو علماء أو طلاب هذه المعاهد أو فريق منهم ، بغير دفع ثمن ذلك المقدار ؛ وعلى أن يحدد ثمن الخبز مرتين فى العام ، فى يناير ويوليه ، بواسطة لجنة خاصة ، وعلى أن توزع المبالغ الناتجة من تنفيذ شروط الأوقاف ، على الوجه الذى بينه

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣١ .

القانون ، بين المستحقين حسب القواعد المتبعة وقت صدوره ؛ أو أية قواعد أخرى يضعها مجلس الأزهر الأعلى مع مراعاة شروط الواقفين .

وقد بلغت مخصصات الجراية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية فى سنة ١٩٤٠ مبلغ ٣٤٠٠٠ جنيها ، يصرف منها ٢٤٢٠٠ جنيها للقسم العام بالأزهر والكليات وأقسام الإجازات والتخصص ومعهد القاهرة ، و ١٣٥٠ جنيها لمعهد الإسكندرية ، و ٢١٠٠ لمعهد طنطا ، و ١٤٥٠ لمعهد أسيوط ، و ٢٧٠٠ لمعهد الزقازيق ، و ١٢٥٠ لمعهد شبين الكوم ، و ٣٠٠ لمعهد دسوق ، و ٤٥٠ لمعهد دمياط ، و ٢٠٠ لمعهد قنا ؛

وبلغت هذه المخصصات فى سنة ١٩٤١ ، مبلغ ٤٦٠٠٠ جنيها وذلك بسبب ارتفاع أثمان الخبز .

وبلغت فى سنة ١٩٤٨ ، مبلغ ٦٢٣٠٠ جنيها .

وبلغت فى ميزانية ١٩٥٨–١٩٥٩ مبلغ ٣٥٧٠٠ جنيها ، وهذا عدا الاستحقاقات النقدية لريع الأعيان الموقوفة على الأساتذة والطلاب ، وقد بلغت ١٦٧٠٠ جنيها ؛

ويجرى توزيع حصيلة الجراية النقدية على الأساتذة والطلاب على النحو الآتى :

يصرف يومياً للأستاذ الأكبر (شيخ الجامع الأزهر) ثمن

اثنتى عشرة أقة من الخبز ، تبلغ قيمتها النقدية مبلغ سبعة جنيهات و ٣٦٠ مليما فى الشهر .

ويصرف يومياً لرؤساء الكليات وشيوخ المعاهد ومديرى التفتيش بالقاهرة ، وسكرتير عام الأزهر ، ووكيله ، ثمن ست أقات من الخبز ، تبلغ قيمتها النقدية ثلاثة جنيهات و ٦٨٠ مليما فى الشهر .

ويصرف لشيوخ المعاهد بالأقاليم أيضاً ثمن ست أقات ، تبلغ قيمتها النقدية جنيهين و ١٦٠ مليما وذلك لفرق السعر .

ويصرف يومياً لكل عالم ، أستاذ أو مدرس ، فى معاهد القاهرة أو الكليات أو معهد البعوث ، ثمن ثلاث أقات من الخبز تبلغ قيمتها النقدية جنيها و ٨٤٠ مليما فى الشهر .

ويصرف لمدرسى المعاهد الدينية بالأقاليم ما قيمته مبلغ جنيه وثمانين مليما فى الشهر .

ويتناول طلاب الأقسام الابتدائية فى معاهد القاهرة والأقاليم كل طالب ٣٠٠ مليما فى الشهر .

ولا يتناول طلاب الكليات والأقسام الثانوية شيئاً .

وتوزع الإستحقاقات النقدية على مستحقيها من الأساتذة والطلاب الموقوفة عليهم وفقاً لشروط الواقفين .

ج — الملاحق

— ١ —

ثبت شيوخ الجامع الأزهر

منذ أواخر القرن السابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر

أول من ذكره الجبرتى من شيوخ الجامع الأزهر، هو الشيخ محمد عبد الله الخرشى المالكى المتوفى سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠ م).

ثم تولى المشيخة من بعده الشيوخ الآتية أسماؤهم على التوالى :

(٢) الشيخ إبراهيم بن محمد بن شهاب الدين البرماوى الشافعى من ١١٠١ — ١١٠٦ هـ (١٦٩٠ — ١٦٩٤ م).

(٣) الشيخ محمد النشرتى المالكى من ١١٠٦ — ١١٢٠ هـ (١٦٩٤ — ١٧٠٨ م).

(٤) الشيخ عبد الباقى القلينى المالكى من ١١٢٠ هـ — ٠٠٠ (١٧٠٨ — ٠٠٠ م).

(٥) الشيخ محمد شنن المالكى من ٠٠٠، إلى ١١٣٣ هـ (١٧٢١ م).

(٦) الشيخ إبراهيم موسى الفيومى المالكى من ١١٣٣ — ١١٣٧ هـ (١٧٢١ — ١٧٢٥ م) :

(٧) الشيخ عبد الله الشبراوى الشافعي من ١١٣٧ — ١١٧١ هـ (١٧٢٥ — ١٧٥٧ م) .

(٨) الشيخ محمد سالم الحفنى الشافعى من ١١٧١ — ١١٨١ هـ (١٧٥٧ — ١٧٦٧ م)

(٩) الشيخ عبد الرؤوف السجينى الشافعى من ١١٨١ — ١١٨٢ هـ (١٧٦٧ — ١٧٦٨ م) .

(١٠) الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى الشافعى من ١١٨٢ — ١١٩٠ هـ (١٧٦٧ — ١٧٧٦ م) .

(وحدث على أثر وفاته شغب بين الحنفية والشافعية أدى إلى تعطيل المشيخة حينا)

(١١) الشيخ أحمد العروسى الشافعى من ١١٩٢ — ١٢٠٨ هـ (١٧٧٨ — ١٧٩٣ م) .

(١٢) الشيخ عبد الله الشرقاوى الشافعى من ١٢٠٨ — ١٢٢٧ هـ (١٧٩٣ — ١٨١٢ م) .

(١٣) الشيخ محمد الشنوانى الشافعى من ١٢٢٧ — ١٢٣٣ هـ (١٨١٢ — ١٨١٨ م) .

(١٤) الشيخ محمد أحمد العروسى الشافعى من ١٢٣٣ — ١٢٤٥ هـ (١٨١٨ — ١٨٢٩ م) .

(١٥) الشيخ أحمد بن على الدمهوجى الشافعى من ١٢٤٥

— ١٢٤٦ هـ (١٨٢٩ — ١٨٣٠ م) .

(١٦) الشيخ حسن بن محمد العطار من ١٢٤٦ — ١٢٥٠ هـ (١٨٣٠ — ١٨٣٤ م) .

(١٧) الشيخ حسن القويسنى الشافعى من ١٢٥٠ — ١٢٥٤ هـ (١٨٣٤ — ١٨٣٨ م) .

(١٨) الشيخ أحمد عبد الجواد الشافعى من ١٢٥٤—١٢٦٣هـ (١٨٣٨ — ١٨٤٧ م) .

(١٩) الشيخ إبراهيم البيجورى الشافعى من ١٢٦٣—١٢٧٧هـ (١٨٤٧ — ١٨٦٠ م) .

(وبقى الأزهر حيناً بلا شيخ لحدوث بعض الاضطرابات بالأزهر ، وإقامة أربعة وكلاء نيابة عن الشيخ البيجورى للقيام بشئون الجامع . ولما توفى سنة ١٢٧٧ هـ ، استمر هؤلاء النواب الأربعة فى القيام بشئونه حتى عين الشيخ مصطفى العروسى شيخاً) .

(٢٠) الشيخ مصطفى العروسى من ١٢٨١ — ١٢٨٧ هـ (١٨٦٤ — ١٨٧٠ م) .

(٢١) الشيخ محمد المهدى العباسى الحنفى من ١٢٨٧ — ١٢٩٩ هـ (١٨٧٠ — ١٨٨٢ م) .

(٢٢) الشيخ شمس الدين الإنبابى الشافعى من ١٢٩٩ — ١٣١٣ هـ (١٨٨٢ — ١٨٩٦ م) .

(٢٣) الشيخ حسونة النواوى الحنفى من ١٣١٣ — ١٣١٧ هـ (١٨٩٦ — ١٩٠٠ م).

(٢٤) الشيخ عبد الرحمن القطب الحنفى النواوى من ١٣١٧ — ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ — ١٩٠٠ م).

(٢٥) الشيخ سليم البشرى المالكى من ١٣١٧ — ١٣٢٠ هـ (١٩٠٠ — ١٩٠٤ م).

— ٢ —

مكتبة الأزهر

كان للدولة الفاطمية — منشئة الجامع الأزهر — عناية خاصة بإنشاء المكتبات العظيمة ؛ وقد اشتهرت بالأخص أيامها ، مكتبة دار الحكمة ، وكانت من أغنى المكتبات فى علوم الكلام ، والفقه ، والفلسفة ، والفلك ، وغيرها ؛ واشتهرت كذلك مكتبة القصر الفاطمى ، وكانت بضخامتها ، ونفاسة محتوياتها ، من أعظم مكتبات العالم الإسلامى يومئذ ، وقد بددت محتوياتها على أثر استيلاء صلاح الدين على مقاليد الحكم ، ومحوه لرسوم الدولة الفاطمية ، واستصفاء تراثها .

وهنالك ما يدل على أن الجامع الأزهر ، كان منذ أيام الدولة الفاطمية ، يضم أيضاً مكتبة عظيمة ؛ وقد نقلنا فيما تقدم ،

ما رواه لنا ابن ميسر فى أخبار سنة ٥١٧ هـ ، حيث يقول لنا إن الإشراف على خزانة الكتب بالجامع الأزهر قد أسند إلى داعى الدعاة أبى الفخر صالح ، وقد كان داعى الدعاة من أكبر الرؤساء الروحيين فى عصر الدولة الفاطمية ، وهو ما يدل على أهمية خزانة الكتب الأزهرية يومئذ .

ولما تطورت الظروف ، وبرزت أهمية الأروقة الأزهرية ، كان لكل رواق مكتبته الخاصة ، لتيسر للطلاب المنتمين إليه مهمة البحث والدرس ؛ فكان فى كل من رواق المغاربة ، ورواق الترك ، ورواق الشوام ، ورواق الصعايدة ، ورواق الحنفية ، وغيرها من الأروقة ، مجموعات من الكتب تبلغ كل مجموعة منها بضعة آلاف مجلد ، وكانت أهمها مكتبة رواق المغاربة .

وقد زار هذه المجموعات الأزهرية من الكتب فى أوائل القرن التاسع عشر ، المستشرق بوركهارت ، ونشر عنها فى سنة ١٨١٦ فهرساً بالإنجليزية عنوانه :

A Catalogue of the Books in the Mosque el-Azhar.

ونشر المستشرق فليجل ، ملخصاً لمحتويات هذه المجموعات وذلك وفقاً لمخطوط عثر به فى مكتبة ڤينا .

ولما أنشئت دار الكتب المصرية فى سنة ١٨٧٠ ، أريد أن

تضم إليهـــا مكتبات الأروقة الأزهرية ، فرفض أولو الأمر بالأزهر يومئذ ، وفضلوا أن تبقى هذه المكتبات على حالها .

وفى سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧) ، فى عهد مشيخة الشيخ حسونة النواوى ، أنشئت للأزهر مكتبة عامة ، وذلك بإشارة المغفور له الشيخ محمد عبده ، وتألفت نواتها الأولى من مجموعات الكتب التى بأروقة الجامع ، ومكتبات بعض المساجد الأخرى ؛ وبلغ ماكانت تضمه وقت إنشائها زهاء ثمانية آلاف مجلد ؛ وقد نما هذا الرقم وارتفع فى العهد الأخير ، بماكان يهدى إلى المكتبة من المجموعات الخاصة ، حتى أصبحت تضم اليوم نحو مائة ألف مجلد فى مختلف الفنون ، منها خمسة وعشرون ألف مخطوط ، معظمها من أمهات كتب الحديث والتفسير والفقه وعلوم الدين واللغة .

وتشغل مكتبة الأزهر العامة بناء المدرسة الأقبغاوية التى على يمين بابه الغربى الكبير (باب عبد الرحمن كتخدا) ، والمدرسة الطيبرسية التى تقابلها ؛ وقد صنفت محتوياتها وفق نظام عصرى ، وطبع فهرسها فى ستة مجلدات كبيرة (سنة ١٩٥٠) .

ولم يبق اليوم من مكتبات الأروقة الأزهرية القديمة ، سوى مكتبة رواق المغاربة ، وهى تحتوى على مجموعة قيمة من الكتب تبلغ زهاء ثمانية آلاف مجلد ، ومنها عدد من نفائس

المخطوطات ؛ وفى هذه المكتبة كان يبحث ويراجع ، العلامة الفيلسوف ولى الدين ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، ومن بعده مواطنه العلامة شهاب الدين المقرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ ؛ وللمقرى تعليقات وتقييدات كثيرة ، على بعض المخطوطات التى تحفظ حتى اليوم بمكتبة الرواق المذكور .

— ٣ —

أروقة الجامع الأزهر وحاراته

يرجع نظام الأروقة بالجامع الأزهر إلى عصوره الأولى حسبما يبدو ذلك مما ذكره المقريزى فى « الخطط » عند الكلام على ما قام به الأمير سودوب حاجب الحجاب ، والمتولى النظر على الجامع الأزهر ، فى سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) ، من الأمر بإخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الإقامة به ، حيث يقول :

« إنه لم يزل فى هذا الجامع ، منذ بنى ، عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه ، وبلغت عدتهم فى هذه الأيام سبعمائة رجلا ما بين عجم وزيالعة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة منهم رواق يعرف بهم »[1] .

وقد استمر نظام الأروقة ، أو نظام طوائف الأساتذة

---

(١) الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

والطلاب ، على كر العصور ، من أنظمة الأزهر الأساسية ، حيث كان لكل طائفة تنتمى إلى إقليم معين داخل مصر ، أوقطر معين من الأقطار الإسلامية أو البلاد التى بها مسلمون ، جناح بالجامع أو رواق خاص بها .

وكانت أروقة الجامع الأزهر حتى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن الحالى ، تسعة وعشرين رواقاً .

وتنقسم هذه الأروقة إلى قسمين ، الأول الأروقة المصرية ، وهى ستة أروقة ، أولها وأهمها رواق الصعايدة ، وقد كان منذ إنشائه فى أواخر القرن الثامن عشر على يد عبد الرحمن كتخدا ، أكبر أروقة الجامع وأزخرها بالطلاب والأساتذة ، وكان ينتمى إليه منهم نحو الألف . ويليه فى الأهمية رواق الشرقاوية ، وقد أنشئ بمسعى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الجامع الأزهر فى أوائل القرن الماضى . ثم رواق البحيرة ، ورواق الفيومية ، ورواق الشنوانية ، ورواق الفشنية .

على أن أروقة الغرباء بالأزهر ، هى أهم أروقته وأكثرها عددا ، وهى تبلغ ستة عشر رواقاً ، ينتمى إليها الأساتذة والطلاب ، من مختلف الأمم الإسلامية . وقد كانت هى المقصودة بالإنشاء منذ البداية ، لكى يأوى إليها الأساتذة والطلاب ، الوافدون على الجامع الأزهر ، من هذه الأقطار النائية ؛ وهذه الأروقة هى الآتية :

رواق المغاربة ، وهو من أقدم أروقة الجامع وأهمها ، وقد جدد أيام السلطان قايتباى حسبما هو منقوش على جدرانه ؛ ويقع فى شرقى الجامع ، وما زال محتفظاً بمكتبته القديمة ، وهو مخصص لطلاب ليبيا والجزائر وتونس ومراكش . ولا يستحق من أوقافه إلا من كان مالكى المذهب .

ورواق الشوام ، وهو أيضاً من أقدم الأروقة ، وأهمها ، وينسب إنشاؤه إلى السلطان قايتباى ؛ وقد جدده عبد الرحمن كتخدا وزاد فيه . ويخصص لطلاب سوريا وفلسطين والأردن ولبنان ؛

ورواق الأتراك ، وينسب إنشاؤه أيضاً إلى السلطان قايتباى ، وهو من أكبر الأروقة ، ويخصص لطلاب تركيا واليونان وألبانيا ويوجوسلافيا وروسيا وتركستان .

ورواق السنارية القديم ، وقد ألحق به شمال السودان ودارفور وجنوب السودان ، وشرق السودان .

ورواق الجبرت وهو مخصص لأبناء الحبشة ، وإريتريا والصومال .

ورواق البرنو أو البرناوية وهو مخصص لأبناء السنغال ، وبلاد النيجر ، وغنيا وساحل الذهب وغانة .

ورواق صليح أو دكارنة صليح ، وينتمى إليه الوافدون من منطقة تشاد فى أواسط إفريقية .

ورواق البرابرة ، وينتمى إليه مجاورو البربر من موريتانيا وما إليها .

ورواق جنوب إفريقية ، وينتمى إليه أبناء أوغنده وزنجبار ودار السلام وجنوب إفريقية ، وهو حديث النشأة .

ورواق الحرمين . وينتمى إليه أبناء الحجاز والمملكة السعودية .

ورواق اليمنية ، وينتمى إليه أبناء اليمن .

ورواق البغدادية والأكراد ، وقد أدمجا الآن فى رواق واحد هو رواق البغادة والأكراد ، وينتمى إليه أبناء كردستان ، والعراق ، والبحرين ، والكويت ، وإيران .

ورواق الهنود ، وقد كان ينتمى إليه أبناء الهند ، وباكستان ، ولكن أنشئ الآن رواق جديد لأبناء الباكستان .

ورواق الجاوه القديم ، ويسمى الآن رواق أندونيسيا ، ويشمل أندونيسيا والفلبين ، وبلاد الملايو ، وسيام .

ورواق الأفغان (وقديماً رواق السليمانية) ، وهو مخصص لأبناء أفغانستان .

ورواق الصين ، وقد أنشئ حديثاً ، وينتمى إليه أبناء القارة الصينية .

وتوجد ثمة إلى جانب هذه المجموعة الكبيرة من أروقة أبناء الأمم الإسلامية ، عدة أروقة قديمة أخرى يتميز كل منها بطابعه الخاص وهى :

رواق ابن معمر ، وهو من أشهر أروقة الجامع ، وهو غير مخصص لجنسية أو طائفة معينة ، ويلتحق به طلاب من مختلف المذاهب والطوائف .

ورواق الحنفية ، وهو من أروقة الأزهر الحديثة ، وقد خصص للطلاب الحنفية من المصريين ، وحدد عددهم بثمانية وعشرين مجاوراً .

ورواق الحنابلة ، وهورواق صغير يقع بجوار زاوية العميان

ورواق زاوية العميان ، المخصص للمكفوفين .

ورواق الجوهرية ، ومقره بالمدرسة الجوهرية .

ورواق الطيبرسية ، ومقره بالمدرسة الطيبرسية .

ورواق الأقبغاوية ، ومقره بمدرسة الأقبغاوية .

ومعظم هذه الأروقة ، باق على حاله ، ولاسيما الأروقة الكبيرة القديمة ، مثل أروقة الصعايدة ، والمغاربة ، والأتراك ، والشوام ، والجبرت ، تحتل أجنحتها القديمة بالجامع ، ولكل منها شيخ يدير شئونه وفقاً للنظام القديم ، ولكن لا يقيم بها اليوم من الشيوخ والطلاب سوى القليل .

ويلاحظ من جهة أخرى ، أن هناك عددا من الأروقة ، لا تحتل بالجامع الأزهر أمكنة معينة ، ولكنها تحمل اسمها الخاص الذى ينتمى إليه أبناء الأمم التابعة لها ، مثل رواق البرناوية ،

ورواق صليح ، وشمال السودان ، وشرق السودان ، وجنوب إفريقية ، والباكستان ، والصين .

* * *

أما حارات الجامع الأزهر ، فقد كانت عبارة عن مجموعة من الممرات والأمكنة التى توضع بها خزائن ودواليب المجاورين ، وتعرف كل حارة منها بطائفة معينة من المجاورين ، وكان عددها اثنتى عشرة حارة . وقد أزيلت هذه الحارات ، واندثرت مذ وضعت أنظمة الأزهر الجديدة .

— ٤ —

مدينة البعوث الإسلامية

ازداد عدد طلاب البعوث الإسلامية الوافدين على الأزهر من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فى الأعوام الأخيرة ، بصورة مضطردة ، حتى وصل عددهم اليوم إلى نحو ثلاثة آلاف طالب .

ونظراً لما يخص به الجامع الأزهر أولئك الطلاب الوافدين عليه ، من رعاية خاصة ، فقد رأى أن ينشئ لهم مدينة جامعية تخصص لسكناهم ، ووافق مجلس الوزراء بالفعل على هذا المشروع فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ .

وتم إنشاء هذه المدينة الجامعية بالفعل على أحدث طراز ،

وعلى رقعة كبيرة تقع بأرض الغفير على مقربة من حى الدراسة ، وأنشئ بها واحد وأربعون وحدة سكنية تتسع كل منها لسكنى ١٢٠ طالباً ، وبكل منها أبهاء للمطالعة والأكل والاستقبال .

كما أنشئ بها مسجد للصلاة ، ومجموعة مستقلة من المبانى للمحال التجارية ، وتتخلل هذه المجموعات طائفة من الحدائق ؛ وقد بلغت تكاليف هذه المنشآت حتى اليوم زهاء مليونين من الجنيهات ، وأطلق عليها اسم « المدينة السكنية لطلبة البعوث الإسلامية » ، وقد بدأ الطلاب الوافدون فى اتخاذ مساكنهم بها بالفعل.

ولما كانت هذه المدينة قد أعدت لسكنى نحو خمسة آلاف طالب ، ولما كان عدد طلبة البعوث الإسلامية يبلغ الآن (سنة ١٩٥٩) نحو ثلاثة آلاف ، فقد أعد مشروع لأن تخصص وحدتان سكنيتان من وحدات المدينة ، لمستشفى يخصص للعناية الصحية بطلاب الأزهر .

وهناك أيضاً مشروع لإنشاء ملاعب رياضية للأزهر على رقعة شاسعة تواجه المدينة قدرها عشرون فداناً ، والمنظور أن تشتمل هذه المنشآت على إستاد جامعى ، وصالة للاجتماعات وحمام للسباحة ، وملاعب وأبهاء لمختلف أنواع الرياضة التى يمارسها الطلاب .

وفضلا عن توفير السكنى المريحة لطلاب البعوث الإسلامية على هذا النحو ، فإن الجامع الأزهر ، يتكفل بنفقاتهم الأخرى ،

فيمنح الطلاب الغرباء سواء فى معهد البعوث أو معهد القاهرة ، أو الكليات ، إعانات شهرية تتراوح بين ستة جنيهات ونصف ، وتسعة جنيهات ونصف لكل طالب ، بما فى ذلك بدل السكن . وتبدأ الإعانة من خمسة جنيهات للطلاب الذين يتمتعون بالسكن فى مدينة البعوث . ولا شك أن هذه مأثرة عظيمة ، تتفق مع تقاليد الأزهر التالدة فى رعاية الطلاب الوافدين عليه .

— ٥ —

صلات الجامع الأزهر

بالعالم الخارجى

لبث الجامع الأزهر على كر العصور ، وثيق الصلات بسائر الأمم العربية والإسلامية ، عن طريق الوافدين عليه من الأساتذة والطلاب من أبناء هذه الأمم ؛ وكانت صفته كأعظم الجامعات الإسلامية ، وأعظم موئل للعلوم الدينية والثقافة العربية ، تجعل منه شبه منظمة عربية إسلامية كبرى ، تتوثق فيها وشائج المحبة والتفاهم ، فى حلقات الدرس ، بين أبناء مختلف الأمم .

وما زال الأزهر ، كعهده طوال القرون ، قائماً بهذا الدور العلمى والاجتماعى العظيم ؛ ثم هو إلى جانب ذلك ، ينظم اتصالاته اليوم بالعالم الإسلامى ، عن طريق بعوثه الدينية والثقافية ، التى

يوفدها إلى مختلف الأمم الإسلامية ، تحقيقاً لرغبتها ومعاونة لها على نشر الثقافة العربية والإسلامية .

ويتجه كثير من الأمم الإسلامية ، ولا سيما تلك التى تتكلم بغير العربية ، مثل الهند ، وبلاد الملايو ، وإندونيسيا ، وغيرها ، إلى مشيخة الأزهر لإمدادها ببعوث العلماء والوعاظ الأزهريين للاضطلاع بشرح تعاليم الإسلام على وجهها الصحيح ، وتزويدهم بمصادر الثقافة الإسلامية ، بلغاتهم الخاصة ، أوالتعريف بموقف الإسلام من بعض المشاكل العصرية الحيوية ، الإجتماعية الاقتصادية .

وللأزهر بعثات من علمائه فى كثير من البلاد الإسلامية ، العربية وغيرها ، مثل المملكة العربية السعودية ، ولبنان ، وسوريا ، والعراق ، والكويت ، والأردن ، والهند ، وبلاد الملايو ، وليبيا ، والسودان ، وإريتريا ، والصومال ؛ ويبلغ عدد مبعوثيه فى تلك البلاد نحو مائتين ؛ وله فضلا عن ذلك مركز ثقافى فى واشنطون ، به اثنان من أبنائه ، ومركز فى لندن به واحد منهم ؛ وأخص مهام هذين المركزين هو شرح تعاليم الإسلام الصحيحة ، والدفاع عنها إزاء الحملات المغرضة ، ونشر الثقافة الإسلامية والعربية .

وينفق الجامع الأزهر من ميزانيته ، على هذه البعثات الأزهرية

التى تضطلع بنشر الثقافة الإسلامية والعربية فى الخارج ، فى كل عام ، زهاء مائة ألف من الجنيهات .

وكذلك اتجه الأزهر فى ربع القرن الأخير إلى إرسال بعوث من أبنائه إلى الخارج لاستكمال دراستهم ؛ وقد تخرج منهم إلى اليوم عدد كبير فى الجامعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ؛ فتخرج فى الجامعات الألمانية منهم ثلاثة ، والإنجليزية عشرة ، والفرنسية عشرة ؛ ويشغل هؤلاء العلماء الأزهريون المحدثون كراسى التدريس فى كليات الجامعة الأزهرية ،وقد تولى أحدهم ، وهو فضيلة الدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج ، المتخرج فى جامعة باريس ، مشيخة الأزهر ، فى العهد الأخير .

ويوجد فضلا عن ذلك اثنان من طلاب الأزهر يدرسان الآن في أمريكا .

والمرجو أن يكون لهذه العناصر الأزهرية ، التى نهلت من الثقافة الغربية المحدثة ، وأساليبها العلمية المستنيرة ، أثرها فى إصلاح المناهج والأساليب الأزهرية ، وتجديدها بما يتفق وروح العصر .

ثبت المراجــع

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، واتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، والسلوك فى دول الملوك، للمقريزى .

كتاب قضاة مصر لأبى عمر الكندى ، وذيله لابن زولاق .

أخبار سيبويه المصرى لابن زولاق .

أخبار مصر لابن ميسر .

الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفى .

كتاب الإفادة والإعتبار لعبد اللطيف البغدادى .

وفيات الأعيان لابن خلكان .

بدائع الزهور لابن إياس .

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة .

الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، المنشور على هامش وفيات الأعيان .

صبح الأعشى للقلقشندى .

طبقات الشافعية للسبكى .

تاريخ ابن خلدون .

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى .

التبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى .

رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار »

رحلة البلوى المسماة « تاج المفرق » (مخطوط) .

رحلة النابلسى المسماة « الحقيقة والمجاز » (مخطوط) .

ذخيرة الأعلام لأحمد بن سعد الدين العمرى (مخطوط) ؛

الكواكب السائرة فى أعيان المـائة العاشرة لنجم الدين الغزى (مخطوط) .

سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى .

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى .

الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .

تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ؛ وعصر إسماعيل ؛ للأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

تاريخ الجامع الأزهر للسيد مصطفى بيرم (١٣٢١ ه) ؛

تقويم النيل لأمين باشا سامى .

مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا .

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد الله عنان ؛

وطائفـة كبيرة من الوثائق والإحصاءات عن الطلاب والأساتذة ، ومعهد البعوث الإسلامية ، والميزانية ، ومناهج

الدراسة ، وغيرها ، أمدتنى بها مشيخة الأزهر الجليلة[١] :

• • •

Encyclopédie de l'Islam.

E. W. Lane : Manners and Customs of Modern Egyptians

Von Hammer : Geschichte des Osmanischen Reiches.

Relation du Voyage de Nasiri Khosru

---

(١) أود أن أعرب هنا عن خالص شكرى لصديق الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر ، ومعاونيه الأفاضل ، لما بذلوه من عناية مشكورة فى إمدادى بالوثائق والإحصاءات المشار إليها .

فهرست

صفحة

وثائق وإحصاءات وملاحق

ا — الوثائق

ب — إحصاءات عامة عن الأزهر

فى مختلف العصور

صفحة

ج – الملاحق

فهرست الصور

HISTORY
of the Mosque and University of Al-Azhar

By

Mohamed Abdulla Enan

Author of "Decisive Moments in the History of Islam" 'Moorish Empire in Spain' 'Life and Work of Ibn Khaldun' etc.

Lajnet Al-Taalif Press
Cairo — 1958